" القائمة القصيرة لجائزة البوكر الدولية عام 2022 "

Shortlisted

The
2022
International
Booker
Prize

إيلينا تعرف

كلاوديا بينيرو

ترجمة: نهى مصطفى

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

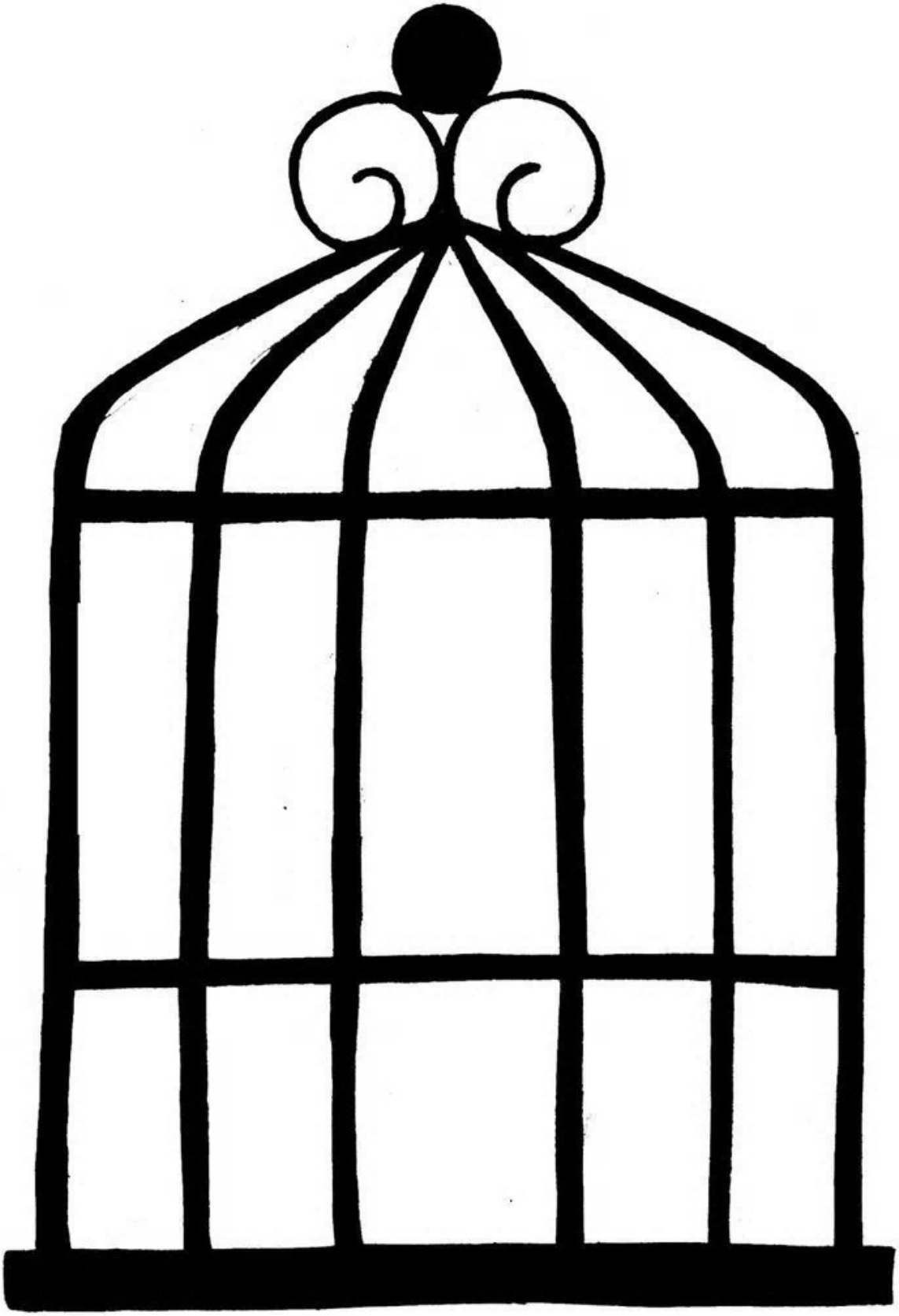

«المكتبة الرقمية العربية»

إيلينا تعرف
تأليف: كلاوديا بينيرو

ترجمة: نهى مصطفى
تحرير: هدى فضل
مُراجعةٌ لُغوية: سوسنة سيد

الطبعة الأولى: يوليو 2022
رقم الإيداع: 11343/2022
الترقيم الدولي:9789773197414

© جميع الحقوق محفوظة علَى النَّاشر

60 شارع قصر العيني – 11451 – القاهرة - مصر
ت: (202+) 27954529 – (202+) 27921943، ف: (202+27947566)
www.alarabipublishing.com.eg

Claudia Piñeiro c/o Schavelzon Graham Agencia Literaria www.schavelzongraham.com ©
First published as Elena Sabe in 2007, by © Alfaguara

كلاوديا بينيرو

إيلينا تعرف

روايةٌ مِنْ الأرجنتين

ترجمتها: نهى مصطفى

تمت مراعاة المعايير البيئية أثناء إعداد هذا الكتاب
We took into consideration the environment while doing this book

Obra editada en el marco del Programa Sur de Apoyo a las Traducciones del Ministerio de Relaciones]
[Exteriores, Comercio Internacional y Culto de la República Argentina
"تُنشر العمل في إطار برنامج "سور" لدعم الترجمات التابع لوزارة الخارجية والتجارة الدولية والعبادة في جمهورية الأرجنتين"

بطاقة فهرسة
بينيرو، كلاوديا
إيلينا تعرف/ تأليف: كلاوديا بينيرو؛ ترجمة نهى مصطفى.
- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2022
ص؛ سم.
تدمك: 9789773197414
1- القصص الأرجنتينية
أ- مصطفى، نهى (مترجم)
ب- العنوان 863

إلى أمي

"يفهمها الآن، تلك التي عاشت بجواره لعدة سنوات. كانت محبوبة، ولكن لم يفهمها أحد. لا تشعر بأنك قريب من شخص حقًا حتى يموت ذلك الشخص ويصبح بداخلك بالفعل".

"توماس برنهارت"، "جارجويل"

"حتى المبنى الخرساني ليس سوى بيت من ورق، ينتظر فقط هبة الريح المناسبة".

"توماس برنهارت"، "الغابة كبيرة، وكذلك الظلام".

1
الصباح
(الحبة الثانية)

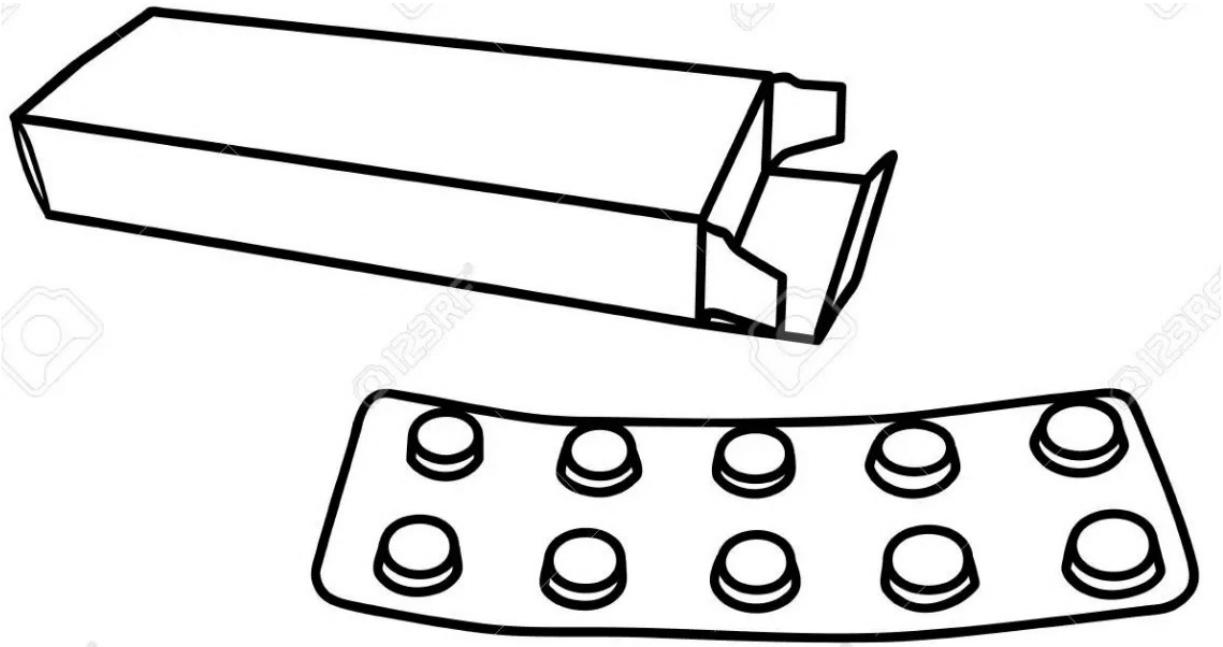

BUENOS AIRES

تكمن الحيلة في أن ترفع القدم اليمنى بضعة سنتيمترات فقط فوق الأرض، ثم تحركها إلى الأمام في الهواء بما يكفي لتتجاوز القدم اليسرى. عندما تصل إلى أقصى ارتفاع ممكن، تنزلها. تفكر "إيلينا" أن هذا هو كل ما في الأمر. ورغم أن مخها يأمرها بالحركة، فإن قدمها اليمنى لا تتحرك. لا ترتفع لأعلى، ولا تتحرك إلى الأمام في الهواء، ولا تعود لأسفل مرة أخرى. الأمر في غاية البساطة. لكنه لا يحدث.

لذلك، "إيلينا" تجلس وتنتظر في مطبخها. عليها أن تستقل القطار إلى المدينة في الساعة العاشرة. القطار الذي يليه سيأتي في الساعة الحادية عشرة، لكن هذا غير مناسب، فقد تناولت الحبة في الساعة التاسعة، لذلك تظن - بل متأكدة - أن عليها أن تأخذ قطار الساعة العاشرة فور أن يتمكن الدواء من إقناع جسدها باتباع أوامر مخها. لن يصلح قطار الساعة الحادية عشرة، لأنه بحلول ذلك الوقت سيكون تأثير الدواء قد تلاشى واختفى تقريبًا. عندها ستعود إلى ما هي عليه الآن، ولكن دون أي أمل في أن يكون لدواء "ليفودوبا" أي مفعول.

"ليفودوبا" هو اسم المادة الكيميائية التي ستبدأ الانتشار في جسدها بمجرد أن تذوب الحبة. أصبح الاسم مألوفًا لها منذ فترة.. "ليفودوبا"، هذا ما قاله الطبيب وكتبته على ورقة لأنها تعلم أنها لن تفهم خط الطبيب. إنها تعرف أن "ليفودوبا" يتحرك في جسدها. كل ما يمكنها فعله الآن هو الانتظار.

من الذاكرة، تبدأ في عد الشوارع وتذكُّر أسمائها، من الأول إلى الأخير ومن الأخير إلى الأول: "لوبو"، "مورينو"، "25 مايو"، "ميتري"، "روكا".

"روكا"، "ميتري"، "25 مايو"، "مورينو"، "لوبو".. "ليفودوبا".

إنها على بعد خمسة شوارع فقط من محطة القطار، وتفكر في أنها ليست بعيدة إلى هذا الحد. تستمر في تلاوة أسماء الشوارع وكأنها في صلاة، وتستمر في الانتظار.

خمسة.

لا تستطيع إعادة ترتيب هذه الشوارع الخمسة ولكن يمكنها تكرار أسمائها في صمت.

تتمنى ألا تقابل أي شخص تعرفه اليوم. لا تريد أن يسألها أحد عن صحتها أو يعزيها تعزية متأخرة في وفاة ابنتها. كل يوم يظهر شخص جديد لم يستطع حضور الصلاة أو الدفن. أو لم يجرؤ على الحضور، أو لم يُرِد الحضور. عندما يموت شخص مثل "ريتا"، يشعر الجميع بأنهم مدعوون إلى الجنازة. هذا هو السبب في أن موعد الساعة العاشرة صباحًا أسوأ وقت، كما تعتقد، لأنها حتى

تصل إلى المحطة، عليها أن تمر بجوار البنك، واليوم هو يوم قبض المعاشات، لذلك من المحتمل جدًا أن تقابل جارًا، أو أي شخص آخر، أو عدة أشخاص.

رغم أن البنك لا يفتح إلا الساعة العاشرة، وهو الوقت نفسه بالضبط الذي سيصل فيه قطارها إلى المحطة وستكون هى هناك، جاهزة للصعود، والتذكرة في يدها. لكن، قبل ذلك، **"إيلينا" تعرف** أنه سيتعين عليها اجتياز صف أصحاب المعاشات خارج البنك. يقفون وكأنهم يخافون أن ينفد المال، لذلك يفضلون الوصول إلى هناك مبكرًا. يمكنها تجنب المرور من أمام البنك إذا سارت حول المبنى، لكنه شيء لا يسمح به مرض "باركنسون".. هذا هو اسمه.

"إيلينا" تعرف أنها لم تعد تتحكم في بعض أجزاء جسدها منذ فترة. قدمها على سبيل المثال هي المسؤولة عنها، أم هل عليها أن تشير إليه بـ"هي"؟ تتساءل عما إذا كان مرض "باركنسون" مذكرًا أم مؤنثًا، مع أن الاسم يبدو ذكوريًا، فإنه لا يزال علة، والعلة مؤنثة، تمامًا مثل المصيبة أو النقمة. لهذا السبب تعتقد أنها يجب أن تتعامل معها على أنها مؤنثة، لأنها عندما تفكر في الأمر، تفكر في "تلك العلة اللعينة، العاهرة". والعاهرة مؤنثة، وليست مذكرًا. إذا سامحتني "هي" على لغتي البذيئة.

شرح لها الدكتور "بينجاس" عدة مرات، لكنها ما زالت لا تفهم. إنها تفهم ما لديها لأنه داخل جسدها، لكنها لا تفهم بعض الكلمات التي يستخدمها الطبيب. كانت "ريتا" معها عندما شرح لها المرض لأول مرة. "ريتا"، التي ماتت الآن. أخبرهما أن مرض "باركنسون" هو تدهور في خلايا الجهاز العصبي. وقد كرهت هي وابنتها تلك الكلمة، **تدهور**.

لا بد أن الدكتور "بينجاس" قد لاحظ ذلك لأنه حاول بسرعة أن يشرح قائلًا:
- مرض بالجهاز العصبي المركزي يؤدي إلى تدهور الخلايا العصبية، أو تحورها، أو تغييرها، أو تعديلها، بحيث تتوقف عن إنتاج "الدوبامين".

ثم عرفت "إيلينا" أنه عندما يأمر مخها قدمها بالتحرك، على سبيل المثال، فإن الأمر سيصل إلى قدمها، لكن فقط إذا أخذه "الدوبامين" إلى هناك، مثل المرسال، كما فكرت في ذلك اليوم. أي أنها ممثلة لمرض "باركنسون"، و"الدوبامين" هو المرسال.

فكرت أن مخها يُعتبر لا شيء، لأن قدمها لا تستمع إليه الآن، مثل الملك المخلوع الذي لا يدرك أنه لم يعد مسؤولًا بعد الآن. أو قصة الإمبراطور الذي خرج أمام شعبه دون ملابس. تلك القصة التي اعتادت أن تحكيها لـ"ريتا" عندما كانت صغيرة. الملك المخلوع، والإمبراطور الأحمق. والآن أصبح هناك: **هي**.. "العلة". ليست "إيلينا".. ولكن مرضها، والمرسال، والملك المخلوع.

تكرر "إيلينا" الأسماء مثلما تكرر أسماء الشوارع التي يجب أن تمر بها للوصول إلى المحطة. الأسماء ترافقها في أثناء انتظارها. من الأول إلى الأخير ومن الأخير إلى الأول. إنها لا تحب عبارة "إمبراطور دون ملابس" لأن ذلك يعني أنه عارٍ. تفضل الملك المخلوع. تنتظر، وتكرر، تقسمهم إلى أزواج: العلة والمرسال، المرسال والملك، الملك والعلة. حاولت تحريك قدمها مرة أخرى، لكنها لا تزال غريبة عنها، ليست عاصية فحسب، بل صماء. قدم صماء. كم تحب "إيلينا" أن تصيح فيها: "تحركي يا قدمي، أسرعي، اللعنة!". أن تصرخ: "تحركي وأسرعي، اللعنة!". لكنها تعلم أن ذلك بلا فائدة، لأن قدمها لن تستمع إلى صوتها أيضًا.

لذلك هي لا تصرخ، إنها تنتظر. تتلو أسماء الشوارع والملوك، ثم الشوارع مرة أخرى. تضيف كلمات جديدة إلى صلاتها: "الدوبامين"، "ليفودوبا". تفترض أن الرابط بين كلمتي "دوبامين "و"ليفودوبا" هو مقطع "دوبا"، يجب أن تكونا مرتبطتين، لكنها تخمن فقط، هي لا تعرف على وجه اليقين. تتلو الكلمات وتلعب بها وتترك لسانها يلتوي وتنتظر ولا تهتم. لا تهتم إلا بمرور الوقت وأن تذوب الحبة وتتحرك عبر جسدها إلى قدميها اللتين ستحصلان أخيرًا على رسالة تفيد بأنه يتعين عليهما البدء في التحرك.

إنها متوترة، وهذا ليس جيدًا، لأنها عندما تُصاب بالتوتر فإن الدواء يستغرق وقتًا أطول في الإتيان بمفعوله. لكنها لا تستطيع أن تفعل أي شيء حيال ذلك. اليوم ستلعب الورقة الأخيرة، ستحاول معرفة من قتل ابنتها. ستتحدث إلى الشخص الوحيد في العالم الذي تعتقد أنها يمكن أن تقنعه بمساعدتها. هناك ديْن قديم، شيء يكاد أن يُنسى. سوف تستدعي هذا الديْن، رغم أنه إذا كانت "ريتا" بقيد الحياة، فإنها لن توافق.

- الحياة ليست سوق مقايضة يا أمي، بعض الأشياء تتم لأنها مشيئة الله.

لن يكون الأمر سهلًا، لكنها ستحاول.

"إيزابيل" هو اسم المرأة التي تبحث عنها. إنها غير متأكدة من أن "إيزابيل" ستتذكرها. في الأغلب لا، سوف تتذكر "ريتا"، لأنها ظلت ترسل لها بطاقة عيد الميلاد كل عام.

ربما لم تعلم بوفاة "ريتا". ربما لم يخبرها أحد، أو لم تقرأ النعي الذي نشرته إدارة المدرسة الكاثوليكية، التي عملت فيها "ريتا"، بعد يومين من الدفن، يعبرون فيه عن حزن الإدارة والموظفين والطلاب جميعًا على رحيلها المفاجئ. إذا لم تجد "إيزابيل" اليوم، فمن شبه المؤكد أنها سترسل بطاقة أخرى في ديسمبر المقبل، موجهة إلى امرأة ميتة، تتمنى لها عيد ميلاد مجيدًا وسنة جديدة سعيدة.

إنها ستتذكر "ريتا" بالتأكيد، لكن هي، "إيلينا"، ربما لن تتذكرها. وحتى لو تذكرتها فلن تتعرف عليها بعد أن أصبحت محاصرة، منحنية، داخل جسد متدهور لا يتناسب مع عمرها.

عندما تواجه "إيزابيل"، ستكون مهمة "إيلينا" هي شرح من هي، ولماذا هي هنا. ستخبرها عن "ريتا"، وعن وفاتها. أو بالأحرى ستخبرها بالقليل الذي تفهمه من كل ما قالوه لها. تعرف "إيلينا" أين تجد "إيزابيل"، لكنها لا تعرف كيف تصل إلى هناك، رغم أنها ذهبت إلى هناك منذ عشرين عامًا مع "ريتا". إذا وافاها الحظ، أو إذا لم تنتقل "إيزابيل" للسكن في مكان آخر، أو إذا لم تمت مثل ابنتها، فستجدها هناك، في ذلك المنزل القديم في منطقة "بلجرانو". المنزل الذي له باب خشبي ثقيل بإطار برونزي، بجانب بعض عيادات الأطباء.

إنها لا تتذكر اسم الشارع، لو استطاعت فقط أن تتذكر السؤال الذي طرحته عليها ابنتها في ذلك اليوم: "هل سمعتِ يومًا بشارع اسمه "جندي الاستقلال" يا أمي؟"، لتذكرته، لكنها ستعرفه قريبًا، لأنها تتذكر أنه يقع على بعد شارع أو اثنين من ذلك الشارع الذي يمتد بطول حافة بوينس آيرس من محطة "ريتيرو" إلى طريق "جنرال باز" السريع، بالقرب من ميدان صغير بجانب خط القطار. لم تشاهدا القطار، لكنهما سمعتا أنه يمر، وسألت "ريتا" عن هذا الخط. لكن "إيزابيل" لم تجب، لأنها كانت تبكي بشدة.

لتعرف كيف تصل إلى هناك، للمرة الثانية بعد ما يقرب من عشرين عامًا، ذهبت "إيلينا" إلى موقف سيارات الأجرة الذي افتُتح منذ عدة سنوات على ناصية شارعها، ليحل محل المخبز الذي كانت "إيلينا" تشتري منه الخبز كل يوم منذ انتقالها إلى هذا الحي بوصفها عروسًا جديدة، حتى اختفى المخبز ذات يوم وظهر موقف السيارات. لم يعرف السائق، وقال: - إنني جديد هنا.

اعتذر وسأل مديره، كرر كلمات "إيلينا": - ما اسم الشارع الكبير الذي يمتد بطول حافة بوينس آيرس، من "ريتيرو" إلى "جنرال باز"، بالقرب من خط القطار؟

أجاب مديره: - "ليبرتادور".

قالت "إيلينا": - نعم، هذا هو، "ليبرتادور".

بمجرد أن قال ذلك، تذكرت، وأخبرتهما أنه يتعين عليها الذهاب إلى "بلجرانو"، إلى ميدان صغير. رد سائق آخر عاد لتوه من رحلة: - ميدان "أوييروس".

قالت "إيلينا" إنها لا تعرف الاسم. كرر الرجل بثقة: - "أوييروس".

لكنها لم تتذكر اسم الشارع، فقط الباب الخشبي والإطار البرونزي، و"إيزابيل" وزوجها.. قليلًا جدًا عن زوجها.

- هل نأخذك إلى هناك؟

سألها المدير، وقالت "إيلينا": - لا.

إنها رحلة طويلة، ونفقات باهظة، ستذهب بالقطار، وإذا لزم الأمر، ولم تستطع القيام بذلك بمفردها وشَعَر جسدها بالتعب خلال رحلة القطار، ستستقل سيارة أجرة بالقرب من "كونستيتثيون". عرض عليها المدير: - سنقدم لك سعرًا خاصًا.

ولكنها أصرت: - لا، شكرًا لك.

- يمكنك الدفع لاحقًا.

قالت "إيلينا": - سآخذ القطار، أنا لا أحب الديون.

لم ينجحوا في أن يغيروا رأيها.

- لا توجد محطة قطار بالقرب من هناك يا سيدتي.

قال أحد السائقين مضيفًا أن أقرب محطة هي "كارانزا": - ولكن من هناك سيتعين عليك المشي ما يقرب من عشرة شوارع.

أضاف: - إذا ذهبتِ بسيارة أجرة، فاحرصي على عدم السماح لهم بأخذك في جولة أطول من اللازم. أخبري السائق أن يتجه مباشرة إلى شارع "9 يوليو"، ثم إلى "ليبرتادور"، ومن هناك مباشرة إلى ميدان "أوبيروس".

صحح له السائق الذي يعرف الطريق: - حسنًا، لا، لأن "ليبرتادور" يؤدي إلى شارع "فيجيروا ألكورتا"، قبل القبة السماوية. سيتعين عليه توخي الحذر والانعطاف إلى اليسار، نحو النصب التذكاري الإسباني، ثم يعود مجددًا إلى "ليبرتادور" من هناك.

أضاف المدير: - أو إلى ميدان "باليرمو إيبودروم". لكن لا تدعيهم يأخذونك في جولة أطول من اللازم. هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين منا أن نوصلك؟

غادرت "إيلينا" دون أن تجيب، لأنها أجابت بالفعل على هذا السؤال، وكان الأمر مجهدًا لها بالفعل أن تضطر الإجابة على كل شيء مرتين.

شارع "كونستيتثيون"، "9 يوليو"، "ليبرتادور"، "فيجيروا ألكورتا"، القبة السماوية، النصب التذكاري الإسباني، "ليبرتادور"، "أوبيروس"، باب خشبي، إطارات برونزية، باب، " أوبيروس"، "ليبرتادور"، "9 يوليو"، "كونستيتثيون".

من الأخير إلى الأول، ومن الأول إلى الأخير.

إنها لا تعرف في أي نقطة من الصلاة يجب أن تضيف اسم ميدان "باليرمو إيبودروم".

إنها تنتظر، تعد الشوارع مرة أخرى. خمسة شوارع إلى المحطة، وبعد ذلك لا تعرف الكثير، أو لا تتذكره، لأنه ليس أمامها خيار آخر.

ملك بلا تاج. هي. من مكانها وهي جالسة، تحاول رفع قدمها اليمنى في الهواء، تستجيب القدم الآن للرسالة وترتفع. إنها جاهزة، تعلم ذلك. تضع راحتيها على فخذيها وهي جالسة، وتضم قدميها معًا بحيث تصبح ركبتاها مستقرتين على زاوية تسعين درجة، ثم تضع يدها اليمنى على كتفها اليسرى ويدها اليسرى على كتفها اليمنى، وتبدأ في التأرجح إلى الخلف والأمام ثم تقف بقوة الاندفاع. هذه هي الطريقة التي علمها لها الدكتور "بينيجاس" للوقوف، وهي تعلم أن الأمر أصعب بهذه الطريقة، لكنها تحاول قدر المستطاع. تتدرب، لأنها تريد أن تكون قادرة على القيام بذلك في الفحص الطبي القادم.

تريد أن تترك انطباعًا جيدًا لدى الدكتور "بينيجاس"، وتريه أنها تستطيع القيام بذلك، رغم الأشياء التي قالها لها خلال موعدها الأخير، قبل أسبوعين من العثور على "ريتا" ميتة. تقف أمام الكرسي، ترفع قدمها اليمنى في الهواء، بضعة سنتيمترات فقط، وتحركها إلى الأمام حتى تتخطى القدم اليسرى بدرجة كافية بحيث يمكن أن نسمي هذه الحركة خطوة، ثم تنزلها على الأرض، والآن حان دور القدم اليسرى لتفعل الشيء نفسه، الشيء نفسه تمامًا. ترفعها صعودًا في الهواء، ثم لأسفل. فوق، إلى الأمام، لأسفل. هذا كل ما في الأمر. لا شيء أكثر من ذلك. مجرد المشي للوصول إلى قطار الساعة العاشرة.

2

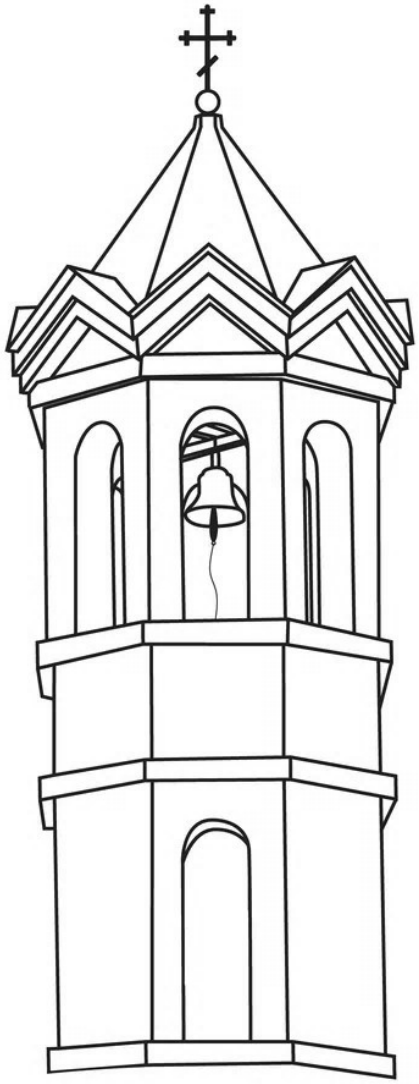

VectorStock®
VectorStock.com/19277144

ماتت "ريتا" بعد ظهر يوم ممطر.

كان على الرف في غرفتها تمثال زجاجي لكلب البحر، يتحول إلى لون وردي غامق عندما تقترب الرطوبة في الهواء من نسبة مائة بالمائة، ويصبح هطول الأمطار وشيكًا. كان هذا هو لون التمثال في اليوم الذي ماتت فيه. اشترته أثناء إجازة صيفية في مدينة "مار ديل بلاتا" الساحلية، حيث كانت "إيلينا" و"ريتا" تقضيان عطلتهما كما اعتادتا كل عامين، حتى بدأ مرض "إيلينا" يسخر من محاولاتها المخزية للحركة. في السنوات التي لم تسافرا فيها في عطلة، مكثتا في المنزل واستغلتا مدخراتهما لطلاء المنزل، أو لإجراء إصلاحات لا يمكن تأجيلها، مثل إصلاح كسر في الأنابيب، أو تغيير مرتبة بالية، أو حفر حفرة جديدة للصرف الصحي.

في العام الماضي، مكثتا في المنزل، كان عليهما استبدال كل بلاط الفناء الخلفي تقريبًا لأن جذور شجرة "البارايسو"، التي لم تكن حتى شجرتهما، تسللت خلسةً تحت فناء منزلهما من الجانب الآخر من السور.

في السنوات التي ذهبتا فيها للإجازة، كانتا تتجهان دائمًا إلى الساحل إلى "مار ديل بلاتا". تستأجران منزلًا من غرفتين قبالة شارع "كولون"، على بعد شارع واحد، من أعلى نقطة في التل، التي بعدها ينحدر نازلًا إلى البحر. تنام "ريتا" في غرفة النوم، وتنام "إيلينا" في غرفة المعيشة والطعام.

- أنت تستيقظين مبكرًا يا ماما، من الأفضل لك أن تكوني بالقرب من المطبخ حتى لا تزعجينني.

تمامًا كما تفعلان كل عامين، تضع "ريتا" دائرة حول الإعلانات المبوبة للشقق في حدود ميزانيتها، للاختيار من بينها لاحقًا بناءً على الشقة التي يعيش مالكها بالقرب من المنزل المؤجر، حتى لا تضطران إلى الذهاب بعيدًا للدفع وأخذ المفتاح. في النهاية كانت جميع الأماكن متشابهة إلى حد كبير، لن تؤثر بعض الأطباق الإضافية أو المفروشات الأكثر جمالًا على عطلتهما. ثم تذهبان معًا لإتمام الصفقة.

رغم أنهما ستأخذان الشقة على أي حال، فإنهما تطالبان برؤية الصور، فيعرضها أصحابها، لكنها لن تكون تمثيلًا صادقًا للواقع أبدًا، ولن تُظهر أي قذارة في المكان. لكن هذه لم تكن مشكلة أيضًا، لأن "إيلينا" أحبت التنظيف، هذا عندما كانت لا تزال تمتلك جسدًا يمكنه القيام بذلك. أراحها دعك الأرضيات، بل وخفف بأعجوبة من آلام ظهرها. بعد ظهر يوم واحد فقط، لم يتغير كثير بالشقة، لكنها على الأقل أصبحت أنظف.

لا تذهبان إلى الشاطئ، فهناك كثير من الناس، والحر شديد. لا تحب "ريتا" حمل المظلة، وترفض "إيلينا" أن تطأ قدمها على الرمال إذا لم تضمن وجود الظل. اعتبرتا الأمر تغييرًا للمشهد، وهذا أفضل. تنامان أطول من المعتاد، وتأكلان كرواسون طازجًا على الإفطار، وتطهوان كثيرًا من الأسماك الطازجة. وبعد الظهر، عندما تبدأ الشمس في المغيب، تخرجان للتمشية في شارع "رامبلا".

تمشيان من الجنوب إلى الشمال على طول البحر، وتعودان سيرًا من الشمال إلى الجنوب على الطريق. تتجادلان دائمًا، بعد ظهر كل يوم. حول أي شيء. لم يكن الموضوع الذي تتجادلان حوله مهمًا، المهم هو الطريقة التي اختارتها كلتاهما للتواصل.

تتراكم الحجج بعضها فوق بعض، واحدة مخبأة تحت الأخرى، مستعدة وجاهزة للقفز إلى الأمام، بغض النظر عن مدى ارتباطها بالموضوع المطروح. تتصارعان كما لو أن كل كلمة تُقال عبارة عن لسعة سوط من الجلد، تبدأ إحداهما في الضرب، ثم تتبعها الأخرى. تجرح جسد المنافسة بالكلمات، ولا تترك للأخرى الفرصة لكي ترى ما إذا كانت قد أصابت هدفها أم لا. تتوقفان قبل أن يتحول الأمر إلى مشاجرة جسدية، لكنهما تستمران حتى تسرع إحداهما تاركة الأخرى خلفها. عادة ما تكون "ريتا"، تمشي عدة خطوات إلى الأمام، تتمتم بغضب تحت أنفاسها، تتخلى عن القتال خوفًا من كلماتها أكثر من أي ألم تشعر به أو تثيره.

رأت تمثال كلب البحر الزجاجي في اليوم الأول من عطلتهما في إحدى السنوات، في متجر يبيع عقودًا من الأصداف، ومنافض سجائر مرسوم عليها قلعة "توريون ديل مونخي"، وصناديق المجوهرات المزينة بأصداف صغيرة، وفتاحات الزجاجات على شكل هيكل لطفل صغير، أو كاهن، أو راعي بقر. لم تجرؤ أي منهما على النظر إليها، وهدايا تذكارية أخرى من هذا القبيل.

توقفت "ريتا" أمام نافذة المتجر ونقرت على الزجاج بإصبعها السبابة التي اعتنت بها بالمبرد مؤخرًا وقالت: - سأشتري هذا قبل أن نغادر.

كلب بحر يتنبأ بالطقس: أزرق = مشمس، وردي = ممطر.

هكذا كُتب على اللافتة المثبتة على الزجاج، بخط كبير بحروف لامعة زرقاء. لم توافق "إيلينا": - لا تضيعي أموالك التي تحصلين عليها بصعوبة على الحلي الغبية.

- سوف أصرف أموالي على ما أريد.

- إحساسك بالمتعة مشوه.

- دعينا لا نتحدث عن التشوهات.

- أنت على حق، فصديقك في البنك يتكفل بهذا.

- على الأقل لديَّ رجل يحبني.

- إذا كان هذا يسعدك يا عزيزتي.

- من الصعب أن أكون سعيدة في أي مكان بالقرب منك يا ماما.

وجهت لها "ريتا" هذه الضربة النهائية وسبقتها بعدة خطوات. من الخلف، تبعت "إيلينا" ابنتها مع الحفاظ على مسافة محددة، ثم بعد بضع خطوات فقط، فرقع سوطها: - بشخصية فاسدة كهذه لن تكوني سعيدة أبدًا.

- هذه وراثة، لم أسرقها يا ماما.

- هل هذا صحيح؟

هكذا ردت "إيلينا"، وسكتت.

عندما وصلتا إلى فندق "بروفينثيال"، استدارتا وعادتا جنوبًا. كانتا تكرران الروتين نفسه كل يوم: المشي، الكلام اللاذع كالسوط، والابتعاد لمسافة محددة، وأخيرًا الصمت. تتغير الكلمات، تختلف أسباب المعارك، لكن الإيقاع، والنبرة، والروتين، لا تتغير أبدًا. لم تذكرا كلب البحر مرة أخرى، رغم أنهما مرَّتا بعد ظهر أحد الأيام بمتجر بيع التذكارات والأصداف، وضحكت "إيلينا" وقالت: - لماذا لا تأخذين فتاحة الكاهن إلى الأب "خوان"؟

لكن ابنتها لم تعتقد أن الأمر مضحك:

- رأسك ممتلئ بالأفكار القذرة يا ماما.

قبل انقضاء الأسبوعين، تمامًا كما كانت "ريتا" قد أعلنت، اشترت كلب البحر الذي يتنبأ بالطقس. دفعت ثمنه نقدًا. كانت لديها بطاقة ائتمان استلمتها عندما عينتها المدرسة رسميًا، حيث تدفع لها راتبها بالإيداع المباشر في حسابها في البنك، لكنها لم تحمل البطاقة معها أبدًا خوفًا من تعرضها للسرقة. طلبت منهم لف كلب البحر في كثير من الورق حتى لا ينكسر، لكنهم استخدموا غلافًا من الفقاعات بدلًا من ذلك، واستمتعت "ريتا" بفرقعتها لاحقًا، بعد أن وضعت كلب البحر في حضنها طوال رحلة الحافلة إلى المنزل.

لا تزال "إيلينا" تحتفظ به، كما تحتفظ بكل أغراض "ريتا". لقد وضعت كل شيء في صندوق كرتوني كبير، جاء فيه تليفزيون الجيران الـ29 بوصة. كان جارهما قد أخرج الصندوق مع القمامة، وسألته "إيلينا" إذا كان بإمكانها أن

تأخذه لوضع أشياء "ريتا" فيه. أعطاها إياه دون أن ينبس ببنت شفة، كما لو كان يقدم تعازيه في صمت. حتى أنه ساعدها على إدخاله لمنزلها.

وضعت "إيلينا" كل شيء بداخله. كل شيء عدا الملابس. لم تستطع تحمل وضع الملابس، كانت لا تزال تحمل رائحتها، رائحة ابنتها. تعرف "إيلينا" أن الملابس تحتفظ دائمًا برائحة الشخص، حتى لو تم غسلها آلاف المرات بمنظفات مختلفة. إنها ليست رائحة العطر، أو مزيل العرق الذي كان يستعمله الشخص، أو صابون الغسيل الذي غُسلت به الملابس عندما كان الشخص لا يزال حيًا. إنها ليست رائحة المنزل أو العائلة، لأن ملابس "إيلينا" لا تحمل الرائحة نفسها. إنها رائحة الميت عندما كان على قيد الحياة. رائحة "ريتا". لا تطيق أن تشم هذه الرائحة دون أن ترى ابنتها. الشيء نفسه حدث مع ملابس زوجها، ولكن في ذلك الوقت لم تكن لديها أي فكرة كم يمكن أن تؤلم هذه الرائحة أكثر عندما تكون رائحة ابنتك. لذلك لن تضع الملابس في الصندوق. كما أنها لا ترغب في إعطائها للكنيسة، ثم تضطر لرؤية سترة "ريتا" الخضراء ذات يوم من بعيد وهي تدفئ شخصًا آخر. لذلك أحرقت ملابس ابنتها في كومة في الفناء الخلفي. أخذت معها أربعة أعواد كبريت لإشعالها. كانت أول الأشياء التي اشتعلت فيها النيران هي الجوارب المصنوعة من النايلون، والتي ذابت بفعل الحرارة وتحولت إلى حمم صناعية، ثم بدأ كل شيء في الاشتعال بالتدريج. كانت هناك أسلاك داخلية، مشابك معدنية، وسحابات متبقية في الرماد بعد ذلك، وضعتها "إيلينا" في كيس قمامة، وأخرجته لجامع القمامة.

لذا لم تضع الملابس في صندوق الجيران. لكنها وضعت الأحذية، وزوجًا جديدًا من القفازات الصوفية التي لم تكن لها رائحة مميزة، وصورًا قديمة، ودفتر تليفونات "ريتا"، وجميع أوراقها المهمة باستثناء بطاقة هويتها، حيث كان عليها أن تقدمها لدار تنظيم الجنازة حتى يمكنهم القيام بالدفن، وكذلك جدول يوميات "ريتا"، وبطاقتها المصرفية، ومنسوجات "تريكو" لم تنتهِ منها، وصورة الصحيفة التي التُقطت لجميع المعلمين في اليوم الذي افتتحوا فيه المدرسة الثانوية الجديدة، والكتاب المقدس الذي أعطاها الأب "خوان" إيَّاه، ومكتوب بداخله: "عسى أن ترافقك كلمة الرب كما فعلت مع والدك".

وضعت كذلك نظارة "ريتا" للقراءة، وأدوية الغدة الدرقية، وبطاقة صلاة صغيرة من "سانت إكسبيديتوس"، أعطاها لها سكرتير المدرسة عندما استغرق معاش "إيلينا" التقاعدي وقتًا طويلًا لإنجازه، وقصاصات الجريدة من اليوم الذي وُلدت فيه ابنة "إيزابيل": "إيزابيل" و"ماركوس مانسيلا" يعبران عن فرحتهما بولادة ابنتهما "ماريا خولييتا" في مدينة بوينس آيرس في 20 مارس 1982.

قُص الإعلان بعناية، والحواف مستقيمة تمامًا. وضعت في الصندوق أيضًا الملف الذي يحتوي على البطاقات التي أرسلها "آل مانسيلا" في كل عيد ميلاد. وعلبة الشوكولاتة الفارغة على شكل قلب التي أعطاها إياها صديقها فى البنك، التي استخدمتها للاحتفاظ بقصاصات من الورق وحزمة من الخطابات المطوية بشكل سيئ ومربوطة بشريط وردي.

لم تجرؤ "إيلينا" على قراءة الأوراق، ليس احترامًا لخصوصية ابنتها، ولكن من أجل مصلحتها الخاصة، لتتجنب معرفة تفاصيل قصة لم ترغب أبدًا في معرفة أي شيء عنها. تعتقد "إيلينا" أن قراءة بعض الأمهات لرسائل الحب المتبادلة مع ابنتها قد يكون أمرًا مثيرًا للاهتمام وممتعًا بشكل غير مشروع، لتتأكد الأم من أن الابنة أصبحت امرأة، وأنها مرغوب فيها، وأنها في طريقها للوفاء بواجبها تجاه النوع البشري، لتحقق دورة أخرى من الولادة والنضج والتكاثر والموت، لتعلم أن شعلتها ستستمر في العالم.

تنظر "إيلينا" إلى حزمة البطاقات وتفكر في تلك الكلمة، شعلة. شعلة. لم يكن هذا هو الحال مع "ريتا"، فهي لم تكن شابة تلتقي بمن تحبه، وبالتأكيد "روبرتو ألمادا" غير قادر على الارتقاء إلى مستوى هذا الوصف. كانا مخلوقين يائسين، بائسين قد وقعا في الحب، ولا حتى ذلك، كانا يشعران بالوحدة ولم يسبق لهما الدخول في اللعبة، واكتفيا بالمشاهدة من المدرجات.

ترى "إيلينا" أنه كان من الأفضل في تلك المرحلة أن تمتنع ابنتها عن اللعب تمامًا. لكن "ريتا" دخلت اللعبة، في وقت متأخر، في سن كانت "إيلينا" قد أصبحت فيه أرملة بالفعل. تشك في حدوث القليل بينهما، مجرد قبلات قليلة وبعض اللمسات الخرقاء في الساحة حيث تغرب الشمس خلف النصب التذكاري لعلم الأمة، أو في منزل "روبرتو" قبل أن تعود والدته إلى المنزل من صالون التجميل.

مهما حدث، فهي تفضل ألا تعرف، ناهيك عن أن تقرأ عنه في تلك الرسائل، مرعوبة من الكلمات التي كتبها "روبرتو" ردًا على ابنتها أكثر مما حدث بينهما بالفعل. لذلك لم تفك الشريط، لم تدعه ينفك ليكشف عن تلك الأوراق الممتلئة بالكلمات، بالكاد لمستها، وأعادتها إلى علبة الشوكولاتة وألقتها في الصندوق الكبير الذي أعطاها جارها إياه، إلى جوار المتعلقات الأخرى التي لم تحرقها النيران، بعد أن التهمت النار كل ما تفوح منه رائحة ابنتها.

حزمت كل شيء عدا كلب البحر الصغير. وضعت التمثال الذي يتنبأ بالطقس على رف في غرفة الطعام، بين الراديو والتليفون، لكنها دفعته بضعة سنتيمترات إلى الأمام. مسافة متناسبة مع المسافة التي حافظت

عليها "ريتا" و"إيلينا" بينهما بعد كل قتال. وضعته في موقع رئيسي. حتى تتمكن من رؤيته كل يوم، حتى لا تنسى أبدًا أنه بعد ظهر اليوم الذي ماتت فيه "ريتا"، كانت السماء تمطر.

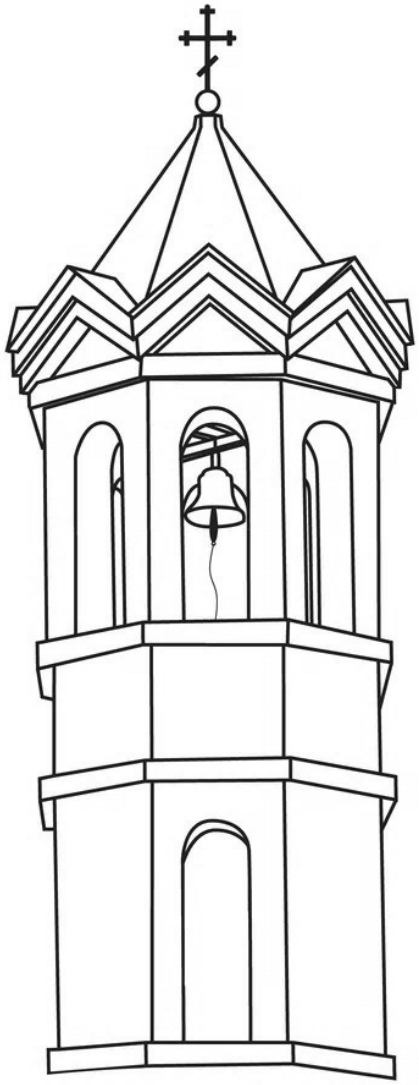

VectorStock®
VectorStock.com/19277144

3

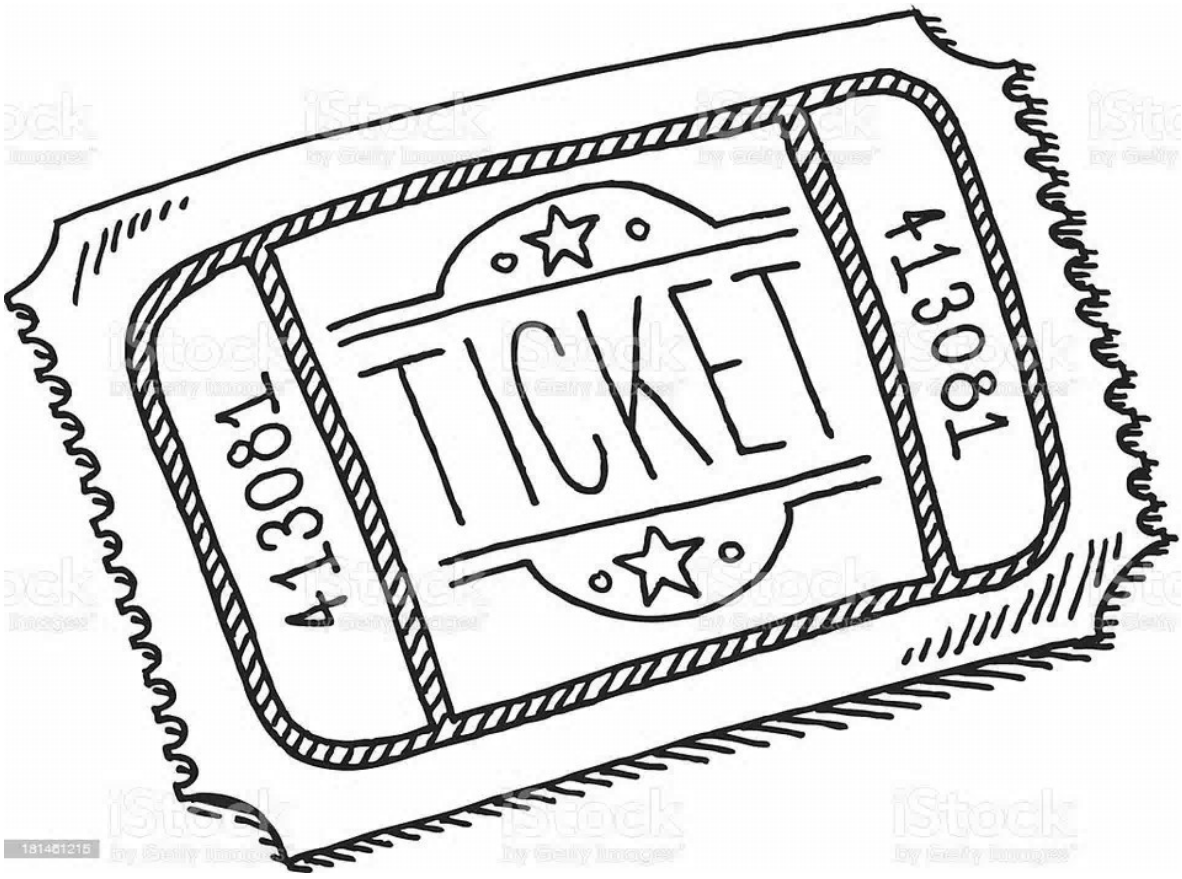

تتقدم "إيلينا" نحو المحطة. أمامها خمسة شوارع.

أولًا، سوف تمشي خمسة شوارع، ثم ستصل إلى شباك التذاكر، ستنظر بزاوية عينها إلى النافذة المفتوحة وستقول لبائع التذاكر: "رحلة ذهاب وعودة إلى ميدان كونستيتثيون". ستفتح محفظتها الخاصة بالعملات المعدنية، تأخذ العملات المعدنية التي عدتها ليلة أمس لشراء التذكرة، تمد يدها، تترك بائع التذاكر يأخذ العملات المعدنية ويعطيها التذكرة. ستمسك بقطعة الورق الصغيرة التي تسمح لها بركوب القطار، ولا تتركها تسقط منها، تضعها في جيب سترتها الصوفية، وبمجرد أن تتأكد من أنها لن تفقدها، ستنزل السلم ممسكة بالدرابزين، على الجانب الأيمن إن أمكن ذلك، لأن ذراعها اليمنى تستجيب بشكل أفضل بما يأمره المخ. عند أسفل السلم ستستدير يسارًا، تمشي عبر النفق، تحاول ألا تتنفس رائحة البول التي تفوح من الجدران والسقف والأرضية، التي تجر "إيلينا" قدميها بصعوبة عليها. إنها الرائحة النفاذة نفسها منذ اليوم الذي عبرت فيه النفق لأول مرة منذ فترة طويلة قبل أن تحتاج لحبوب تساعدها على المشي.

عندما كانت لا تعرف شيئًا بعد عن الملوك المخلوعين أو المراسيل، ممسكة بيد "ريتا" عندما كانت طفلة صغيرة، ثم لاحقًا وهي تسير خلفها بعدة خطوات عندما كبرت، دائمًا رائحة البول نفسها تحرق أنفها بمجرد التفكير فيها، ودائمًا تغلق فمها وتزم شفتيها وتضغطهما بإحكام لتتجنب استنشاقه، ولا تفتح فمها مطلقًا.

تتفادى المرأة التي تبيع الثوم والبهارات، الصبي الذي يبيع أقراصًا مضغوطة مقرصنة لن تتمكن من تشغيلها، أو الفتاة التي تبيع حلقات مفاتيح بأضواء ملونة وساعات منبه تصدر أصواتًا في أثناء مرورها. أو الرجل مبتور الساقين الذي يمد يده ليحصل على عملات معدنية كالتي كانت تمسك بها منذ قليل للحصول على تذكرة القطار. تنعطف مرة أخرى إلى اليسار، وتصعد السلالم نفسها التي نزلتها للتو، ثم تصل أخيرًا إلى الرصيف.

"إيلينا" تعرف أن كل هذا سيحدث بعد أن تسير الشوارع الخمسة التي لم تمشها بعد.

أنهت أول شارع. شخص ما يقول: "مرحبًا". رقبتها المتيبسة تجبرها على المشي وهي تنظر إلى الأرض، لذلك لا ترى من الذي حياها.

"العضلة القصية الترقوية الخشائية"، هذا هو اسم العضلة التي تقيد حركتها. العضلة التي تسحب رأسها إلى أسفل. اسمها "القصية الترقوية الخشائية" كما قال الدكتور "بينيجاس". طلبت منه "إيلينا": - اكتبها بأحرف كبيرة وإلا لن أفهم خط يدك أيها الطبيب.

حتى لا تنسى، وحتى لو أن جلادها يخفي وجهه، فإنها تعرف اسمه وتستطيع إدراجه في الصلاة التي تتلوها في أثناء انتظارها.

يستمر الشخص الذي حياها في طريقه، ورغم أنها نظرت بزاوية عينها، فإنها لا تتعرف على ظهر الشخص وهو يتحرك في الاتجاه المعاكس، لكنها قالت: "صباح الخير" على أي حال، لأن الشخص الذي حياها قال: "صباح الخير يا إيلينا"، وإذا كان يعرف اسمها فهو يستحق التحية.

عند الناصية الأولى، تنتظر مرور سيارة ثم تعبر الشارع. ورأسها إلى الأسفل، كل ما تستطيع رؤيته هو الإطارات البالية وهي تقترب منها، وتتجاوزها، ثم تتحرك السيارة بعيدًا. تنزل عن الرصيف، تمشي بسرعة بخطوات قصيرة، تحتك محدثة صوت بالأسفلت الساخن، تخطو على رصيف الشارع التالي، تتوقف لثانية، ثانية واحدة فقط، ثم تستمر. بعد خطوات قليلة، أخبرها بلاط الرصيف ذو اللونين الأبيض والأسود أنها تمشي بجوار منزل القابلة. رفضت "ريتا" أن تطأ قدمها هذا البلاط منذ اليوم الذي علمت فيه بإجرائها لعمليات الإجهاض داخل هذا المنزل.

- إنها مُجهضة وليست قابلة يا ماما.

- من قال لك ذلك؟

- الأب "خوان".

- وكيف عرف؟

- لأنه يسمع اعترافات كل من في الحي يا ماما، بالطبع هو يعرف.

- ألا يجب عليه الاحتفاظ بما يسمعه من الاعترافات سرًا؟

- لم يخبرني من أجرى الإجهاض يا ماما، ولكن أين بالضبط.

- وسرية الاعتراف لا تشمل هذا؟

- لا.

- من قال لك ذلك؟

- الأب "خوان".

رغم عدم اقتناعها، ولكن، امتثالًا لرغبات "ريتا"، لم تمشِ "إيلينا" بجوار المنزل أيضًا. كانتا تعبران الشارع دائمًا وتسيران على الرصيف الآخر ثم تعبرانه مرة أخرى بمجرد تجاوزهما منزل القابلة، كما لو كانتا تخشيان أن تطأ على هذا البلاط الذي سوف يلوثهما بطريقة ما، أو سيجعلهما متواطئتين، كما لو كان مجرد السير بجوار المنزل يحمِّلهما الذنوب.

"إيلينا" تعرف أن "ريتا" ليست هنا، قتلها شخص ما، على عكس ما يقوله الجميع، ورغم أنها ترغب في احترام ذكرى ابنتها المتوفاة، لا يمكنها السماح لنفسها برفاهية اتباع جميع طقوسها غير المعقولة.

على هذا الرصيف بالبلاط الأبيض والأسود بالتحديد، قابلت "ريتا" "إيزابيل"، المرأة التي تحاول العثور عليها، قامت بالتواصل معها لأول مرة. خطت "إيلينا" بثقة أكبر، بهدوء، كما لو أن الرصيف الذي لعنته ابنتها مرات عدة أصبح له معنى مهم فجأة.

تتردد عندما تصل إلى نهاية الشارع الثاني.

إذا سارت في خط مستقيم، فستكون على بعد ثلاثة شوارع فقط من كشك التذاكر حيث ستشتري تذكرة لرحلة ذهاب وعودة إلى ميدان "كونستيتثيون"، لكن هذا الطريق سيأخذها من أمام البنك حيث ينتظر أصحاب المعاشات في الطابور، ومن المحتمل جدًا أن تقابل شخصًا ما تعرفه. سيكون هناك من يريد أن يقدم لها تعازيه، وسيعطلونها لفترة أطول مما تريد، وستفوِّت قطار الساعة العاشرة.

إذا دارت حول المبنى، فسيتعين عليها السير ثلاثة شوارع أخرى في طريقها، وهذا يُعتبر كثيرًا من الجهد الذي لا تستطيع القيام به بسبب مرضها. لا تحب "إيلينا" أن تدين لعلتها بأي خدمات. لا ديون ولا خدمات. **"إيلينا" تعرف** أنها ستندم على ذلك، لأنها تعرف علتها تقريبًا كما تعرف ابنتها.

"تلك العلة اللعينة العاهرة".

في الماضي، حتى من قبل أن تواجه صعوبة بسيطة في إدخال ذراعها اليسرى في كم معطفها، حين لم تكن قد سمعت عن أدوية "مادوبار" أو "ليفودوبا" بعد، ولم تكن تعرف أن لمشيتها المتقطعة هذه اسمًا، وقبل أن تجبرها رقبتها على التحديق في حذائها طوال الوقت، كانت أيضًا تتجنب السير بجوار البنك. رغم أنه في ذلك الوقت لم يكن هناك خطر من أن يعزيها أحد. كانت تفعل ذلك على أي حال، لتتجنب مصادفة "روبرتو ألمادا"، صديق "ريتا"، ابن مصففة الشعر.

- صديقي يا ماما.

- لا يصح لأي واحدة في سنك أن يكون لها صديق.

- بماذا تريدين أن أناديه إذًا؟

- "روبرتو"، هذا أكثر من كافٍ.

لكنها لا تستطيع أن تسلك الطريق الأطول الآن.

يتحول بلاط الرصيف إلى الرمادي، يصبح أكبر وأكثر لمعانًا من أي رصيف آخر في طريقها، **"إيلينا" تعرف** أنها أمام البنك.

- إنه بلاط من نوع خاص، مصمم لحركة المرور الكثيفة على الأقدام يا "إيلينا "، مصنوع محليًا، ولكنه في مثل جودة البلاط الإيطالي.

هكذا أوضح "روبرتو" بفخر وهو يتحدث عن المكان الذي عمل فيه منذ أن كان في سن الثامنة عشرة.

يمكنها أن ترى من زاوية عينها صفًا من الأحذية التي تقف أمام الباب. تستطيع رؤية سيقان مرتدي الأحذية حتى الركبة. لا ترى أي أحذية رياضية أو جينز، مجرد أحذية بالية من الجلد، أو من القماش، أو صندل يغطي ضمادات القدم والكاحل. أقدام بنفسجية متورمة، تتقاطع فيها العروق، عليها النمش والبقع. إنها أقدام كبار السن الذين يخشون أن ينفد المال.

لا تنظر إليهم، تخشى أن تتعرف على ساق شخص ما من بينهم، وتفضل ألا تتوقف. تتجاوز الصف وتشعر بالأمان بمجرد اختفاء صف الأحذية عن يسارها. لكن أحدهم يقول: "صباح الخير يا إيلينا"، لكنها تستمر في السير كما لو أنها لم تسمع. لكنه يسرع خلفها، ويلمس كتفها. إنه "روبرتو ألمادا"، الرجل الذي أصرت "ريتا" على أن تدعوه صديقها. المشوه، كما دعته "إيلينا" أمام ابنتها لاستفزازها، أو الأحدب، كما كان يناديه أطفال الحي عندما كان صبيًا.

لا تستطيع "إيلينا" رؤية الحدبة، بالكاد وبجهد كبير تستطيع رفع عينيها حتى أعلى صدره، لكنها تعلم أن ظهر "روبرتو" يبدأ في الانحناء عند الكتف.

- مرحبًا يا سيدة "إيلينا".

حياها مرة أخرى، صدمتها طريقته الرسمية.

- أوه، لم أتعرف عليك يا "روبرتو". ترتدي حذاءً جديدًا، أليس كذلك؟

ينظر إلى حذائه ويقول: - نعم، إنه جديد.

يقفان في صمت، حذاء "إيلينا" البالي بجوار حذاء "روبرتو" الجديد اللامع. يحرك "روبرتو" قدميه بعدم ارتياح، ويقول: - ترسل أمي تحياتها وتقول إنه يمكنك المرور على صالون التجميل في أي وقت. إذا كنت قد أحببت قصة شعرك الأخيرة، وسوف تقص شعرك مرة أخرى مجانًا.

تشكره "إيلينا" وهي تعرف أن المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى صالون والدة "روبرتو"، وهي المرة الوحيدة، كانت بعد ظهر اليوم الذي ماتت فيه ابنتها، لكنها تُوقف انطلاق أفكارها قبل أن تذهب بعيدًا في هذا الاتجاه، لأنها لا

تستطيع تحمل هذه الرفاهية. إذا سمحت لعقلها بالعودة إلى هذا اليوم، سيفوتها القطار، لذلك تبعدها بعيدًا وتركز على الحاضر، على "روبرتو".

إنها ترغب في إزالة الزغب من وجهها مرة أخرى في صالون تجميل والدته، وكذلك قص أظافر قدميها. تقص أظافر يدها بنفسها، أو تبردها بالمبرد، لكنها لا تستطيع تقليم أظافر قدميها. لم تعد تتمكن من الوصول إليها منذ فترة، ومنذ وفاة "ريتا"، بدأ ظفر إصبع قدمها الكبير في خدش مقدمة حذائها، وتخشى أن ينكسر في مكان مؤلم، أو الأسوأ من ذلك، أن يمزق جلد حذائها البالي.

كانت "ريتا" تقص لها أظافرها كل أسبوعين. تحضر حوض غسيل به ماء دافئ، وقطعة من الصابون الأبيض بالداخل لتنعيم جلدها الجاف، ومنشفة نظيفة، دائمًا المنشفة نفسها، التي تغسلها بعد كل مرة وتضعها مع حوض الغسيل.

كان الاشمئزاز يظهر على وجهها وهي تقص أظافر أمها المتسخة، المتشققة، المصفرة، والمنتفخة من الماء مثل إسفنجة جافة. لكنها تقصها، تضع قدم "إيلينا" على ركبتها في أثناء ذلك وعندما تنتهي، تغسل يديها بصابون الأطباق، مرة، مرتين، ثلاث مرات، ثم تتحجج بأنها تريد تطهير المنشفة من أي فطر محتمل، لكي تغسل يديها بالمُبيض.

- ماذا يفعل الأشخاص الذين ليست لديهم بنات لقص أظافرهم يا "ريتا"؟

- يتركونها طويلة وقذرة يا ماما.

قال لها "روبرتو": - لقد أودعت الشيك الخاص بك كما وعدتك.

تشكره "إيلينا" مرة أخرى وتنسى أظافرها. بعد وفاة "ريتا"، عرض "روبرتو" عليها أن يتولى إيداع معاشها في حسابها.

- ليس عليك الانتظار في الطابور، خاصة مع ظروفك الصحية.

- ماذا بها صحتي يا "روبرتو"؟

سألته "إيلينا" وأضافت: - لا تزعج نفسك. ومنذ متى تهتم بمشكلاتي؟

- لطالما اهتممت بك يا "إيلينا"، وبمرضك، لا تكوني ظالمة.

كانت تود أن تقول له: "اذهب إلى الجحيم يا روبرتو"، لكنها قبلت مساعدته.

في الماضي، كانت "ريتا" تتولى مهمة الذهاب إلى البنك، لكنها رحلت الآن، ورغم أن "إيلينا" لا تحب الرجل، فإن وجود صديق داخل البنك له

مميزاته.

- لو تعرفين فقط كم أفتقد ابنتك.

سمعته يقول ذلك، تكره "إيلينا" كلماته، بقدر ما تتخيل أنها ستكره الكلمات المكتوبة في الخطابات التي لم تقرأها. تلك التي تحتفظ بها في الصندوق الذي أعطاها إياه جارها، الخطابات المربوطة بشريط خاص اختارته "ريتا" لها.

إنها تعلم أنه لا يمكن أن يكون قاتلها، ليس بسبب ما يقوله، وليس بسبب ما كان يفعله في هذا اليوم، ليس لأنه ليس قادرًا على القتل، ولكن لأن شخصًا مشوهًا مثله لن يستطيع أن يتفوق على "ريتا". قلة قليلة من الناس كانت ستتفوق على "ريتا"، وحتى لو أن الحقيقة لم تنكشف بعد، فمن الصعب عليها أن تتخيل من يمكن أن يكون القاتل. لهذا السبب، هي بحاجة إلى المساعدة، لأنه لم يُوجَّه اتهام لأحد، وليس هناك أي شخص مشتبه به، أو دوافع، أو نظريات، فقط الوفاة.

- أنا في عجلة من أمري، لا أريد أن يفوتني قطار الساعة العاشرة.

قالت "إيلينا" وهي تبدأ في رفع قدمها في الهواء حتى تتمكن من الاستمرار في السير عندما سألها: - هل ستركبين القطار وحدك؟

- أنا أعيش وحدي يا "روبرتو".

ردت دون أن تتوقف عن السير بعد أن تقدمت خطوة بالفعل. بعد لحظة صمت قصيرة، قال: - اذهبي إذًا، اذهبي.

إنها تتجه بالفعل نحو المحطة. تنظر إلى الرصيف وتعرف أن "روبرتو" لا يزال خلفها، لأن حذاءه لا يزال هناك، بقعتان من الجلد الأسود اللامع تقريبًا مثل لمعان بلاط الرصيف الذي يقف عليه. يشيران في الاتجاه الذي تسير فيه وحدها، دون أن يرافقها أحد.

ظفر إصبعها الكبير يطعن في مقدمة حذائها، وهي تسير في الطريق الذي سوف يأخذها بعد شارعين آخرين إلى شباك التذاكر، حيث ستحصل على التذكرة التي ستمسكها بإحكام في قبضتها المشدودة، حتى تضعها بأمان في جيب سترتها الصوفية. ثم ستنزل السلم، عبر النفق المشبع برائحة البول، وستصل إلى الرصيف لتنتظر، وهي متعبة وجسدها منحنٍ، قطار الساعة العاشرة.

عثروا على "ريتا" معلقة ببرج الكنيسة، بعد ظهر يوم ممطر. ميتة.

"إيلينا" تعرف أن المطر في ذلك اليوم من التفاصيل المهمة. رغم أن الجميع يقولون إنه حادث انتحار، سواء كانوا أصدقاء لها أو غير ذلك، الجميع يرددون هذا الكلام. لكن بقدر ما يحاولون إقناعها، أو حتى التزام الصمت، لا يمكن لأحد أن ينكر حقيقة أن "ريتا" لم تكن لتقترب من الكنيسة أبدًا وهي على وشك أن تمطر. لن ترغب في أن يجدوها ميتة هناك، وكانت والدتها ستقول ذلك لو سألها أحدهم قبل ما حدث. لكنها لا تستطيع أن تقول هذا الآن، لأنها كانت هناك، ذلك الجسد بلا حياة الذي لم يعد ابنتها، معلقًا في برج الجرس في يوم ممطر، ولا يستطيع أحد أن يفسر كيف وصلت إلى هناك.

كانت "ريتا" تخاف من البرق منذ أن كانت طفلة صغيرة، وتعرف أن الصليب على قمة الكنيسة يجذبه. "إنه مانع الصواعق في المدينة"، كما علمها والدها دون أن يعرف أن هذا التعليق العابر سيمنعها من الذهاب إلى أي مكان بالقرب من الكنيسة في الطقس العاصف.

إذا كان هطول الأمطار متوقعًا، فإنها تبتعد عن الكنيسة، وعن منزل "آل إنشوسبي" أيضًا، فهو المنزل الوحيد في الحي الذي كان به حمام سباحة في ذلك الوقت. الماء موصل جيد للكهرباء، وحمامات السباحة هي مغناطيس للصواعق. سمعت مهندسًا يحكي في تقرير إخباري عن حادث وقع في أحد النوادي الريفية، عندما تجاهل طفلان لافتة "ممنوع السباحة" في أثناء عاصفة، وقتلتهما صاعقة البرق.

رغم أن مزيدًا من حمامات السباحة قد بُنيت في الحي على مر السنين، ووُضع عديد من قضبان موانع الصواعق في المدينة، فإنها فضلت عدم معرفة ذلك، لأن كل معلومة جديدة لن تؤدي إلا إلى مزيد من تقييد تحركاتها، مثل عدم المشي على البلاط الأبيض والأسود خارج منزل القابلة، وعدم الذهاب إلى الكنيسة في الأيام الممطرة، وعدم الاقتراب من منزل "آل إنشوسبي"، كلها أشياء معقدة بما يكفي دون إضافة مزيد من القيود على تحركاتها في الحي.

ناهيك عن أن "ريتا" كانت تربت على ردفها الأيمن كلما مرت بامرأة شعرها أحمر، حيث اعتادت أن تتلو بالنبرة الجليلة نفسها التي تتلو بها ترنيمة وصلاة "السلام عليك يا مريم": "يا صاحبة الشعر الأحمر، أنتِ لست خطرًا،

يا صاحبة الشعر الأحمر، اللعنة اللعنة عليكِ،

يا صاحبة الشعر الأحمر، أنتِ صاحبة الخطيئة".

وكذلك كانت تلمس بيدها اليمنى ثديها الأيسر إذا ذكر أي شخص اسم "ليبرتي"، وهو رجل مسكين فقير تتردد شائعات حوله في الحي أنه "نحس"، ودائمًا تجده في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. كان موجودًا أمام منزل عائلة "فيراري" عندما سقطت شجرة الصنوبر وحطمت السقف. وكان يقف في طابور البنك عندما سُرق المعاش من الأرملة "جاندي". وكان واقفًا عند الناصية عندما اصطدمت شاحنة بسيارة الدكتور "بينيجاس" الجديدة، وغيرها من المواقف. كلها حوادث من هذا النوع.

قررت "ريتا" إنه من الأفضل ألا تعرف.

حتى عندما بدأت العمل في المدرسة الكاثوليكية، في سن السابعة عشرة، بعد أسابيع قليلة من وفاة والدها، وبعد أن ناشد الأب "خوان" المجلس إعطاء الوظيفة لابنة الرجل المُتوفى، رغم صغر سنها، كانت "ريتا" تختلق الأعذار في كل مرة يحاولون إرسالها إلى الكنيسة في طقس عاصف. فعند الضغط عليها للذهاب، تتحجج بآلام في المعدة، أو صداع، أو قد تذهب إلى حد التظاهر بالإغماء. مهما تطلب الأمر لتتجنب الاقتراب من هذا الصليب في يوم ممطر. هكذا كانت دائمًا.

و"إيلينا" تعرف، وهي مقتنعة تمامًا، أن هذا لا يمكن أن يتغير فجأة، حتى في يوم وفاتها. حتى لو لم يستمع إليها أحد، حتى لو لم يكن هناك من يهتم. لو أن ابنتها ذهبت إلى الكنيسة في يوم ممطر، فذلك لأن شخصًا ما جرها إلى هناك؛ حية أو ميتة.

- شخصٌ ما أو شيء ما.

قال المحقق "أفييانيذا"، الضابط المكلف بالقضية.

- لماذا تقول ذلك أيها المحقق؟ شيء ما مثل ماذا؟

قال "أفييانيذا": - أوه، لا أعرف.

وبخته قائلة:

- إذا كنت لا تعرف، فلا تقل شيئًا.

وجدها بعض الأولاد الذين كلفهم الأب "خوان" بقرع الأجراس معلنًا قداس الساعة السابعة. نزلوا السلم وهم يصرخون. ركضوا عبر الصحن إلى داخل الكنيسة. لم يصدقهم الأب "خوان" قائلًا: - اخرجوا من هنا أيها الشياطين الصغار.

لكن الأولاد أصروا على أنه يجب أن يأتي ليرى بنفسه، وجروه إلى أعلى برج الجرس. كان الجسد معلقًا بحبل، والحبل معلقًا في سلك الجرس

البرونزي، حبل قديم مهترئ للغاية لا يمكن لأحد أن يتخيل كيف تحّمل وزنها لفترة كافية ليقتلها.

ووفقًا للتقرير الذي قرأته "إيلينا" لاحقًا، فقد تُركت ملقاة عند برج الجرس جنبًا إلى جنب مع بعض ألواح السقالات، التي كانت موجودة هناك، منذ آخر مرة نظفوا فيها القبة.

غمغم الأب "خوان": - يا إلهي!

ورغم أنه تعرَّف عليها على الفور، فإنه لم يقل اسمها، وتظاهر بأنه لا يعرفها. رفع الكرسي المقلوب أسفل الجسد المتأرجح ووقف عليه ليتحقق من نبضها. لقد ماتت، كما قال، وهو ما يعرفه الأولاد بالفعل لأنهم لعبوا دور الميت عدة مرات، في لعبة "عسكر وحرامية"، يطلقون النار ليقتلوا أو يموتوا، لذلك عرفوا أن المرأة المعلقة في الجرس لا تلعب.

أعادهم الأب "خوان" إلى داخل الكنيسة، لكن هذه المرة جعلهم يرشمون الصليب ويثنون ركبهم قليلًا وهم يمرون أمام المحراب حاملين خبز القربان الذي تمت مباركته. طلب منهم أن ينتظروا هناك، واتصل بالشرطة. طلب من المحقق الانتظار حتى انتهاء قداس الساعة السابعة، لأن الناس كانوا قد دخلوا الكنيسة بالفعل، ولم يرغب في إلغاء الصلاة، خاصة أنه كان يوم الخميس بعد عيد العنصرة، عيد القربان المقدس، يوم عيد القربان. من الجسد والدم المقدس ليسوع المسيح.

- وعلى أي حال، لا يوجد شيء آخر يمكننا القيام به من أجل المرأة الآن، سوى الصلاة أيها المحقق.

وافق المحقق على أنه من الأفضل عدم مقاطعة الصلاة: - الميت هو ميت يا أبتَ، أو بالأحرى الميتة. وستكون ضربة موجعة للناس، فظيعة، من الأفضل أن يرحلوا في سلام، ويعرفوا ما حدث غدًا. ماذا عن العائلة، هل تعرف المرأة يا أبتَ؟

- ليست لديها عائلة أيها المحقق، لديها فقط أم مريضة، لا أعرف كيف ستتلقى الخبر!

- لا تقلق يا أبتَ، سنتولى نحن الأمر، "فلنعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

أغلق المحقق الخط وبدأ في الاستعداد، سيستغرق الأمر وقتًا لاستدعاء سيارة الشرطة التي خرجت في دورية، وجمع عدد قليل من الضباط، وإبلاغ الطبيب الشرعي.

- انتظروا هنا ولا تتحركوا، ولا تفكروا حتى في العودة إلى هناك.

قال الأب "خوان" للأولاد وهو يرتدي رداءه للقداس: - ولا كلمة لأي شخص، سيراقبكم الرب.

لكن ذلك لم يكن ضروريًا، لأن الاولاد كانوا صامتين، وغرقوا في الأريكة.

لم تُعلن الأجراس بدء القداس في ذلك المساء، لكن القداس بدأ. وإذا انتبه أي شخص لذلك وكانت لديه ذاكرة جيدة، فسوف يتذكر أنه في صمت الكنيسة كان كل ما يمكن سماعه هو صوت المطر المتساقط في الفناء. لكن أحدًا لم يهتم بالمطر في ذلك المساء، باستثناء "إيلينا".

"إيلينا" تعرف أن من يحملون ذاكرة ممتلئة بالتفاصيل هم فقط الشجعان، والجبن أو الشجاعة ليسا شيئًا يمكن للمرء أن يختاره.

قال الأب "خوان": - باسم الأب..

وقف الجميع ورشموا الصليب، وظهرهم إلى الجسد المتأرجح من حبل الجرس، الذي لا يبعد عنهم سوى أمتار قليلة وهم غافلون. كان هناك حوالي عشرين شخصًا في الكنيسة. وضعوا مظلاتهم المبللة ممددة على المقاعد الفارغة لتجف. من المذبح، تمكن الأب "خوان" من رؤية الشرفة حيث يوجد الأرغن، وحيث تغني الجوقة أيام الأحد. يمكنه رؤية الدرجات الأولى من السلم المؤدي إلى البرج بجوار الأرغن. لم يدرك أبدًا أنها مرئية من المذبح، قال: - **"وكان ينبغي أن يطعمهم أيضًا من أفخر الحنطة، وكان ينبغي أن أشبعك بعسل من الصخر، هلالويا".**

قبل تلاوة قانون الإيمان المقدس، دخل ضابط الشرطة الأول إلى الكنيسة. جعل صرير مفصلات الباب الخشبي عديدًا من الأشخاص يستديرون ليروا مَن القادم في تلك الساعة، متأخرًا عن الصلاة لدرجة أن حضور القداس لن يُحسب له. كان من الغريب رؤية ضابط شرطة في قداس الساعة السابعة، والأغرب رؤيته يرتدي زيه العسكري، لكن الضابط سرعان ما خلع قبعته المبتلة، ورشم الصليب وجلس في الصف الأخير، كما لو أنه جاء لسماع كلمة الرب: - أيها الأخوة، لقد علمتُ من الرب ما علمتكم إياه وهو: أن الرب "يسوع المسيح" في ليلة خيانته **"وفيما هم يأكلون أخذ "يسوع" الخبز وبارك وكسر ووزع على التلاميذ".**

بعد المناولة، وصل ضابطان آخران، خلعا قبعاتهما المبتلة ورشما الصليب، لكن ذلك لم يكن كافيًا لإبعاد الشكوك هذه المرة، رغم محاولتهما إخفاء أسلحتهما النارية تحت قبعاتهما.

تصاعدت همهمة بين أبناء الرعية. أمسكت عديد من النساء حقائبهن بسرعة من فوق المقاعد، وعلقنها في أذرعهن، إما خوفًا من أن الشرطة

تلاحق بعض اللصوص داخل الكنيسة وأن اللص في محاولته للهرب قد يحاول سرقة حقائبهن، أو أنهم خفن من أن بعض الأحداث الوشيكة غير المعروفة قد تتطلب منهن الهرب جريًا في أي لحظة، أو ببساطة لأنهن رأين باقي من في الكنيسة يفعلن ذلك.

- **"ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس، لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه"**.

في أثناء سير الأشخاص الذين أخذوا القربان، أو الذين لم يرغبوا، ولكنهم فعلوا ذلك على أي حال، عائدين في ممرات الكنيسة، ورقاقة من الخبز ملتصقة بسقوف أفواههم، سمعوا الصوت. في البداية كان صريرًا غامضًا، من الصعب أن يُنسب إلى مصدر محدد، ثم أصبح صوتًا مكتومًا تردد صداه في المكان. استدارت رؤوس الجميع ناظرين إلى أعلى، باستثناء الأب "خوان"، الذي رفع عينيه فقط.

ارتدى الضباط الثلاثة قبعاتهم ووقفوا.

- **"فيك يأملون يا رب، وتثبت أعين الجميع عليك، من يأكل جسدي ويشرب من دمي يحل في وأنا فيه"**.

من مكانه عند المذبح، وبينما يزيل الخبز الذي لم يعطه قربانًا، شاهد الأب "خوان" الضباط الثلاثة وهم يصعدون السلم المؤدي إلى الجرس ويختفون. راقبهم الناس أيضًا، ثم نظروا إلى الأب "خوان" كما لو كانوا يطلبون تفسيرًا:
- **"الخير والشر، الحياة والموت، الفقر والغنى، من عند الرب"**.

انقطع الحبل أخيرًا، من ثقل وزن الجسد، وسقطت "ريتا"، ميتة، على أرضية برج الجرس.

- كل من الأشرار والطيبين يأكلون من هذا الطعام السماوي: ولكن نهاياتهم لن تكون متطابقة!

قام الكاهن وسار حتى منتصف المذبح ليعطي مباركته الأخيرة: - **"أنت الذي تعيش وتحكم إلى أبد الآبدين"**.

ليمكنهم الذهاب بسلام. قال: - أطلب منكم جميعًا أن تغادروا وتعودوا إلى بيوتكم، فلا يوجد شيء يمكنكم القيام به هنا، لا لأنفسكم أو لأي شخص آخر.

دفع قطيعه نحو الباب، ومع إصرار بعضهم، اضطر أن يشرح لهم أن شخصًا ما شنق نفسه في برج الجرس، لكنه لم يقل مَن. بمجرد أن غادر الجميع، صعد الأب "خوان" إلى برج كنيسته. كان هناك رجل يرتدي بدلة، بالإضافة إلى ضباط الشرطة الثلاثة. صعد دون أن يراه الكاهن.

- من أنت؟

أجاب أحد الضباط: - هذا الطبيب الشرعي.

قام الطبيب الشرعي بتدوين الملاحظات، ورسم أحد الضباط خطوطًا بالطباشير حول جثة "ريتا" على الأرضية الخرسانية، والتقط الآخر صورًا، والثالث لفَّ الحبل الذي كان حول رقبتها بعناية، ووضعه في كيس بلاستيكي. وكتب على ملصق أبيض، بينما الطبيب الشرعي والكاهن يراقبانه: "الدليل رقم 1".

أحد الأدلة القليلة التي سيجدونها.

5

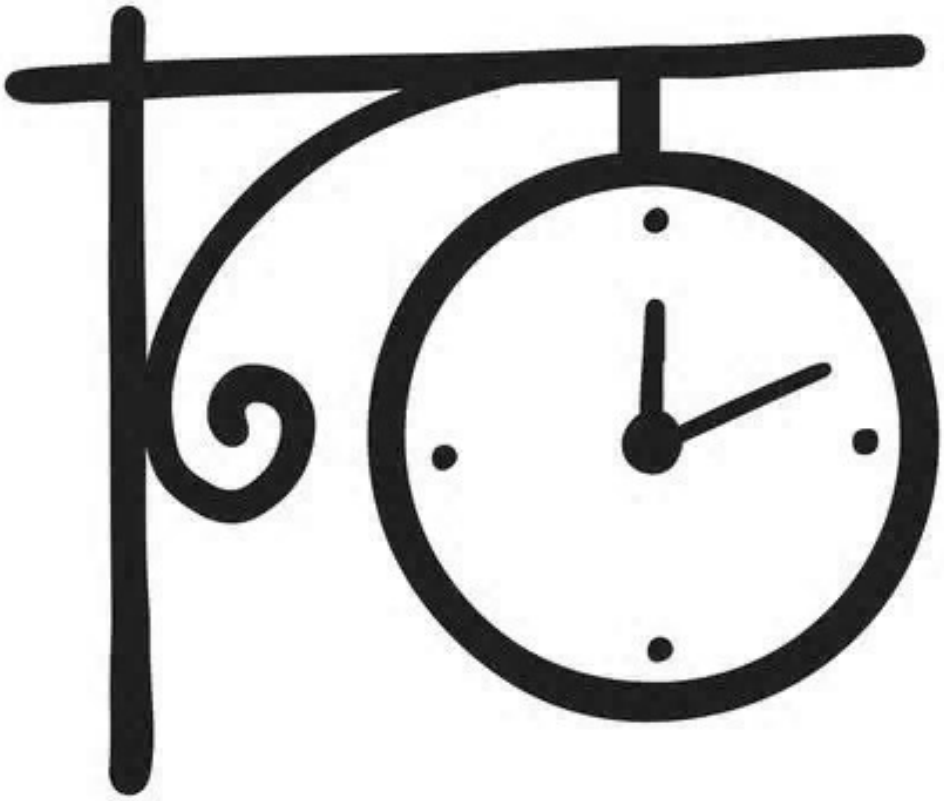

alamy - 2FJNPEB

تجلس على مقعد في المحطة، تنتظر. تتسرب لها البرودة من المقعد الأسمنتي من خلال تنورتها. شخص ما يسخن الماء داخل كشك السجق. حولها عدد من الناس، أكثر مما تفضل، ولكن ليس كثيرًا لدرجة أنها لن تجد مقعدًا بمجرد أن يدخل القطار إلى المحطة وتستقله.

"إيلينا" تعرف أن مواعيد القطارات السابقة؛ الساعة السابعة، والساعة الثامنة وحتى التاسعة صباحًا، مزدحمة جدًا، ينتظرها كثيرون، يتزاحمون للدخول من الأبواب نفسها، ويتدافعون بأعداد كبيرة جدًا داخل القطار. ولذلك فقطار الساعة العاشرة ليس مناسبًا للأشخاص الذين يتعين عليهم الوصول إلى العمل في وقت محدد، الذين يستيقظون مبكرًا كل صباح للوصول إلى المكتب أو المدرسة أو البنك.

قطار الساعة العاشرة ليس مناسبًا حتى للأشخاص الذين يعملون في المتاجر، لأنهم لن يصلوا إلى ميدان "كونستيتثيون" قبل الساعة الحادية عشرة تقريبًا، وبحلول تلك الساعة، تكون المدينة قد أُرهقت بالفعل من كثرة الذهاب والإياب. قليل من الناس يبدأون يومهم في وقت متأخر ويستقلون قطار الساعة العاشرة مع "إيلينا". هؤلاء الذين لا ينتمون إلى الفئة المجبرة على الاستيقاظ مبكرًا.

يقف على رصيف المحطة مجموعة من المراهقين على أعتاب مرحلة البلوغ، يضحكون وهم يعانقون دفاترهم، ويدفعون بعضهم بعضًا من حين لآخر تأكيدًا على نكتة ما قالها أحدهم. رجلان يرتديان بدلتين، يقف كل منهما في الطرف المقابل من الرصيف، يقرآن الصحيفة نفسها، وربما السطر نفسه من المقالة نفسها، دون أن يعرفا ذلك. زوجان يتشاجران حول سعر الدواء الذي اشتراه الزوج للتو.

- سيصل القطار التالي المتجه إلى ميدان "كونستيتثيون" في الساعة 10:01 على الرصيف رقم 2.

علا صوت مشوش من مكبر الصوت.

تجلس امرأة وابنتها على المقعد بجوار "إيلينا". قدما الفتاة لا تلمسان الأرض، تراقبهما "إيلينا" وهما تتأرجحان في الهواء. تعرف أن الفتاة تنظر إليها، تعلم أنها تميل إلى والدتها وتهمس بشيء في أذنها.

- سأخبرك لاحقًا.

تقول الأم، وتؤرجح الفتاة ساقيها بشكل أسرع من ذي قبل. تحدق "إيلينا" أمامها، ولا ترفع رأسها أبدًا أعلى مما تسمح به علتها.

تتراكم القمامة أسفل الرصيف المقابل لها.

"إيلينا" تعرف أن بعضها سوف يتحلل بمرور الوقت، وبعضها سيعمر لفترة أطول من عمرها؛ الزجاجات البلاستيكية، أكواب البوليسترين، وقطع الخرسانة.

يعبر شخص ما وهو يصفر، يتلاشى صوت الصافرة تدريجيًا، ويعلو من بعيد صوت يشبه التدافع.

اهتزت قدما "إيلينا"، وتساءلت عمَّا إذا كانت الأرض هي التي ترتجف، أم علتها هي التي تجعلها ترتجف، ورغم أنها لا تعرف الإجابة، فإنها تتمسك غريزيًا بحافة المقعد، مدركة أنه لن يحدث أي شيء سيئ، فهذا الرصيف، هذا المقعد، وهذه الجدران قد تعبت من كثرة الارتجاف المتكرر دون حدوث أي شيء، ودون أن يلاحظ أحد هذا الارتجاف سوى "إيلينا".

تقف المرأة والفتاة، وتتحركان إلى حافة الرصيف. تمسك الأم الفتاة من يدها، وتشدها قائلة: - أسرعي.

لكن الفتاة تتعثر وهي تمشي إلى الأمام، لأنها تنظر إلى الوراء، إلى "إيلينا" التي تحاول القيام من المقعد نفسه حيث كانت الفتاة تجلس وتؤرجح ساقيها.

- ما خطب هذه السيدة العجوز يا أمي؟

تقول الأم مرة أخرى: - سأخبرك لاحقًا.

تمر عربات القطار بسرعة أمام "إيلينا" مثل عاصفة من الرياح، وتسمع ضجيج ثقلها على القضبان، وصرير المعدن، والذي يحجب جميع الأصوات الأخرى. حتى تفقد العاصفة سرعتها شيئًا فشيئًا، وتعلو الضوضاء والأصوات الأخرى من جديد. تستقر الصور غير الواضحة، وتتشكل النوافذ، ويظهر الركاب داخل إطاراتها. ستنضم إليهم "إيلينا"، بمجرد أن تتمكن من الوقوف. تفتح الأبواب وتسمع صوت الهواء المضغوط، تتحرك أقدام "إيلينا" بسرعة للوصول قبل أن تغلق الأبواب مرة أخرى.

هناك حشد من الناس يحاولون الصعود، وتميل "إيلينا" على ظهر الشخص الذي أمامها للاستفادة من اندفاعه الذاتي إلى الأمام. تعلو الصافرة، يدفعها أحدهم من الخلف وهي ممتنة. بمجرد ركوبها القطار، تبحث عن مقعد، أي مقعد، الأقرب إليها، وتبدأ في التحرك نحوه. يتمايل القطار بلطف ويهزها وهي تمشي، تزداد سرعة القطار، ويتوقف التأرجح.

يمر شاب بجانبها وهو نافد الصبر. ترى قدمي رجل تقتربان منها من الاتجاه المعاكس، يقول الرجل: "معذرة" عندما يصل إليها، وتحاول "إيلينا" أن تتنحى

جانبًا، لكن المساحة التي تتركها لا تكاد تُلاحظ، فيكرر الرجل: - اسمحي لي يا سيدتي.

تحاول مرة أخرى الابتعاد عن طريقه لكنها لا تستطيع التحرك أكثر مما هي عليه بالفعل، لذلك يستدير الرجل ويرفع ذراعيه، ويخلع حقيبة الظهر، وينزلق بجانبه من أمامها.

وبعدها بصفين، يمكن أن ترى مرة أخرى المقعد الخاوي الذي تريد الجلوس عليه، ولكن قبل أن تصل إليه، تجلس عليه امرأة أخرى. كل ما تستطيع رؤيته هو تنورتها؛ تنورة بزهور حمراء ترفرف مع حركة المرأة، واختفت من مجال رؤيتها عندما جلست.

ستبدأ "إيلينا" البحث عن مقعد من جديد، ترفع عينيها وتجعد جبينها، وتحاول رفع رأسها بيأس لأعلى قليلًا، وتفحص العربة بحثًا عن مقعد آخر خاوٍ. عندما تجد مقعدًا آخر، تحفظ مكانه في ذهنها، ثم تنزل رأسها إلى أسفل إلى حيث تريد لها علتها أن تحتفظ به. تتقدم داخل عربة القطار وهي تعرف أن هناك نقطتين في نهاية العربة تسعى للوصول إليهما، ولكن سيتعين عليها أن تمشي الممر كله للوصول إليها. ترفع قدمها اليمنى وتحركها في الهواء حتى تتجاوز القدم اليسرى، ولكن قبل أن تنزلها، تلمسها يد، ويقول رجل لا تستطيع رؤية وجهه: - اجلسي هنا يا سيدتي.

تقول:

- شكرًا لك.

وتجلس. ينتقل الرجل الذي وقف لتوه إلى مقعد فارغ في مؤخرة العربة. تشبك "إيلينا" يديها في حجرها، يجلس بجانبها، في المقعد المجاور للنافذة، رجل يضرب بيده على ركبته على أنغام موسيقى لا يسمعها أحد غيره. تأمل "إيلينا" أن يظل راكبًا للمحطة الأخيرة، حتى لا يطلب منها الوقوف للسماح له بالخروج، ولكن بمجرد أن فكرت في الأمر، قال الرجل: - معذرةً، هل يمكنك السماح لي بالمرور؟

ودون انتظار إجابة "إيلينا"، يقف في تلك المساحة الصغيرة بين مقعده وظهر المقعد الذي أمامه منتظرًا أن تحرك ساقيها جانبًا، لتفسح له المجال ليمر قبل وصول القطار إلى المحطة التالية، قال الرجل مرة أخرى: - معذرة.

ردت "إيلينا": - تفضل يا بني، تفضل.

لكنها لا تتحرك.

6

استغرق الأمر بعض الوقت للإفراج عن الجثة، ولكن بمجرد اكتمال الأوراق، أقاموا صلاة وجنازة. جاء الجميع إلى الجنازة. الأب "خوان"، والمعلمون والموظفون الآخرون في المدرسة الكاثوليكية، والجيران، وبعض أصدقاء "ريتا" من المدرسة الثانوية الذين ظلت على اتصال بهم وتراهم من وقت لآخر. حضر "روبرتو ألمادا" ووالدته "ميمي"، والفتيات اللاتي يعملن لديها في صالون التجميل، حيث علقوا لافتة "مغلق للحداد" على الباب فوق شعار "لوريال باريس".

اختارت "إيلينا" النعش بنفسها، والتجهيزات، وإكليل الزهور الذي كُتب عليه بأحرف من ذهب: **"والدتك"**. سألها مدير دار الجنازات: - أليس هناك أي شخص آخر في العائلة يمكنه مساعدتك في الترتيبات؟

أجابت: - لا توجد عائلة.

بكت، بلا وعي تقريبًا، وهي تتحدث.

لم تكن "إيلينا" أبدًا من النساء الباكيات، ولكن منذ أن استولت على جسدها تلك العلة العاهرة اللعينة، لم تعد حتى تتحكم في دموعها. لا تريد أن تبكي لكنها لا تستطيع التوقف، تتدفق الدموع من قنواتها الدمعية وتتدحرج على خديها الصارمين كما لو كانت تروي حقلًا قاحلًا، دون أن يطلب منها أحد أن تنزل، دون أن يستدعيها أحد.

اختارت أرخص نعش خشبي. ليس فقط لأنه لم يكن لديها كثير من المال، ولكن حتى تتحلل "ريتا" بسرعة. لا تفهم "إيلينا" أبدًا سبب اختيار الناس لصناديق مصنوعة من الأخشاب الصلبة الغالية التي تستغرق وقتًا طويلًا في التحلل.

إذا كان كثير من الناس يؤمنون أننا جميعًا من تراب، وإلى التراب سنعود مرة أخرى، فلماذا يؤخرون العودة؟ تعتقد "إيلينا" أنهم يختارون الصناديق الفاخرة فقط للتباهي. لماذا يفعلون ذلك إذا كانوا يعرفون أن النعش وما بداخله ليس مقدرًا لهم سوى التعفن وليس البقاء؟ ستأكله الديدان، سواء الخشب أو ذلك الجسد الذي لم يعد يحمل الشخص الذي كان عليه، جسد لم يعد ملكًا لأحد، مثل كيس فارغ، غير مكتمل، قشرة دون بذور.

جلست "إيلينا" طوال الصلاة على كرسي بلاستيكي، بجانب النعش. قال لها أحدهم: - ما أبشع ما حدث يا "إيلينا"! خالص التعازي.

وسألت: - ما الذي حدث؟

صمت الشخص الذي تحدث، متخيلًا أن "إيلينا" فضلت ألا تعرف، أو أن الدواء أو الحزن قد أدى إلى شرود ذهنها. لكن "إيلينا" ليست شاردة الذهن.

"إيلينا" تعرف وتنتظر.

إنها ليست شاردة الذهن، حتى لو كان عقلها يتشتت في بعض الأحيان، برأسها المنحني وقدميها المرتبكتين على الطريق دون أن تراه أو ترى ما سيأتي به.

تلقت عدة أكاليل من الزهور. حاولت "إيلينا" قراءتها، ولكن مع عنقها المتصلب وعضلاتها المتعبة، لم تتمكن من تثبيت نظارتها في مكانها. جاء أحد الجيران ليقرأها لها: - زملاؤك في العمل من مدرسة "القلب المقدس الكاثوليكية". الدكتور والسيدة "بينيجاس". جيرانك.

- أي جيران؟

سألته. تردد الشخص الذي يقرأ: - كل الجيران بالشارع كما أعتقد، لقد طلبوا مني أن يساهموا.

كانت هناك في أحد الجوانب سعفة نخيل صغيرة بها أزهار بيضاء، وشريط مكتوب عليه: "صديقك إلى الأبد، روبرتو ألمادا".

سعفة نخيل صغيرة مصممة لتوضع تحت اليدين المتقاطعتين فوق البطن، لتبدو وكأن يديَّ الميت تمسكان بها، وأنه سيأخذها معه في رحلته. كانت "إيلينا" ستضعها في يديها، لولا أن "روبرتو ألمادا" هو من أرسلها. وبدلًا من ذلك، تركتها في المكان نفسه حيث وضعها بائع الزهور في الزاوية خلف أكاليل الزهور الأخرى.

تشك "إيلينا" في أنها فكرة والدته، مكتوب عليها كلمة "صديقك" وليس "حبيبك"، لأن مصففة الشعر - وهي مثلي تمامًا في هذا - تكره كلمة "حبيبك" لوصف ابنها البالغ من العمر أربعين عامًا. مجرد سعفة نخيل صغيرة، لا تكلف كثيرًا. من الصعب عدم الشك فيها، عندما يهمس الناس من خلفها، أنها تأخذ جزءًا من البقشيش الذي يتركه الزبائن للفتيات العاملات.

مع حلول المساء، رحل الجميع تدريجيًا إلى منازلهم. صلى الأب "خوان" قبل مغادرته: "أما نفوس الصديقين فهي بيد الله فلا يمسها العذاب. وفي ظن الجهال أنهم ماتوا وقد حسب خروجهم شقاء. وذهابهم عنا عطبًا أما هم ففي السلام".

أرادت "إيلينا" البقاء، لتحدق بحماقة في الموت. لم تكن تريد العودة إلى المنزل للراحة كما اقترح أحد الجيران: - تعالي غدًا يا "إيلينا"، في الصباح، في

ضوء النهار.

كأن الصباح والنهار من الأشياء الجيدة. ماذا يعرف هذا الرجل عما يعنيه لها الصباح؟ تجد نفسها مجبرة على فتح عينيها مرة أخرى. فضوء النهار يشير إلى بدء المعركة التي تنتظرها، منذ اللحظة التي تحاول فيها النهوض من السرير. تحاول أن ترفع ظهرها، الذي لا يستجيب، عن الملاءة المجعدة، وتضع قدميها على بلاط الأرضية البارد. تستجمع قوتها من أجل أن تنهض. تجر قدميها نحو الحمام حيث تحاول الجلوس للتبول، تُنزل سروالها، تحاول الوقوف، تقف، تسحب السروال، وهو متشابك ومبلل، وتحاول فرده، وبعد ذلك، بعد ذلك، هناك بعد ذلك دائمًا. هكذا دائمًا، تحدٍ جديد، كما لو أن الكفاح من أجل الذهاب إلى الحمام بمفردها في الصباح لم يكن كافيًا.

كل صباح تستيقظ "إيلينا" من نومها لتتذكر مرة أخرى، ليوم آخر، ما ينتظرها. إذا تركوا الأمر لها، فإنها ستظل جالسة على ذلك الكرسي، في قاعة الجنازة بجانب جسد ابنتها، تحدق بحماقة في الموت، وتتظاهر أن هذا اليوم، الذي تعيشه، لن ينتهي أبدًا. وأن يومًا آخر لن يبدأ. إذا تركوا الأمر لها، لكن موظفة دار الجنازات تصر على المغادرة قائلة: - لأسباب أمنية، نغلق الدار ليلًا.

تسأل: - من الذي يقيم الصلاة بالليل إذًا؟

- تغير الزمن يا سيدتي، علينا أن نراعي مصلحة الأحياء.

في وقت مبكر جدًا من صباح اليوم التالي، بعد تناول الحبة الأولى، عادت إلى هناك مرة أخرى. ظلت وحدها لأول ساعتين، لكن بعد الساعة التاسعة، ظهر الأشخاص الذين لم يأتوا في اليوم السابق، جنبًا إلى جنب مع أولئك الذين جاؤوا في اليوم السابق، ولكنهم رغبوا في مرافقة ابنتها إلى حفرة في الأرض، حيث سيتركونها لتستريح إلى الأبد.

في الساعة العاشرة، عاد الأب "خوان" لإلقاء التأبين: "أما نفوس الصديقين فهي بيد الله فلا يمسها العذاب. وفي ظن الجهال أنهم ماتوا وقد حسب خروجهم شقاء. وذهابهم عنا عطبًا أما هم ففي السلام. هلالويا".

ردد الجميع: - "هلالويا".

يتحدث عن الحمقى مرة أخرى، وتساءلت من الحمقى الذين يتحدث عنهم الأب.. هل كان يقصدها لأنها تعتقد أن ابنتها قد قُتلت، أو ربما يقصد الأشخاص الذين رددوا وراءه "هلالويا"؟ يكررون أي شيء آخر يُقال لهم أن يكرروه. أو ربما الأب "خوان" هو الأحمق، ووصف ابنتها بـ"نفوس الصديقين" رغم أنه أكد لكل من سأل أن "ريتا" قد انتحرت، وإنها خطيئة لا تُغتفر للأرواح المسيحية

التي يتعامل معها. هل الدكتور "بينيجاس" أحمق، أم المحقق "أفييانيذا"، أم الجيران؟ هل كانت "ريتا" حمقاء، أم هي الحمقاء؟ وما نفوس الصديقين؟

- عسى الرب أن يمجد أختنا "ريتا"، ليأخذها معه لتشارك في مملكته. لتكون لها الحياة الأبدية.

تود "إيلينا" أن تؤمن بالمجد والملكوت وبتلك الحياة الأبدية. ولكن مثلما لم تؤمن بأننا جميعًا من تراب وإلى التراب نعود، فلا هي ولا "ريتا" يمكن أن تخدعهما صلاة، حتى لو كان كاهنًا يصليها. يمكن لـ"إيلينا" أن ترتل أسماء الشوارع في صلاة، من الأخير إلى الأول ومن الأول إلى الأخير، و"ليفودوبا"، "الدوبامين"، "دوبا"، والملك المخلوع والعلة والإمبراطور العاري، من الخلف إلى الأمام عدة مرات حسب الضرورة. لكنها لا تستطيع أن تصلي صلاة الأب "خوان" لأنها ستكون كاذبة. ورغم أنها ليست صلاتها، وترفضها، وترفض تكرارها، فإنها تعلم أنها تحتفظ بها بداخلها، مثل علتها بداخلها. تلك العلة العاهرة اللعينة.

- من أجل روح "ريتا"، حتى تحتفظ الملائكة في السماء برفقتها. اسمعنا يا رب، اغفر لجميع الأموات، حتى تتم دعوتهم للمشاركة في الملكوت المقدس. اسمعنا يا رب. من أجل أولئك الذين بقوا هنا على هذه الأرض، خاصة أمها "إيلينا"، حتى نفترق عن "ريتا" ونساعدها في رحيلها باستسلام وفرح، بالفرح نفسه الذي عبَّرت عنه في أثناء حياتها هنا على هذه الأرض.

ماذا يعني بالفرح؟ فكرت "إيلينا"؛ هل عبَّرت ابنتها عن فرح وهي مع أشخاص آخرين لم ترهم من قبل؟ هل كانت فرحة وهي مع هذا الكاهن، أو مع "روبرتو ألمادا"، الذي يومئ برأسه مع كل كلمة يقولها الكاهن؟

- دعونا نصلي. اسمعنا يا رب.

"إيلينا" لا تعرف ما إذا كان الرب يستمع إليهم، لكنها تسمعهم، ولا تشعر بأي فرح، ولا ترى أي فرح بادٍ على ابنتها الراقدة هناك، باردة، متصلبة، مثل كيس فارغ. لكنها تشعر بالاستسلام، نعم، لأنها تعلم أنه لا عودة من الموت، سواء كانت موضوعة في نعش من خشب البلوط، أو نعش مصنوع من خشب البلسا. لا يهم من يسمع صلاتها، أو إذا كان الذي يسمع صلاتها موجودًا بالفعل. سواء بكى الحي بأكمله على ابنتها الميتة، أو لم يبكِ أحد على الإطلاق، فليس هناك عودة محتملة من الموت.

بعد الحبة الثانية بقليل، حان وقت الدفن. ساعدها أحد الجيران على الوقوف على قدميها. أغلق موظف دار الجنازات الغطاء الخشبي فوق وجه "ريتا" الخالي من أي تعبير، وقال بصوت عالٍ: - السادة الذين يرغبون في المساعدة في حمل النعش، من فضلكم تقدموا إلى الأمام.

سمعت "إيلينا" كلمة "السادة" لكنها ذهبت على أي حال. لم تكلف نفسها عناء طلب الإذن، رفعت قدمها اليسرى، وحركتها في الهواء، وعندما تجاوزت قدمها اليمنى، أنزلتها، وكررت الحركات ببطء، بقدر ما تستطيع، بتصميم، متوجهة نحو المقبض البرونزي الأمامي الأيسر للنعش الذي يأخذون فيه ابنتها إلى المدفن. أمام المقابض التي أمسكها الأب "خوان" و"روبرتو ألمادا"، أمام المقابض التي أمسكها الجار الذي أعطاها الصندوق الذي جاء فيه تليفزيونه الـ29 بوصة، أمام الدكتور "بينيجاس"، وصاحب موقف سيارات الأجرة على ناصية شارعها.

كان عليهم أن ينتظروا "إيلينا" لتأخذ مكانها، لتستدير لتواجه المخرج، لتفرد جسدها بقدر ما تسمح به علتها، لتحاذي النعش الذي ترقد فيه "ريتا"، لتأخذ نفسًا، ثم بيدها اليمنى، تلك التي تستجيب بشكل أفضل، تمسك بالمقبض الأول من اليسار، الذي لم يمسك به أي من "السادة"، وتحمل نعش ابنتها إلى مثواها الأخير.

7

جلست "إيلينا" في القطار الذي سيقلها إلى المكان الذي تأمل أن تصل إليه. ظلت تراقب الأشجار وهي تتسابق أمام النافذة. يمكنها الآن أن تستريح ولو لفترة وجيزة، والمحطات تتتابع بجوارها. كل ما عليها فعله هو مشاهدة الأشجار وهي تطارد بعضها بعضًا في الاتجاه المعاكس. تفكر "إيلينا" في أن صورة الأشجار والمنازل تتداخل معًا فتبدو كما لو أن شجرة تأكل الأخرى، ومنزلًا يأكل الآخر، وهكذا.

تراقب "إيلينا" كل شيء بزاوية عينها، فهي الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها فعل ذلك. تتقبل العقوبة التي تفرضها عليها علتها. على الأقل لا تزال عيناها مخلصتين لها، فرغم أنهما فقدتا قدرتهما على التعبير، فإنهما ما زالتا تنظران إلى حيث تخبرهما "إيلينا" أن تفعلا. لكن رقبتها تصلبت.. تيبست مثل صخرة، وطالبتها بخضوع تام. إنها تذكِّرها مَن المتحكم. يستجيب جسد "إيلينا" للعلة، التي تجبرها على خفض نظرها، كما لو أنها نادمة على خطيئة ما ويجب أن تخجل من نفسها.

قبل بضعة أشهر، بدأ لعابها يسيل، لأن وضعها المنحني جعل من الصعب عليها إبقاء لعابها داخل فمها.

- ماما، من فضلك حاولي ألا يسيل لعابك على الطاولة ونحن نأكل.

دائمًا ما يترك اللعاب اللزج بقعًا على سترتها، فتبدو متسخة. كانت "ريتا" تعطيها منديلًا نظيفًا ومكويًا كل صباح، حتى لا يتساقط لعابها في جميع أنحاء المنزل. منديل مثل الذي تحمله في حقيبتها اليوم، الذي اضطرت إلى أن تغسله وتكويه بنفسها. باءت محاولات ابنتها بالفشل. كانت "ريتا" تجد المنديل رطبًا ومكورًا في أماكن عشوائية بالمنزل؛ على جهاز التليفزيون، على طاولة المطبخ، بجانب التليفون، معلقًا كجائزة أو كهدية تذكارية أينما وضعته "إيلينا"، دون قصد الإساءة إلى ابنتها.

- ألا تشعرين بالاشمئزاز من أي شيء يا ماما؟

أجابت "إيلينا": - الصراصير.

حاولت "ريتا" أيضًا التصدي لمشكلة اللعاب السائل باستخدام المرايل. وجدت علبة بها عشر بسعر جيد، للاستخدام مرة واحدة، إلا أن "إيلينا" رفضت رمي المرايل المستخدمة: - هل رأيت سعر هذه الأشياء في الصيدلية؟

لذلك فهي تظل مرتدية المريلة الورقية الزرقاء، وهي رطبة ومجعدة وملطخة ببقع طعام مجهولة المصدر، حول رقبتها طوال اليوم. ربما لن تشعر أبدًا بالنظافة مرة أخرى، فلا علاج لمرضها. ربما هناك رعاية ما للمرضى

الميؤوس من شفائهم وعائلاتهم. مجرد حيل صغيرة لمساعدتها على القيام بأشياء لا تستطيع القيام بها بعد الآن، تمامًا كالمرايل، ولكن دون علاج.

ستظل مريضة طوال الفترة المتبقية من حياتها، و"ريتا" ستظل ميتة. وكذلك أيامها الأخيرة، ستظل كما هي، تمامًا مثل يومها هذا الممتد أمامها، الذي لن ينتهي حتى تستقل قطار المساء عائدة إلى المنزل بمفردها.

تتوالى محطات القطار: "بورزاكو"، "أدروغي"، "تيمبرلي"، "لوماس"، "بانفيلد"، "لانوس".

"لانوس"، "بانفيلد"، "لوماس"، "تيمبرلي"، "أدروغي"، "بورزاكو".

ينطلق القطار. تنظر بزاوية عينها اليسرى. لا تزال الأشجار تأكل بعضها بعضًا.

تنظر بزاوية عينها اليمنى في اتجاه الممر، كما لو أنها تحتاج إلى بذل الجهد نفسه في الاتجاه الآخر. تطالبها علتها بإبقاء رأسها منخفضًا. تأمرها العلة بهذا الفعل، الذي يجعلها تبدو في حالة من الندم أو الأسف، وتفرضه عليها عضلة رقبتها. "إيلينا" لا تجادل في الأمر، ولكنها تسخر منه، لا تضحك، ولا حتى تشعر بالفخر أو الشجاعة، إنها تسخر منه من أجل البقاء بقيد الحياة. يسيل لعابها مرة أخرى. تفتش في حقيبتها بحثًا عن منديل مبلل، تكوره في يدها وتمسح به فمها.

تنظر إلى أعلى وتقوّس حاجبيها، يبدو تعبيرها مندهشًا، ولكنه ليس اندهاشًا.. إنها تحاول فقط التطلع إلى الأمام وتوجِّه حدقتيها في هذا الاتجاه. تؤلمها عضلات خديها وحاجبيها عندما تفعل هذا. تتساءل "إيلينا" عما إذا كان الخدان عبارة عن عضلات، مثل تلك التي تجذب رأسها إلى أسفل؟ لم تفكر أبدًا في الخدين. لم يكن عليها أبدًا أن تفكر في رقبتها أو في حاجبيها، أو تتساءل عما إذا كانت عضلات، أم لحمًا، أم مجرد جلد، لا تعرف ماهيتها بالضبط، لكنها تؤلمها. تؤلمها هذه الأجزاء من جسدها التي لم تكن تستخدمها من قبل للقيام بهذه الحركات التي تجبرها عليها علتها. لكن عليها المحاولة الآن، فقط لتستهزئ بعلتها، لأنه لا يوجد شيء في العالم سيجعلها تستسلم للتحديق في الأرض حتى يوم موتها: "إذا لزم الأمر، سأستلقي على الأرض وأنظر إلى السماء، أو حتى إلى السقف، فقط لتحديها، وعصيانها، وأنتظر الموت".

إنها علتها. ستتحداها مرة أخرى، وربما مرة أخيرة. لكن قبل ذلك، ومن الآن وحتى يوم موتها محدقة في السماء، عليها أن تجد طرقًا أخرى للتمرد عليها، إذا لم تكن تريد أن تصبح أَمَة لتلك العاهرة المتحكمة. ستضع حبالًا لمساعدتها على الوقوف في الأماكن المختلفة، ومرايل أكثر ليسيل عليها

لعابها، ودعامات عنق من الفوم لرفع ذقنها، أو دعامات عنق بلاستيكية صلبة، عندما تفشل المصنوعة من الفوم، ومساند لمقعد الحمام، ومزيدًا من الحبال. وأدوية تساعدها على البلع، وأخرى تمنعها من التبول على نفسها أكثر مما تتبول حاليًا بالفعل، أدوية تجعل الأدوية الأخرى أكثر فاعلية، أو تمنع الأدوية الأخرى من تدمير معدتها، ومزيدًا من الحبال.

لهذا السبب، رغم أن عضلاتها تؤلمها، فإنها تبذل جهدًا مع خديها وحاجبيها حتى تتمكن عيناها، اللتان لا تزالان مخلصتين لها، من النظر إلى شيء آخر غير الأرض. في القطار، لا تستطيع "إيلينا" النظر إلى الأمام مباشرة، ويُعتبر حتى مجرد رؤية ظهر المقعد الذي أمامها مجهودًا كبيرًا.

بعد أن نزل الرجل الذي كان ينقر على ركبته على إيقاع موسيقاه، تمكنت "إيلينا" من التحرك إلى مقعد النافذة، أمسكت بإطار النافذة وجرت نفسها. تجعدت تنورتها وتكومت تحتها لكنها لم تهتم. جلست بجوار النافذة، ورأسها لأسفل، تحرك حدقتيها من جانب إلى آخر، بما يكفي لرؤية الأشجار والمنازل تتسابق في الاتجاه المعاكس. تتداخل معًا، تمتزج ألوانها في بقعة غير محددة تتحرك بسرعة حتى يتباطأ القطار تدريجيًا، عندها تظهر الصور بوضوح أكثر، وتستعيد شكلها الأصلي حين يتوقف القطار أخيرًا في المحطة، ثم يكرر مرة أخرى طقوسه للوصول والمغادرة.

لم تركب القطار منذ سنوات. كانت آخر مرة هي تلك التي أصرت "ريتا" فيها على حضور اجتماع مجموعة دعم لمرضى "باركنسون". يجتمعون مرة كل شهر في مستشفى "دي كلينيكاس". وقد ترك هذا الاجتماع "ريتا" في حال أسوأ بكثير من أي وقت مضى، ولم تطلب تكرار التجربة.

كان من الصعب الوصول للاجتماع، فقد ضلتا طريقهما في ممرات المستشفى، التي أوصلتهما لأماكن مجهولة، وسلالم مظلمة، ومصاعد متوقفة عن العمل، والناس ينتظرونها على أي حال، وهم مرهقون. هناك لافتات تعلن مطالب النقابة، معلقة بعيدًا عن مجال رؤية "إيلينا"، لذا كان على "ريتا" أن تخبرها بما فيها. والرائحة. ما تلك الرائحة؟ تتساءل "إيلينا" لكنها لا تتذكرها، ولا يمكنها حتى تحديدها. لم تكن رائحة الموت، رائحة الموت مختلفة، فهي تعرفها الآن. لم تكن تعرفها حتى عند موت زوجها، لأن موت ابنتها كان الموت الحقيقي. ربما تكون رائحة المرض. رائحة الألم. إنها رائحة مستقبلها. في ذلك اليوم، شاهدتا لأول مرة ما ينتظرهما في المستقبل. كانتا قد ظنتا أنهما تعرفان كل شيء، لكنهما شاهدتاه بأعينهما في ذلك اليوم. حتى يوم هذا الاجتماع، كانت "إيلينا" تعاني من ارتباك بسيط في خطوتها، مثلما يتردد الشخص في المشي. اعتقدت "إيلينا" أنه شيء يحدث لكثير من الناس، لكنها ترى الحقيقة الآن.

"إيلينا" تعرف ما ينتظرها، مستقبلها، لأنها رأت ذلك بعينيها. قبل هذا اليوم، وبقليل من الدواء، كان بإمكانها المضي قدمًا في حياتها، وكل شيء شبه طبيعي، مثل ارتداء سترتها دون مساعدة. كانت العلامة الأولى، في اليوم الذي لم تتمكن فيه "إيلينا" من ارتداء الكم الأيسر لسترتها. فكرت: "من كان يظن أن مجرد وضع ذراعك في كم ملابسك يمكن أن يكون مشكلة كبيرة؟".

إنها تعرف الآن مدى أهمية ذلك. وضعت ذراعها في الكم الأيمن دون صعوبة. لكنها واجهت صعوبة مع الكم الأيسر، أمر مخها ذراعها بأن يرتفع، ويوجه المرفق للأمام، لتمد الساعد للخلف مع رفع كف اليد لأعلى نحو السقف ليدخل الذراع في فتحة الكم ويستمر في الانزلاق في الفتحة الموجودة في القماش ليعود إلى الوضع المعتاد، لكن جسدها لم يطع أوامر مخها. كانت الذراع معلقة في الهواء، والمرفق متجهًا للأمام، واليد تبحث عبثًا عن الفتحة، والكم معلقًا فارغًا. أمرت علتها – العاهرة - ذراعها اليسرى بألا تدخل في الكم مرة أخرى.

بعدها بدأت "إيلينا" في ارتداء الشال أو البونشو الذي كان يسخر منه جيرانها، ولم يفهموا حتى ظهرت عليها أعراض المرض أخيرًا. كان هذا فعلًا آخر من أفعال التحدي لعلتها. كان الشال هو التحدي الأول، لو أنها تتذكر الأمر بشكل صحيح. حين قررت "إيلينا": "إذا لم أستطع إدخال ذراعي في الكم مرة أخرى لبقية حياتي، فلن يكون هناك مزيد من الأكمام".

وفضلت أن تدعهم يتحدثون عنها من وراء ظهرها، عن أن يعرفوا حقيقة مرضها. لأنه لفترة من الوقت كان المرض سرًا بين "ريتا" و"إيلينا" والدكتور "بينيجاس"، مثل علاقة حب سرية. قالت "ريتا": - طالما حالفكِ الحظ ولم يظهر أي أثر لاهتزاز أو رجفة في حركتك، فلماذا تخبرين الناس بالأمر؟ لن يقدموا لكِ سوى الشفقة. وإذا لم يركِ أحدٌ وأنت ترتجفين، فلن يعرف أحد أنك مصابة بمرض "باركنسون". كلما طال الوقت حتى يعرفوا اسم مرضك كان ذلك أفضل يا ماما.

لم تهتز "إيلينا"، ولا تزال لا تهتز حتى الآن، ولكن في ذلك الاجتماع في مستشفى "دي كلينيكاس" أدركت هي و"ريتا"، أن عدم الارتجاف أبعد ما يكون عن أن تعتبراه ميزة، فعدم الارتجاف هو الأسوأ.

"أوه يا مسكينة، أنت لا ترتجفين. يقولون إن المرضى الذين لا يرتجفون يعانون من أسوأ الأعراض، لأن هذا معناه أن مرض "باركنسون" يتطور بسرعة أكبر".

أخبرتها بهذا السيدة الجالسة بجانبها، التي كانت ترتجف مثل ورقة شجر في مهب الريح. سمعتها "إيلينا" و"ريتا"، لكنهما لم تقولا شيئًا، ولا حتى

لبعضهما. لم تشعرا حتى بالحاجة إلى سؤال الدكتور "بينيجاس" عن ذلك في الموعد التالي، لأنهما راقبتا المرضى الآخرين في ذلك اليوم. كان ذلك كافيًا. نظرتا إلى كل من حولهما؛ أولئك الذين يرتجفون والذين لا يفعلون. لم تستطع "إيلينا" رؤية نفسها في أي منهم. لم يكن لديها بعد تلك النظرة الخاوية مثل ذلك الرجل الذي أخبر المجموعة كيف قام بتثبيت حبال ودرابزين في غرفة نومه حتى يتمكن من النهوض ليلًا.

لم تلوح بأصابعها في الهواء كما لو كانت تعد المال أو تلعب البوكر. لم يسل لعابها مثل المرأة التي تبكي في الصف الأول. لم ترتجف مثل المرأة التي قالت "أوه يا مسكينة". لم ترَ نفسها في أي منهم في ذلك اليوم، لكنها عرفت مصيرها لأنها رأت ما ستصبح عليه يومًا ما.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي سافرت فيها بالقطار إلى بوينس آيرس. في ذلك الوقت لم تكن بحاجة إلى مشاهدة كل شيء من زاوية عينيها لأنها لم تكن تعلم بعد أن العضلة القصية الترقوية الخشائية يمكن أن تنقلب عليها، ولم تكن قد سمعت باسمها مطلقًا.

إذا كان الملك قد أُطيح به بالفعل، فالأخبار ظلت داخل جدران القصر. كانت العلة تعمل في الظل حتى هذه اللحظة. علاقة الحب السرية. وصل المرسال بـ"ليفودوبا" في الوقت المناسب من المعركة.

ولكن الأهم من ذلك كله هو أن "إيلينا" لم تكن وحدها في تلك الرحلة. كانت "ريتا" تجلس بجانبها في القطار، حتى لو أن كل ما فعلته هو مساعدتها على ارتداء كم سترتها. تعاركت معها، وتبادلاتا ضربات سريعة بالسوط اللاذع، ثم انطلقت لتمشي أمامها بعدة خطوات. تعاركتا بعد ظهر ذلك اليوم أيضًا. فقد استغرق الأمر من "إيلينا" وقتًا طويلًا لتركب القطار ونفد صبر "ريتا" التي كانت قلقة من أنهما لن تلحقا به، لذا دفعتها عبر الباب. وضعت كفيها المفتوحتين على مؤخرة والدتها ودفعتها بقوة للداخل، كادت أن تطرحها أرضًا. قالت لها: - حاولي بجهد أكبر يا ماما.

أجابت "إيلينا": - لا تحدثيني هكذا.

لأنها حاولت جاهدة ولا تزال تفعل ذلك، وإلا لما كانت تجلس في هذا القطار تشاهد بزاوية عينها الأشجار تطارد بعضها بعضًا. لكن في بعض الأحيان - كما تعرف "إيلينا" الآن - فإن المحاولة الجادة وحدها لا تكفي. تعتقد أن "ريتا" قد عرفت هذا الآن أيضًا، في المكان الذي انتهى بها الحال إليه، المكان الذي سنذهب إليه جميعًا، حيث يمكن للمرء أن يعرف أي شيء.

ولكنها بعد ظهر ذلك اليوم كانت غاضبة من والدتها: - إذا كنتِ تعتقدين أنني أتحدث إليكِ بشكل سيئ، فأنت لا تتخيلين الحالة التي أنا فيها.

لو أن "إيلينا"، بعضلات رقبتها المتيبسة، ولعابها السائل، والكم الذي ترفض ذراعها دخوله، لا تزال تريد أن تستمر في الحياة، رغم كل شيء، فإنها لا تصدق أن ابنتها أرادت الموت. لا تصدق ذلك.

لقد ماتت، هذا صحيح، لكنها لم تكن لتتمكن من الصعود إلى برج الكنيسة في ذلك المساء الممطر. ولم يكن بوسعها ربط الحبل حول الجرس ثم وضعه حول رقبتها. ولم يكن بإمكانها صنع تلك العقدة، ولا ركل الكرسي الذي كانت تقف عليه لتترك نفسها تتدلى بثقلها حتى ماتت. لا تستطيع، لا يمكنها ذلك. كانت السماء تمطر في ذلك المساء.

"إيلينا" تعرف أن الأمر لم يكن "حادثة" كما قال المحقق "أفييانيذا"، محاولًا التخفيف من حدة الموقف. لا تثق بالشرطة قط، ليس الآن ولا في أي وقت مضى. لكنها وحدها، ولا يهمها إذا كانوا يصدقونها، فهي تحتاج فقط لشخص ما، أي شخص، ليسمع ما تقوله. لم يستمع لها الطبيب الشرعي أو محقق الشرطة. استمع لها "أفييانيذا" لكن بعد ذلك أمروه بإغلاق ملف القضية، ولم يعد يراها خلال ساعات العمل. قابلها عدة مرات في المقهى على ناصية مركز الشرطة عندما انتهى من ساعات عمله.

- لا يمكن أن أتحدث معك إلا بصفة غير رسمية يا "إيلينا".

أخبرها بذلك. التقيا أيضًا عدة مرات تحت شجرة "الأومبو" في الميدان. لكن فترة مرت منذ ذلك الحين، وكرر القصة نفسها، التي لم تصدقها "إيلينا"؛ أن ابنتها انتحرت.

لا يزال الأب "خوان" يوافق على مقابلتها في الحجرة الخلفية في الكنيسة، لكنها سئمت من تلك الزيارات. لا يفعلان شيئًا مهمًا، لأنه يستمع إليها فقط كما لو كانت تعترف له، وهي لا تحتاج إلى الاعتراف، ما تحتاجه هو إجابات لأسئلتها.

وافق مدير المدرسة الكاثوليكية على رؤيتها أيضًا، لكنه نظر إليها فقط، واستمع إليها وهز رأسه كأنه موافق، لكن لم يكن لديه أي شيء آخر ليقوله: - لقد زرعنا شجرة تخليدًا لذكرى "ريتا" يا "إيلينا".

ولماذا ستهتم بشجرة أخرى؟

لم يستمع لها زملاء "ريتا" أو الجيران، حتى الجارة التي تبكي كلما تحدثت معها "إيلينا"، تقول: - أنا أفهمك، أفهم ما تقولينه تمامًا، لم أكن لأتقبل ما يقولونه أيضًا.

ولكن من طلب منها أن تفهم؟ فكل ما تريده هو أن يسمعوا صوتها، وأن يحاولوا أن يتذكروا أي شيء ويبلغوا عما يعرفونه، لكن لا أحد يعرف أي

شيء، ولا أحد يشك في أي شخص، ولا أحد يستطيع حتى تخيل أي دافع محتمل أو التفكير في أي أعداء لابنتها. لا يعرفون سوى أن يكرروا ما تقوله الشرطة، فيقولون إنه حادث انتحار.

"إيلينا" تعرف أن جسدها الأصم محاط بآذان صماء، أكثر صممًا من قدميها عندما لا تمشي. أناسٌ صمٌّ يقولون إنهم يفهمون، رغم أنهم يرفضون الاستماع.

استمع إليها "روبرتو ألمادا" في البداية، وسيظل دائمًا يستمع إليها إذا سمحت له: - لا تأتِ بعد الآن يا "روبرتو".

أخبرته بذلك بعد ظهر أحد الأيام عندما بدأ يبكي في مطبخها وهو يزورها في طريق عودته إلى منزله من البنك.

- ليس لدي شيء ضدك، ولكن لا تأتِ بعد الآن.

استمع إليها لكنه لم يفعل أى شيء حيال ذلك، ولن يفعل أي شيء. كان أول من تقبَّل نظرية الانتحار، لم يخبرها بذلك، لكنها قرأت ما قاله في تقرير الشرطة، قال إن "ريتا" لم تكن على ما يرام في الفترة الأخيرة، وإنها لم تكن على طبيعتها، لم تكن مهتمة بأي شيء، و"لم تكن تضحك كثيرًا".

متى ضحكت كثيرًا؟

قرأت "إيلينا" كلمات "روبرتو" المكتوبة، وأعادت قراءتها مرتين للتأكد مما قاله، وأنها لم تكن مخطئة، وأنها "لم تكن تضحك كثيرًا". لم تكن تضحك كثيرًا. تفكر "إيلينا" فيما يعرفه. فهو أصم، أعمى، رغم أنه يستطيع المشي، والتحرك بحرية، والقيام بكل شيء حُرمت هي منه. لهذا تحاول الوصول إلى بوينس آيرس في هذا القطار الذي توقف في محطة أخرى لا يمكنها قراءة اسمها لأن الحروف غير واضحة، وتبدو مائلة عند رؤيتها من زاوية عينها. تعد على أصابعها وتخمن أنها يمكن أن تكون محطة "أفييانيذا". مثل اسم المحقق، الذي لن يراها إلا خارج ساعات الخدمة، جالسًا على جذر منحنٍ لشجرة "أومبو" في الميدان.

لا أحد يعرف ما تعرفه هي عن ابنتها؛ أو هكذا تعتقد "إيلينا"، لأنها والدتها، أو كانت والدتها. تعتقد "إيلينا" أن الأمومة تأتي مع أشياء معينة؛ الأم تعرف طفلها، الأم تعرفه، الأم تحبه. هكذا يقولون، هكذا هو الأمر. لقد أحبت ابنتها ولا تزال تحبها رغم أنها لم تقل لها ذلك مطلقًا، رغم أنهما كانتا تتعاركان وتبتعدان عن بعضهما، رغم أن كلامهما معًا كان مثل ضربات السوط، حتى لو لم تعانق ابنتها أو تقبلها، فقد شعرت بحب الأم.

هل ما زالت أمًا الآن رغم عدم وجود ابنتها؟ لو كانت هي التي ماتت، لأصبحت "ريتا" يتيمة. ما اسمها الآن بعد أن أصبحت دون ابنة؟ هل محا موت "ريتا" كونها أمًا؟ مرضها لم يفعل.

"إيلينا" تعرف أن كونها أمًا لا يتغير بسبب أي مرض، حتى لو منعك من ارتداء السترة، أو جمَّد قدميك ولم تتمكن من الحركة، أو أجبرك على العيش ورأسك منحنٍ لأسفل. لكن هل من الممكن لموت "ريتا" أن يكون قد أخذ جسد ابنتها، وأخذ معه أيضًا الكلمة التي تصف "إيلينا" أمًا؟

"إيلينا" تعرف أن ابنتها قُتلت. إنها لا تعرف من فعلها أو لماذا. لا يمكنها معرفة الدافع. ولا تستطيع رؤيته، فهل عليها أن تتقبل الأمر عندما يقول الطبيب الشرعي والمحقق "أفييانيذا" و"روبرتو ألمادا" إنه انتحار؟ الجميع يقولون ذلك لأنفسهم سرًا. لكنها كانت تمطر. إنها الأم، وكانت السماء تمطر. هذا يغير كل شيء. لكنها لا تستطيع إثبات ذلك بمفردها. لن تكون قادرة على ذلك بنفسها لأنها لا تمتلك جسدًا سليمًا.

ليس والملك المخلوع وعلتها يتوليان المسؤولية. حتى لو استخدمت كل الحيل الموجودة في الكتاب، فلن تتمكن من كشف الحقيقة ما لم تجنِّد جسدًا آخر لمساعدتها، جسدًا مختلفًا يمكنه أن يتصرف بدلًا منها. يمكنه التحقيق، وطرح الأسئلة، والمشي، والنظر مباشرة في عيون الناس. الجسد الذي سوف يطيع أوامر "إيلينا"، ليس جسدها، بل جسد شخص آخر يحتاج إلى سداد دين عليه. جسد "إيزابيل". هذا هو سبب جلوسها في هذا القطار، لأن هذا الجسد الآخر، جسد امرأة لم ترها منذ عشرين عامًا، قد يساعدها في الكشف عن الحقيقة التي لا يطواعها جسدها في الكشف عنها. الحقيقة التي لا تستطيع رؤيتها.

حتى لو استغرق الوصول إلى بوينس آيرس اليوم كله. حتى لو ظلت عالقة، مشلولة في كل مرة ينتهي فيها مفعول الدواء وعليها الانتظار، محاصرة داخل جسدها، عندما يتوقف الوقت مرة أخرى، وتبدأ في عد الشوارع والمحطات والملوك والعاهرات، والأباطرة العراة، ثم تعيد العد من النهاية للبداية؛ أباطرة، عاهرات، ملوك، شوارع، محطات.

ثم تمشي، تضع قدمًا أمام الأخرى. رغم حقيقة أنه لا يمكن لأحد أن يعيد الملك إلى عرشه، أو يعيد الحياة لابنتها، أو يعيد ابنتها إليها.

8

لم يرغب الأب "خوان" منذ البداية في الحديث عن "ريتا"، حيث تجنب مرارًا وتكرارًا محاولات المحقق "أفييانيذا" مقابلته.

- إما أنك لست لحوحًا بما يكفي، أو أن الأب "خوان" يعتقد أنك أحمق أيها المحقق.

- هل تريدين أن أضيفه إلى قائمة المشتبه بهم يا "إيلينا"؟

- أخبرتك بالفعل أنه عليك التحقيق في جميع النظريات الممكنة.

انتظرت "إيلينا" الوقت المناسب لتذهب للأب "خوان"، وقتًا بعيدًا عن الصلوات اليومية وساعات الاعتراف، أو القيلولة. ذهبت إلى الحجرة الخلفية في الكنيسة، وقرعت الجرس. عندما فتح الكاهن الباب كان يعدل من الياقة التي يرتديها فقط بدلًا من الثوب الطويل المعتاد. ربما طالت قيلولته مع تقدمه في السن أو ربما أخطأت في حساباتها ببضع دقائق. قال لها: - تعالي يا "إيلينا"، انتبهي لخطواتك.

حذرها، بلا فائدة، فعندما حاولت "إيلينا" تجاوز العتبة، اصطدمت مقدمة حذائها بالخشب مرتين، وفي محاولتها الثالثة اقترب منها الكاهن لمساعدتها لتمر من عتبة الباب دون أن تسقط.

- يا لها من مصادفة يا "إيلينا"! كنت على وشك الاتصال بك. تريد المدرسة أن تقيم صلاة خاصة لابنتك "ريتا"، يوم الأحد خلال قداس الساعة السابعة، أتمنى أن تنضمي إلينا.

فكرت "إيلينا" وقررت أن الساعة السابعة مساءً ليس وقتًا مناسبًا لها بسبب جدول الأدوية الخاص بها، لكنها هزت رأسها بالإيجاب.

أكمل الأب "خوان": - كيف تتعاملين مع حزنك؟

أجابت: - أنا لم أتعامل معه بعد.

- هذا ليس جيدًا يا "إيلينا"، هناك وقت لكل شيء، وقت للموت، ووقت للحزن.

- ليس لدي وقت للحزن الآن يا أبتَ.

- عليكِ أن تخصصي وقتًا يا "إيلينا"، كما ورد في الكتاب المقدس، في سفر الجامعة، عليك أن تبكي.

- سأحزن بمجرد أن أعرف الحقيقة كاملة، عندما أكتشف على من يقع اللوم وكيف انتهى المطاف بابنتي هنا في ذلك اليوم.

نظر إليها الكاهن، بدا وكأنه يشك في أن "إيلينا" مستعدة لسماع ما سيقوله، لكنه قاله على أي حال: - ذلك اليوم لا يحمل أي ألغاز غير أسباب "ريتا" لفعل ما فعلته، الأسباب التي أخذتها معها إلى قبرها يا "إيلينا".

- كانت السماء تمطر في ذلك اليوم يا أبتَ، و"ريتا" لم تقترب أبدًا من الكنيسة في الأيام الممطرة، كيف لم تلحظ ذلك طوال هذه السنوات؟

- لا، لم ألحظ قط، لماذا لم تكن تأتي؟

- لأنها كانت تخاف من أن تضربها الصاعقة.

- يا "إيلينا"، لا يمكنك أن تصدقي ذلك!

- أنا لا أصدق، لكن ابنتي كانت تصدق ذلك.

- لكنها أتت إلى هنا في ذلك اليوم يا "إيلينا"، رأيت جسدها. وجدها الإخوة "جوميز"، أنتِ تعرفينهم، أليس كذلك؟ إنهم أبناء صاحب مصنع الطوب على الجانب الآخر من الطريق، أولاد صغار أشقياء لكن طيبون، يساعدونني في قليل من أعمال الصيانة حول الكنيسة، وأسمح لهم بقرع الأجراس للإعلان عن بدء القداس، يقضون وقتًا ممتعًا هناك، أو اعتادوا أن يفعلوا ذلك.

قدم الكاهن لـ"إيلينا" كوبًا من الشاي، لكنها رفضت. قال: - هل تريدين أن نصلي معًا؟

- لم أحضر للصلاة يا أبتَ، جئت لأجد الجزء المفقود من القصة، والشيء الوحيد الذي أعرفه حتى الآن هو أن جثة ابنتي وُجدت معلقة في جرس كنيستك.

- إنها ليست كنيستي يا "إيلينا"، إنها كنيسة الجميع، إنها تنتمي إلى المجتمع.

- ما لا أعرفه هو كيف وصلت إلى هناك يا أبتَ؟

- أنتِ تعرفين كيف وصلت إلى هناك يا "إيلينا".

- لا، أؤكد لك أنني لا أعرف.

- من الصعب قبول وفاة أحد أفراد أسرتك، بل والأكثر صعوبة تقبل موتهم في مثل هذه الظروف الممزوجة بكثير من المشاعر المختلطة.

- أي مشاعر مختلطة يا أبتَ؟

- الألم والغضب، لأننا بصفتنا مسيحيين نعلم أن أجسادنا ليست ملكًا لنا، وأن أجسادنا ملك الرب، ولذلك لا يمكننا الوقوف ضد إرادته، ولأنكِ تعلمين أنه يصعب عليك قبول ما حدث، فأنا أفهم يا "إيلينا".

- حسنًا، أنا لا أفهمك يا أبتَ.

نظر إليها الأب "خوان"، رأسها منحنٍ وعيناها المخيفتان الخاليتان من التعابير تنظران من تحت حاجبيها وجبينها مطالبتين بإجابات. لكن "إيلينا" لم تقل شيئًا، ظلت صامتة، انتظرت، ثم تحدث الكاهن بشكل مباشر أكثر: - الكنيسة تدين الانتحار تمامًا كما تدين أي قتل، وأي استخدام غير مشروع للجسد الذي لا نملكه، مهما كان الاسم الذي تريدين أن تعطيه لهذا الفعل: انتحارًا أو إجهاضًا أو قتلًا رحيمًا.

قالت: - أو مرض "باركنسون".

لكنه تجاهلها. مشى الأب "خوان" إلى الطاولة، وصب لنفسه كوبًا من الشاي المثلج من إبريق، وأخذ رشفة.

- هل أنت متأكدة من أنكِ لا تريدين أن تشربي أي شيء؟

شعرت "إيلينا" وكأنه يحاول أن يماطل لبعض الوقت، مثل طبيب الأسنان الذي أعطى مريضه المخدر بالفعل، وعندما حاول خلع السن صرخ المريض، فعرف أنه يجب عليه الانتظار لفترة أطول قليلًا، وأن العصب لم يُخدر بعد ليمنع الألم.

- "إيلينا"، يجب أن تحافظي على هدوئك، رغم العقبات التي يضعها الرب في طريقك، يجب أن تحاولي دائمًا أن تظلي ثابتة على إيمانك.

- أي إيمان؟ من قال لك أنني مؤمنة؟

- أفعالك أخبرتني يا "إيلينا".

- تقصد لأنني لم أقتل نفسي، لأنني لم أعلق هذا الجسد عديم الفائدة من جرسك، أم لأن ابنتي ماتت وما زلتُ هنا.. بقيد الحياة؟

- "إيلينا"، من فضلك، هذا كفر، إن الجسد ملك للرب، والإنسان له الحق فقط في استخدامه.

- لم يكن لدي الحق في استخدام جسدي منذ فترة من الوقت، ولم يكن الرب هو من أخذ مني هذا الحق، ولكنها تلك العلة العاهرة اللعينة.

- "إيلينا"، من فضلك اهدئي، فالشتائم لن تفيد في شيء، أقترح أن تصلي من أجل روح ابنتك، ليرحمها الرب في الدينونة الأخيرة.

- أنا لا أهتم بالدينونة الأخيرة يا أبتَ، أنا مهتمة بما يحدث هنا على الأرض، أريدك أن تساعدني في كشف الحقيقة.

- أتريدين الحقيقة يا "إيلينا"؟ سأكررها لك إذًا، بأكبر قدر ممكن من الوضوح: ابنتك ارتكبت خطيئة، لقد قتلت نفسها، أهدرت جسدًا لا يخصها، لكنه يخص الرب، قررت أنها لا تستطيع الاستمرار في الحياة رغم أن كل مسيحي يعرف أنه ليس من حقنا أن نقرر متى ستنتهي حياتنا، هذه هي الحقيقة، وعلينا أن نشفق عليها.

- كانت السماء تمطر يومها يا أبتَ.

- إذا واصلتِ الحديث عن المطر يا "إيلينا"، فسأستنتج أنكِ ترتكبين خطيئة التكبر.

- ما الخطيئة التي تقول إنني أرتكبها؟

- التكبر والغطرسة، أن تعتقدي أنكِ تعرفين كل شيء، حتى عندما تكشف الحقائق شيئًا آخر.

- لكن أليس هذا ما تعلِّمه أنت وكنيستك كل يوم؟

- نعلِّم كلمة الرب.

- الاستيلاء على كلمة الرب وتكريسها لخدمة غرض خاص هو أعظم أفعال التكبر أيها الأب، الكبر الخالص.

نهضت "إيلينا" بصعوبة، حاولت ثلاث مرات حتى تمكنت من الوقوف دون مساعدة، وتوجهت نحو الباب. راقب الأب "خوان" ظهرها المنحني، شعر بالأسف عليها ورشم الصليب بصمت. بعد أن وصلت إلى الباب، حاولت "إيلينا" أن تخطو بقدمها فوق العتبة، لكنها لم تستطع رفع قدمها عاليًا بما يكفي. مشى الأب "خوان"، ورغم احتجاجاتها، ساعدها. كانت "إيلينا" تقف على جانب من العتبة وهو على الجانب الآخر. قالت: - أنت بحاجة لشخص ليلمِّع حذاءك يا أبتَ.

نظر الكاهن إلى حذائه الأسود، الذي لم يتم تلميعه منذ فترة.

- اطلب من هؤلاء الأولاد الذين يساعدونك في صيانة الكنيسة تلميع حذائك. إنه جزء من الكنيسة أيضًا، أيها الأب.

خطت "إيلينا" خطوتين وكان الأب "خوان" على وشك إغلاق الباب، ولكن قبل أن يفعل، قال لها: - نسيتُ يا "إيلينا" أنكِ أم.

لم تلتفت لتنظر إليه لكنها توقفت وقالت: - هل أنا أم يا أبتَ؟ لماذا تشك في ذلك؟ ما الاسم الذي تطلقه على امرأة فقدت ابنتها؟ أنا لست أرملة، ولست يتيمة، فمن أنا؟

انتظرت "إيلينا" بصمت وظهرها له، وقبل أن يجيب قالت وهي تبتعد: - من الأفضل ألا تعطِني اسمًا أيها الأب، إذا وجدت أنت أو كنيستك اسمًا لي، فمن المحتمل أنك ستأخذ حقي في تقرير كيف سأتصرف أو كيف سأعيش حياتي أو كيف سأموت. من الأفضل ألا تفعل.

- أنت أم يا "إيلينا"، ما زلت أمًا، وستبقين كذلك دائمًا.

- آمين.

قالت ذلك وغادرت المكان وهي واثقة من أنها لن تعود إليه أبدًا.

2
منتصف النهار
(الحبة الثالثة)

1

يصل القطار إلى ميدان "كونستيتثيون". تنتظر "إيلينا" نزول الركاب الآخرين من العربة، ثم تحاول النهوض، تنزلق على المقعد المصنوع من الفينيل، مبتعدة بنفسها عن النافذة لناحية الممر، عكس ما فعلت في السابق وهي تحاول الجلوس. ينشبك سحَّاب تنورتها في جزء ممزق من المقعد يخرج منه الفوم الأصفر. تمكنت من تحرير نفسها. تتكئ على مسند المقعد وتقف. لاحظت بسعادة أنه لا تزال هناك بعض آثار للدواء تتفاعل مع جسدها. نظرت إلى ساعتها، ما زال أمامها أكثر من ساعتين حتى تحتاج إلى تناول الحبة التالية.

تعلق يد حقيبتها على كتفها، وتضغطها إلى الأمام على بطنها. تعلم أنها لا تستطيع أن تمشي بحقيبة يدها وهي معلقة على كتفها دون أن تحمل أي هم وتسير بها هكذا على رصيف محطة "كونستيتثيون".

"إيلينا" تعرف أنها فريسة سهلة لأي شخص قد يرغب في انتزاع حقيبتها منها والهرب. رغم أن اللص سيصاب بصدمة، لأن حقيبة يدها لا تحتوي سوى على ما يكفي من المال لشراء تذكرة العودة بالقطار، وهناك أيضًا هويتها الشخصية، وحبوب دوائها، ومنديلها، ومفاتيح منزلها، وعلبة عصير، وشطيرة جبن. كل ما تحتاجه لاستكمال هذه الرحلة. لذلك ضغطت حقيبة يدها بقوة على بطنها، لأنها إذا فقدت حبوبها فلن تتمكن من المشي.

مرت عبر أبواب القطار المفتوحة ونزلت على الرصيف. كانت تسير خلف الحشد الضخم الذي تم توجيهه في صفوف مرتجلة لإظهار تذاكرهم. يقترب منها رجل ويسألها: - هل تحتاجين أي مساعدة يا جدتي؟

"أنا لست جدتك اللعينة"، تفكر "إيلينا" لكنها لا تقول شيئًا. تنظر إليه وتستمر في السير، كما لو كانت صماء أيضًا. صماء مثل قدميها عندما ترفضان الاستجابة لأوامر مخها. صماء مثل كل من يرفض الاستماع لها عندما تقول إنها كانت تمطر ذلك المساء.

من المحتمل أن الرجل أصغر منها بعشر سنوات فقط، ربما ليس أكثر من خمس سنوات، لكن جسده لم يذبل مثل جسدها، لذلك يعتقد أنه أصغر منها بكثير، ويعتقد أنه من حقه تقديم المساعدة لها. ينظر الرجل إلى جسدها ويُطلق عليها لقب الجدة. يمكن بالطبع أن تكون جدة في الثالثة والستين من عمرها، لكن الرجل الذي أراد مساعدتها لقبها بجدته لأنها بدت عاجزة تمامًا. تتمنى لو كانت جدة، لكنها لم تستطع تخيل "ريتا" أمًا. لطالما كانت تشك في أن ابنتها عقيمة. ربما لأنها كانت كبيرة في السن عندما جاءتها أول دورة شهرية، في قرابة الخامسة عشرة من عمرها، آخر فتاة في فصلها "تصبح امرأة". وكانت دورتها الشهرية دائمًا غير منتظمة، وخفيفة جدًا.

- لديكِ دورة شهرية شحيحة يا "ريتا".

- هذا أفضل يا أمي، أنظف.

لم تلطخ "ريتا" ملاءة أبدًا، ولم تعانِ من تقلصات تمنعها من استكمال يومها. لم تكن الدورة الشهرية ثقيلة بما يكفي لتسبب لها أي إزعاج. تقريبًا وكأنها دورة شهرية كاذبة، لكنها تأتيها بما يكفي لمنع أي شخص من طرح الأسئلة. من ناحية أخرى، كانت "إيلينا" تتمتع دائمًا بدورة شهرية وفيرة، سخية، من النوع الذي لا يترك مجالًا للشك في أن كل شيء في الداخل يعمل بشكل صحيح.

لا تزال تتذكر اليوم الذي لطخت فيه مقعدها خلال حفل في دار السينما عندما كانت "ريتا" تبلغ من العمر حوالي عشر سنوات: - انهضي، ودعينا نخرج من هنا بسرعة، انهضي الآن.

لكن "ريتا" أخذت وقتها، جمعت كيس الحلوى الخاص بها، وارتدت حذاءها.

كررت "إيلينا": - قلت أسرعي ودعينا نذهب.

- انتظري يا أمي، ما سبب هذا الاستعجال؟

أجابت "إيلينا": - بسبب هذا.

وأدارت رأس ابنتها لتُظهر لها البقعة البنية على المقعد المخملي. أدى ذلك إلى سرعة تحرك "ريتا"، وهرعت جريًا من المسرح وهي تبكي، وتنظر خلفها لتعرف ما إذا كان هناك أي شخص آخر لاحظ بقعة دم والدتها. كانت "إيلينا" متأكدة من أن رحمها يعمل بشكل جيد، لكن الشكوك ساورتها دائمًا حول رحم ابنتها. إذا لم تكن "ريتا" قادرة على ترك البقع خلفها كما تفعل هي، فهي ليست متأكدة من صلاحيته.

عندما كانت "ريتا" في العشرين من عمرها، اصطحبتها "إيلينا" لمقابلة الدكتور "بينيجاس". كانت كبيرة ولا يمكن أن تذهب بها لطبيب الأطفال، لذا أخذتها "إيلينا" إلى طبيبها، الذي كان أيضًا طبيب والدة "إيلينا"، وطبيب خالاتها، وطبيب كل سكان الحي تقريبًا. الطبيب نفسه الذي سيشرح لهما بعدها بسنوات ما هو دواء الـ"ليفودوبا"، والمادة السوداء، والعضلة القصية الترقوية الخشائية، و"باركنسون". ولكن في ذلك الوقت، لم تكن هذه الأشياء موجودة بعد، لأن أحدًا لم يحدثهما عنها من قبل. اقترح الدكتور "بينيجاس" إجراء اختبار لمعرفة ما إذا كان لدى "ريتا" رحم: - للتأكد من أننا لسنا في مواجهة أي مفاجآت يا "إيلينا"، للتحقق من أن "ريتا" ليست حبة دون بذرة، وستكون قادرة على تحقيق هدفها في الحياة.

في ذلك الوقت، لم تكن الموجات فوق الصوتية على ما هي عليه الآن، حيث يمكنك رؤية كل شيء تحت الجلد واللحم كما تشاهده على شاشة التليفزيون. وقبل ذلك، لكي ترى ما بداخل الجسد البشري، كان عليك أن تحاول فعل ذلك بطريقة ما. ذهبت "ريتا" و"إيلينا" إلى العيادة معًا، حيث كان لـ"بينيجاس" مساعدان. صامت "ريتا" عن الطعام منذ الليلة السابقة، وآخر شيء تمكنت من تناوله هو مربى السفرجل وبسكويت لا طعم له. وفي الساعات الست الأخيرة صامت حتى عن الماء. كانت جائعة، لكن مجرد التفكير في مربى السفرجل جعلها لا تطيق تناول الطعام. وضعوها على سرير وأخرجوا جهازًا لم تعرف "إيلينا" اسمه أبدًا، ولكنه بدا مثل المنفاخ الذي يستخدمونه لنفخ كرات القدم. إلا أنهم وضعوا الصمام داخل "ريتا". وضعوه في بطنها ونفخوها: واحد، اثنان، ثلاث، عشر مرات. بكت "ريتا". قال الدكتور "بينيجاس": - هيا يا "ريتا"، هذا لا يمكن أن يؤلم.

لم تجب "ريتا"، لذا أجابت والدتها عنها: - بالطبع لا يؤلمها أيها الطبيب، إنها فقط تحاول أن تجعلنا نشعر بالذنب.

عندما انتفخ بطن "ريتا" بما فيه الكفاية، قاموا بتعديل السرير بحيث تتجه قدماها لأعلى نحو السقف ورأسها لأسفل، بزاوية مائلة نحو البلاط الرمادي. وفحصوها. أغمضت "ريتا" عينيها حتى لا ترى ما يفعلون. لم ترَ "إيلينا" أيضًا لأن الدكتور "بينيجاس" طلب منها مغادرة الغرفة، قائلًا إن الأم وابنتها تتشاجران كثيرًا لدرجة يمكن أن تعرض الفحص للخطر. قالت "إيلينا": - توقفي عن البكاء يا "ريتا"، إذا كان هذا هو رد فعلك على بعض الاختبارات الصغيرة، آمل جديًا ألا تكونين قادرة على إنجاب الأطفال، إذا كنتِ تعرفين فقط مقدار الألم، أليس كذلك أيها الطبيب؟

- أوه، حسنًا، الحقيقة هي أنني لن أعرف أبدًا مقدار الألم.

قال الدكتور "بينيجاس" وضحك كلاهما، بينما "ريتا" مستلقية بزاوية 45 درجة، ممتلئة بالهواء.

بسبب وضعية السرير، كانت دموع "ريتا" تسقط إلى أعلى، من القناة الدمعية على جفنيها، متتبعة قوس حاجبيها قبل أن تتسابق فوق جبهتها وتختفي في خط شعرها.

شعرت "ريتا" بشخص ما يفرك يدها أسفل الملاءة، ثم تمسك يده بيدها بقوة. فتحت عينيها لثانية ورأت أحد مساعدي الدكتور "بينيجاس" يقف بجانب السرير، يحدق بها. عندما وقعت عينا "ريتا" عليه، داعب يدها بإصبعه، وابتسم لها. أغمضت "ريتا" عينيها بقوة أكبر من ذي قبل وسحبت يدها بعيدًا عنه، ووضعتها بجانبها. انتظرت وهي متصلبة، لكنه لم يحاول أن يمسك يدها مرة

أخرى. بعد فترة شعرت أنهم يسحبون المضخة من جسدها وفتحت عينيها، ابتعد المساعد عنها.

- لا تتوتري كثيرًا وإلا سيكون من الصعب إطلاق كل الهواء الذي بداخلك.

قالها الدكتور "بينيجاس" وهو يضغط على بطن "ريتا" لطرد الغاز الذي ملأوها به. وبعد ذلك انتهى كل شيء، أنزلوها، وشرحوا لها كيف تضغط على بطنها لدفع الهواء الذي لا يزال متبقيًا: - إذا لم تتركينا نفعل ذلك، فسيتعين عليك القيام بذلك بنفسك.

وأرسلوها إلى المنزل. أخبر الطبيب "إيلينا" قبل أن يودعها في غرفة الانتظار: - لديها رحم، لا تقلقي.

تتمنى "إيلينا" لو كانت جدة. لو كان لديها حفيد، لم تكن لتمشي بمفردها على هذا الرصيف الذي تفوح منه رائحة زيوت القلي القديمة. كانت لتجد جسدًا يمكن أن يساعدها لتقوم برحلتها. لأنها لو كان لديها حفيد لتحدثت معه عن "ريتا"، وشرحت له كيف كانت في مثل سنه، وكيف كانت قبل ذلك. كان سيطرح أسئلة، وستختلق القصص، وتزين ذكرياتها، وتبتكر شخصية مختلفة لم تكن لـ"ريتا" أبدًا، كل هذا من أجله هو، ذلك الصبي الصغير، الذي سيكون السبب في أن يُطلقوا عليها اسم "الجدة"، فتختفي رائحة الزيوت، رغم أن "ريتا" ماتت. لكن الرائحة لا تختفي، تملأ أنفها وتغلف جسدها المنحني، تلتصق بملابسها، تشبعها، وهي تجر قدميها على الرصيف.

تعلن مكبرات الصوت في المحطة عن تأخر القطار، والناس من حولها يشتكون بصوت عالٍ، ويصفرون، و"إيلينا" هنا، وسط الصفير، بلا حفيد ولا ابنة. لم تقرر بعد ما إذا كانت ستستقل مترو الأنفاق أم سيارة أجرة عندما تخرج من المحطة.

الساعة الحادية عشرة الآن وموعد تناول الحبة الأخرى بعد الظهر، ستأخذ الدواء بعد تناول الطعام بقليل للتأكد من تفاعل الدواء كما ينبغي، طعام لا يحتوي على كثير من البروتين. أخبرها الدكتور "بينيجاس" ألا تأكل البروتين في الغداء، مثل شطيرة الجبن التي تحملها في حقيبة يدها.

تدخل في أحد الصفوف وتسير مع الحشد. تتخيل أن هذا هو الحال في ملاعب كرة القدم عندما تكون هناك مباراة كبيرة. لم تذهب إلى الملعب أبدًا. ولا "ريتا". ربما لو كان لديها حفيد، لاصطحبته. تتحرك بأسرع ما يمكنها. يحث عامل التذاكر الجمهور على التحرك بسرعة، ويدفع الناس بعضهم بعضًا، دون أن يعتقدوا أنه من الغريب أن يدفعهم شخص ما لا يعرفونه، سوى لأنهم يتشاركون المسار الضيق نفسه.

جاء دور "إيلينا"، وهي تقف بجانب الرجل الذي يحصِّل التذاكر. تضع يدها في جيبها وتفتش بعصبية بأصابعها، تتحسس خط الخياطة الداخلية لكن يدها تخرج فارغة. لا يتعطل الصف من خلفها لأنه لم يتبقَ أحد وراءها، لكن قطارًا آخر سيدخل المحطة وسرعان ما ستمتلئ البوابات مرة أخرى بالمسافرين المسرعين، المتلهفين على دفعها أو دفع أي شخص آخر بعيدًا عن طريقهم من أجل الوصول إلى المكان الذي يريدون الذهاب إليه بسرعة أكبر.

- لا بأس، تفضلي.

يقول عامل التذاكر قبل أن تتمكن من العثور على تذكرتها، ويشير لها بالسير، لكنها تواصل البحث. ويصر الرجل قائلًا: - تفضلي يا سيدتي، تفضلي.

تنظر إليه "إيلينا" دون أن ترفع رأسها، تجهد حدقتي عينيها لتنظر إليه من تحت جبهتها، من بين حاجبيها. يؤلمها جفناها وخداها، لكنها لا تزال تنظر إليه وهي تخرج يدها من جيبها وتمسك بالتذكرة حتى يتمكن من رؤيتها.

2

تعتقد "إيلينا" أن المحقق "أفييانيذا" هو شخص آخر لا يريد أن يرى الحقيقة.

- تحتاج إلى الكشف على عينيك أيها المحقق.

يتقبل "بينيتو أفييانيذا" انتقاداتها بالاستسلام نفسه الذي قبل به المهمة الموكلة إليه بأوامر محددة: "ستقابل والدة المتوفية، لكن أوضح لها أنه فيما يتعلق بالشرطة والمحاكم، أُغلِق ملف القضية باعتبارها انتحارًا".

قال له رئيسه: - إذا لزم الأمر، اعرض عليها مساعدة نفسية يا "أفييانيذا".

لكن "أفييانيذا" لم يجرؤ أن يقول لها ذلك. بالنسبة له، أمه أو أم أي شخص آخر هي امرأة مقدسة، فلم يستطع التخلص منها ببساطة هكذا.

لم يكن "أفييانيذا" أبدًا محققًا، بل مجرد ضابط عادي، ومهمة التعامل مع "إيلينا" كانت بمثابة عقاب له.. نوع من المراقبة غير الرسمية بعد أن أمسكوا به متلبسًا في خزينة قبو بنك "بروفينسيا" - حيث كان مسؤولًا عن تأمين نقل الأموال - وقد تجرد من بنطاله متجهًا ناحية صرافة في البنك تنتظره نصف عارية عند حائط ممتلئ بصناديق الودائع.

- بحق السماء يا "أفييانيذا"، في المرة القادمة كن أكثر حذرًا.

هذا ما قاله له رئيسه، وحوَّله بعدها للأعمال المكتبية. كانت مهامه هي أن يتحقق من تغيير العناوين في مركز الشرطة، تلقي شكاوى الضوضاء، ترتيب ملفات سرقات السيارات، وإرسال الشكاوى إلى السلطات المعنية، الجرائم الصغيرة، والتحقق من خلفية المشتبه بهم.. ليس أكثر من ذلك. حتى ظهرت قضية "إيلينا"، أو بالأحرى قضية "ريتا"، أو قضيتهما معًا. قال له رئيسه: - أخبرها أنك محقق، أيها الضابط، لديك إذن مني بذلك، بهذه الطريقة ستعتقد السيدة أننا مهتمون بقضيتها. أشعر بالأسف على السيدة العجوز يا "أفييانيذا"، وستفعل أنت أيضًا، لكن القضية انتهت، حتى لو أرادت الاستمرار في البحث والتمحيص في القضية ولم تيأس. نحن نقوم بما يكفي بالفعل، ألا تعتقد ذلك؟ لسنا ملزمين بتعيين ضابط للاستماع إليها، لكننا نفعل ذلك بدافع الإنسانية فقط.

سرعان ما أصبحت اجتماعاتها مع "أفييانيذا" في أيام الإثنين والأربعاء والجمعة هي أكثر ما تتطلع إليه "إيلينا". في الساعة العاشرة صباحًا، كانت تذهب إلى مركز الشرطة وتنتظر وصوله.

- أنت هادئ جدًا بالنسبة لضابط شرطة أيها المحقق، ستتأخر في الوصول لمسرح الجريمة.

- ربما هذا هو السبب في أنني لا أحصل على ترقية يا سيدتي.

قال وقد احمر وجهه وهو يتذكر الخزينة في بنك "بروفينسيا" حيث انتهت مسيرته المهنية، وليس بسبب عدم الالتزام بالمواعيد.

لا بد أن "أفييانيذا" قد زاد وزنه أو أن سترته انكمشت في الغسيل، لأنه لم يستطع غلق زر السترة الزرقاء التي عليها شارة شرطة مقاطعة بوينس آيرس. ياقات جميع قمصانه مهترئة. لو استطاعت "إيلينا" رؤيتها، لعرضت عليه أن تقلبها له كما كانت تفعل مع ياقات قمصان زوجها، لكن نطاق رؤيتها، وهي تجلس على الجانب الآخر من المكتب، لم يتجاوز الزر الثاني المفكوك في سترته.

في البداية لم يشعر "أفييانيذا" بالارتياح تجاه المرأة التي تحدق في بطنه، حتى أدرك أن الأمر لم يكن شخصيًا، فحتى لو أرادت ذلك، فـ"إيلينا" لا تستطيع رؤية أي شيء أعلى من ذلك. ومع استمرار اجتماعاته بها، تعلم أن يشفط بطنه أو يحبس أنفاسه أو يغوص في كرسيه ليصبح وجهه على المستوى نفسه منها ليتمكن من رؤية وجهها، وهو يجلس على هذا النحو لفترة طويلة حتى أن ظهره يؤلمه.

في المرات القليلة الأولى التي التقيا فيها، طلبت "إيلينا" تفسيرات، عما إذا كان هناك أي خيوط في التحقيق، وتوقعت إجابات لأسئلة لم يطرحها أحد.

- لم تذهب إلى هناك لتقتل نفسها، أيها المحقق، كان الحبل موجودًا بالفعل في برج الجرس، والكرسي الذي وقفت عليه كان هناك، فهي لم تخطط لذلك، لقد خطط لذلك شخص ما.

أومأ "أفييانيذا" برأسه مثل شخص يتحدث إلى عمة مسنة يزورها من وقت لآخر، متابعًا المحادثة دون الإنصات لما تقوله حقًا، فقط ليقضي بعض الوقت معها. في البداية تجادلا: - الحقيقة هي أنه فيما يتعلق بالشرطة والمحاكم ليس هناك شك في أنه حادث انتحار يا سيدتي.

- لكنها كانت تمطر، أيها المحقق.

أجابت "إيلينا"، ولم يكن لدى "أفييانيذا" ما يقوله عن حقيقة أن السماء كانت تمطر، لأن ذلك لم يكن له أهمية بالنسبة له ولرجال الشرطة. سرعان ما تعلم "أفييانيذا" الرد: - نعم يا سيدتي، كانت السماء تمطر ولم ننكر المطر.

ولكنه أيضًا لم يفعل أيًا من الأشياء التي كانت "إيلينا" تأمل أن يفعلها.

لتمضية الوقت خلال تلك المقابلات، قرأ لها صفحات من التحقيق، وكان أحيانًا يعيد قراءة بعض الصفحات التي تجادلا بالفعل حولها قبل أسابيع.

وسرعان ما أدركت "إيلينا" أنه لا يمكن أن تكون هناك أي أدلة لأنه لم يكن هناك أي تحقيق مطلقًا. لذلك بدأت في جلب أدلتها الخاصة: يوميات "ريتا" التي لم يطلب أحد رؤيتها، دفتر عناوينها، قائمة بجميع الأشخاص الذين عرفوا ابنتها، مكتوبة بخط يدها بطريقة رديئة بسبب المرض: - إذا كان هناك أي شيء لا يمكنك قراءته أخبرني أيها المحقق.

- لا تقلقي يا سيدتي، بإمكاني قراءتها.

هكذا رد الضابط، وهو يمسك بقطعة الورق التي أعطتها له "إيلينا" ويتساءل عن المدة التي استغرقتها المرأة لتكتب كل تلك الأحرف الزرقاء الملتوية على هذه الورقة المسطرة من دفتر الملاحظات. قائمة بالأماكن الأخيرة التي ذهبت إليها ابنتها في الأيام التي سبقت وفاتها: إلى منزل "روبرتو ألمادا"، والمدرسة الكاثوليكية، والسوبر ماركت، وصالون تجميل والدة "روبرتو"، ومكاتب شركة التأمين الصحي التي ذهبت إليها، مرة أخرى، للمطالبة بمصاريف اختبار الكلى الذي أجرته "إيلينا" منذ شهرين ولم توافق عليه الشركة بعد، عندما قالت لها ابنتها وذهبت بها إلى دكتور "بينيجاس": "دعينا نرى ما إذا كنا سنضع نهاية لرائحة البول التي تفوح منكِ يا أمي".

قال "أفييانيذا": - ذهبت إلى عيادة الدكتور "بينيجاس" أيضًا.

- متى كانت ابنتي في عيادة الدكتور "بينيجاس"؟

- قبل موتها بيومين، ألا تعلمين ذلك؟

- لا، لم تخبرني بذلك.

- ربما لم تخبرك بذلك، لكنها كانت هناك يا "إيلينا".

- لكنها لم تكن مريضة.

- لم تذهب لنفسها، ذهبت من أجلك.

- لم يكن لدي موعد مع "بينيجاس".

- ذهبت للحديث معه عنك يا "إيلينا".

- أيها المحقق، أنت لا تشك في دكتور "بينيجاس"، أليس كذلك؟

- لا، بالطبع لا، أنا فقط أقول إنه إذا كنت ترغبين في إعداد قائمة بجميع الأماكن التي ذهبت إليها ابنتك قبل وفاتها عليك أن تضيفي أنها ذهبت لرؤية الدكتور "بينيجاس"، إذا كنت تريدين قائمة كاملة.

- بالطبع أريد أيها المحقق. ربما قالت له شيئًا، للطبيب؟ أنت تشك في دكتور "بينيجاس"، أليس كذلك أيها المحقق؟ لا تكذب عليَّ.

- لا يا "إيلينا"، أنا فقط أقول إن ابنتك كانت هناك، إذا كنتِ تريدين، يمكنني إضافته إلى القائمة، وإذا لم تريدي، سأستبعده.

- يمكنك إضافته أيها المحقق، أنت من يجب أن يحقق، هذا واجبك، أنا مجرد أم.

أجاب الضابط: - إذا كنت تعتقدين أن هذا أفضل يا "إيلينا".

لكن لم يبدُ أن لديه أي رغبة في إضافة أي شيء إلى القائمة. لذا، أخذت "إيلينا" الورقة من يده، وانحنت عبر المكتب لتلتقط قلمًا من حامل الأقلام، وأضافت بخط رديء "عيادة الدكتور بينيجاس" إلى أسفل القائمة. ثم أعادت القائمة إلى الضابط. وقالت: - ها هي أيها المحقق، قم بعملك، وبشكل صحيح.

3

قررت "إيلينا" أن تستقل سيارة أجرة، عبرت المحطة المزدحمة وهي تتفادى كالأعمى العقبات التي تقع في طريقها، مثل السبَّاح الذي لا يرى سوى قاع المسبح، تحاول البقاء في المسار الذي اختارته لنفسها. لكن الآخرين لا يرون مسارها ويعبرونه، وهم قادمون وذاهبون إلى جميع الاتجاهات.

يبتعد الأشخاص المنتبهون عن طريقها، أما غير المنتبهين فيصطدمون بها. ولكنها تواصل طريقها، كما لو أن لا أحد غيرها في العالم، تمامًا كما تشعر أن لا أحد يعلم بوجودها. لكنهم موجودون، يمرون أمامها، ويبتعدون، كثير من الأقدام، و"إيلينا" مستمرة في المسار الذي يمكنها رؤيته. يصطدم شخص ما بها ويعتذر دون انتظار ردها، ويدور شخص آخر حولها لكن حقيبة الظهر المعلقة على كتفه تصطدم بها، بقسوة وعدم اكتراث.

تشكل مجموعة من الأقدام دائرة غير مكتملة على بعد أمتار قليلة خارج مسارها. بعض المحتجين يحملون لافتات أو ملصقات أو أعلامًا، عليها مطالب: رواتب غير مدفوعة، فصل من العمل، بعض الباعة الجائلين الذين لا يريدون أن يتم تهجيرهم. "إيلينا" لا تهتم، ومع ذلك فهي أيضًا تحمل لافتة بمطالبها، لا يراها أحد. تسمع شخصًا ما يصرخ عبر مكبر الصوت، والدائرة تصفق. شخص ما يذكر الرب، وابن الرب.

ترى صفًا طويلًا آخر من الأحذية، أحذية يرتديها أشخاص ينتظرون الورقة التي تؤكد تأخر القطار الذي وصلوا فيه، مرة أخرى، حتى لا يتم الخصم من أجورهم.

تفكر وهي محاطة بدائرة غير مكتملة من الأحذية، والصوت الذي يتحدث في مكبر الصوت، والناس تصفق للصوت، أو للرب، أو لابنه، أن السيارة الأجرة ستكون أفضل من مترو الأنفاق. السيارة الأجرة أفضل من مترو الأنفاق، ليس فقط لأن مترو الأنفاق يتوقف في محطة "كارانزا" وسيكون أمامها عشرة شوارع لتصل إلى العنوان الذي تريده، كما أخبرها السائقون في موقف السيارات الأجرة على ناصية شارعها.. السيارة الأجرة أفضل من مترو الأنفاق لأنها في خلال نصف ساعة لن تتمكن من النهوض من مقعدها، أي مقعد، أيًا كان المقعد الذي استقر عليه جسدها. وهي لا تريد أن يحدث ذلك في مترو الأنفاق. ورغم مرور وقت طويل، سنوات، منذ ركوبها سيارة أجرة لآخر مرة، فإنها لا تزال تتذكر كيف تركبها.

تتذكر أنها شاهدت عربات مترو الأنفاق الفارغة تختفي في النفق في المحطة، قبل ظهور قطار آخر على الرصيف المقابل، جاهز للقيام برحلة العودة. ولكنها لا تعرف ما إذا كان القطار نفسه. لم تهتم أبدًا من قبل، أما في حالتها تلك فمن الممكن أن تجلس دون أن تتمكن من الوقوف مرة أخرى

عندما تريد، لذا فهي تهتم. إنها تعلم أن القطار سيخرج في النهاية من النفق الذي ابتلعه، وإلا فإن نظام مترو الأنفاق سيحتاج لكثير من القطارات.

ولكن متى سيأتي القطار؟ هل في وقت لاحق بعد ظهر اليوم، في نهاية اليوم، قبل بدء مفعول الحبة التالية، أو بعدها؟ يختلف وقت "إيلينا" عن الوقت الذي تستغرقه قطارات مترو الأنفاق في الوصول من محطة إلى أخرى. ليس لديها جدول زمني لذلك. وقتها يُقاس بحبوب الدواء. الحبوب ذات الألوان المختلفة التي تحملها في حقيبة يدها، في علبة تنظيم الدواء البرونزية التي بها عدة صفوف. قدمتها لها "ريتا" هدية في عيد ميلادها الأخير.

- حتى لا تخلطين بين الحبوب.

قالتها "ريتا" ووضعت العلبة على المنضدة. لم تكن ملفوفة كهدية، بل كانت بداخل كيس بلاستيكي شفاف، دون اسم عليه، مثل الأكياس التي نحضرها من متجر البقالة، ولكنه أرق ودون أي اسم.

- ماذا عن الشموع؟

سألتها "إيلينا". فتشت "ريتا" في درج المطبخ حتى عثرت على شمعة مستعملة، شمعة من التي يحتفظون بها في حالة انقطاع الكهرباء، عليها قطرات من الشمع الجاف. متسخة من أثر النسيان طويلًا في قاع الدرج، قصيرة، مقسومة نصفين، ولكن الفتيل يمسك أجزاءها ببعضها.

سحبت "ريتا" الفتيل الأسود ليستقيم. أزالت الأوساخ بأطراف أصابعها وأشعلتها. أمسكت بالشمعة أمام "إيلينا" وقالت: - انفخي.

نفخت "إيلينا"، لوت رأسها وشفتيها إلى الجانب لتصل إلى الشمعة، وسال لعابها على سطح الطاولة "الفورميكا".

- كيف يُعقل ألا تحتفظي أبدًا بالمنديل معكِ يا ماما؟

يومض لهيب الشمعة قليلًا: - انفخي مجددًا يا ماما.

لوت "إيلينا" شفتيها مرة أخرى إلى جانب واحد، وحاولت نفخ خديها وجمع مزيد من الهواء في فمها، لتُصوب نحو الهدف. مدت رقبتها لتقترب من الشمعة، وكانت ستنفخها هذه المرة، ولكن قطرة من الشمع الساخن سقطت على يد "ريتا" في تلك اللحظة: - اللعنة!

قالتها ابنتها، وهزت الشمعة في الهواء، مرة، اثنتين، ثلاث مرات حتى انطفأت، وابتلعت "إيلينا" كل هذا الهواء.

إذا لم تستطع الوقوف عندما يحين وقت النزول من مترو الأنفاق، سوف تختفي في ذلك النفق الأسود حيث لا تعرف ماذا سيحدث، والأسوأ من ذلك،

حيث لا تعرف "إيلينا" كيف يحسبون الوقت. هذا الوقت مختلف تمامًا عن وقتها الذي تحسبه دون ساعات، سيصبح الأمر وكأنها في برزخ النسيان.. مكان معلق بين الجنة والجحيم. أن تذهب إلى الجنة أو الجحيم أفضل من أن تظل عالقة هناك في منتصف الطريق، يبدو دائمًا أنه الخيار الأسوأ لها. "عالم النسيان" أو "المطهر"، لا تستطيع تذكر الفرق بين الاثنين، لكنها تعلم أن هناك فرقًا بينهما، وأنها كانت تعرف ذلك في وقت من الأوقات.

تتساءل عما إذا كانت حقيقة أنها لا تتذكر الفرق تمثل أي أهمية وهي في طريقها إلى منزل "إيزابيل مانسيلا" للحديث عن ابنتها الميتة. تبدو كلمة المطهر مضحكة بالنسبة لها لأنها تتطهر كل يوم، جسدها هو مطهر، على أرجل. يسير أحيانًا لفترات وجيزة. تطهر نفسها بالمُسهلات، منذ أن جعلت العلة أمعاءها كسولة.

- أمعاؤك تعمل.

قالها الدكتور "بينيجاس" عندما اشتكت من أنها تقضي عدة أيام دون أن تتمكن من الذهاب إلى المرحاض.

- لكن مرضى "باركنسون" أمعاؤهم كسولة يا "إيلينا"، يمكن حل هذه المشكلة بتناول بعض من عصير البرقوق كل صباح أو طبق من السلاطة الخضراء على الغداء.

التطهير. لهذا السبب، رغم أنها تشك في وجود الجنة أو الجحيم أو المطهر، فإنها تريد ركوب سيارة أجرة. تخرج من المحطة وتبحث عن موقف سيارات الأجرة. تسأل في كشك الصحف. سألها بائع الصحف: - إلى أين أنتِ ذاهبة؟

تستطيع "إيلينا" أن تقول إن الرجل نظر إليها وفهم حالتها، لأنه عرف أنه لا يهم أي موقف سيارات أجرة سيوصلها إلى حيث تريد الذهاب. ما يهم هو إيجاد أقرب موقف للسيارات الأجرة. أقرب موقف في أقرب وقت ممكن بينما لا يزال جسدها قادرًا على الاستجابة، ولا يزال بإمكانها جر قدميها، قبل أن ينتهي مفعول الدواء ويتركها عالقة وحيدة وغير قادرة على الحركة في هذه المدينة الغريبة. وحيدة بلا جسد.

ماذا تفعل إذا كان جسدك لا يطيعك؟ تتساءل "إيلينا" وهي تجر قدميها في الاتجاه الذي أشار إليه بائع الصحف. ماذا يتبقى منك عندما يتعذر على ذراعك ارتداء سترة، ولا تستطيع قدمك حتى أن تخطو خطوة، ولا تستطيع رقبتك أن تستقيم بما يكفي للسماح لك بإظهار وجهك للعالم؟ ماذا يتبقى منك؟

هل ستصبح أنت عقلك الذي يستمر في إرسال الأوامر التي لن يتم تنفيذها، أم أنك الفكرة نفسها، شيء لا يمكن رؤيته أو لمسه يختفي وراء ذلك

العضو المجعد المحمي، مدفونًا داخل الجمجمة؟

لا تؤيد "إيلينا" فكرة أن الشخص دون جسد هو روح، لأنها لا تؤمن بالروح أو بالحياة الأبدية. رغم أنها لم تجرؤ على الاعتراف بذلك لأي شخص. وبالكاد اعترفت بذلك لنفسها، لأنها لم تعد قادرة على الكذب على نفسها. كان زوجها "أنطونيو"، كاثوليكيًا متدينًا، ولم يكن ليفهم، وفوق عدم فهمه كان سيشعر بالاستياء، لأنه بعد كل تلك السنوات من العمل في المدرسة الكاثوليكية، ليس فقط حارسًا لبيت الرب، ولكن أيضًا مدرس لعلم اللاهوت، يكتشف أن زوجته، والدة ابنته، لا تؤمن بالروح أو بالحياة الأبدية.

"إيلينا" تعرف الآن أنه كان سيقول عليها إنها حمقاء، لأن هذا ما قاله لها الأب "خوان" يوم جنازة ابنتها، وما سيقوله لها أو لأي شخص آخر يؤمن بأن الموت حالة نهائية، وليس هناك شيء آخر بعد حياتنا الأرضية. ربما لهذا السبب كانت "ريتا" متناقضة وباردة تجاه إيمانها. لأنها نشأت على يد أب كاثوليكي متحمس وأم تظاهرت بالإيمان. لهذا كانت "ريتا" ترتدي صليبًا حول رقبتها لكنها لا تحضر القداس إذا كانت السماء تمطر، لأنها تخاف من البرق أكثر من خوفها من الذنب المزدوج الذي ترتكبه بالكذب وعدم الذهاب إلى القداس. ولم تكن تعترف بكل ذنوبها، ببعضها فقط. ولا تصلي كل ليلة، وتقول: "هناك أيام لا يستحق فيها دعائي".

لكنها تزور سبع كنائس مختلفة فى يوم الجمعة العظيمة، وتصوم وتمتنع عن المعاصي، ليس فقط يوم الجمعة العظيمة، ولكن أيضًا أيام الخميس، وأربعاء الرماد، وكل جمعة من الصوم الكبير.

كانت ترتدي سراويل داخلية وردية جديدة في عيد الميلاد، رغم أنها تعلم أنه لا علاقة لذلك بمبادئ الكنيسة والأناجيل، وتشتري واحدًا لأمها أيضًا، لكن "إيلينا" دائمًا ما ينتهي بها الأمر باستبداله بآخر أسود.

- لماذا تعتقدين أنني سأرتدي سراويل وردية يا "ريتا"؟

- ما أهمية ذلك؟ لن يراها أي شخص غيري يا ماما.

لم تذهب أبدًا إلى الكنيسة وكتفاها مكشوفان. لا تقضم خبز القربان، وتصوم ساعة قبل أن تتناول القربان. وتصل دائمًا إلى القداس قبل قراءة صلوات قانون الإيمان المقدس حتى يتم احتسابه لها. كانت ترشم الصليب في كل مرة تمر فيها بالكنيسة. وكأن دينها يرتكز على الطقوس والفولكلور والتقاليد أكثر منه على العقيدة أو الإيمان.

كان لـ"ريتا" رب خاص بها، جمعته مثل اللغز بقواعدها الخاصة. كان لها إلهها وعقيدتها الخاصة. لكن "إيلينا" لم تفعل ذلك. إذًا لماذا لا تزال تلك

الكلمات التي ليست جزءًا من صلاتها تطفو داخل رأسها؟ لماذا لا تزال تفكر في السماء والجحيم، والقيامة، وقانون الإيمان، واغفر لي يا ربي، وأنا تائب، والندم، والخطيئة، وباسم الأب؟

مجرد كلمات دون رب أو عقيدة. وتعتقد أنه لا يوجد حتى جسد الآن، وهي تفكر في نفسها، وفي "ريتا" المدفونة تحت الأرض أيضًا. جثتان ميتتان: العلة، والمرأة الأخرى التي كانت بداخلها ذات يوم، تتغذى عليها، وتتنفس الهواء الذي تتنفسه، جسد من تراب تحول مرة أخرى إلى تراب كما جاء في الأناجيل. وجثة ابنتها. لو استطاعت فقط أن تؤمن بالروح والحياة الأبدية، وأننا جميعًا من التراب وإليه نعود.

لكن "إيلينا" تعرف أن التراب الوحيد الذي سنعود إليه، مرارًا وتكرارًا، هو التراب الذي يغطى حذاءها وهي تصعد إلى السيارة الأجرة وتقول للسائق: "استمر في السير في شارع 9 يوليو إلى ليبرتادور"، وتسير في "ليبرتادور" حتى يدخل إلى "فيجارو ألكورتا"، ثم إلى القبة السماوية، ويسارًا إلى النصب التذكاري الإسباني، ثم تأخذ شارع "ليبرتادور" مرة أخرى إلى "أوبيروس".

ورغم أنها لا تعطيه العنوان بدقة، فإن سائق السيارة الأجرة يعرف إلى أين سيذهب، أو على الأقل يعرف ما يكفي، لأنه دون طرح أي أسئلة، يتكئ على مقعد الراكب المجاور له، وبحركات خرقاء مثل حركاتها، يقوم بتشغيل العداد ويضع شيئًا ما بعيدًا في لوحة قيادة السيارة. **"إيلينا" تعرف** ذلك رغم أنها لا تستطيع رؤيته، لأنها تسمعه يتحرك، ولأن رؤيتها أصبحت مظلمة فجأة مثل سحابة مرت أمام الشمس وهي تسطع من خلال الزجاج الأمامي للسيارة.

جلس الرجل في مقعده مستعدًا للانطلاق بالسيارة لكنه توقف في الوقت المناسب. رأى في مرآة الرؤية الخلفية أن الباب الخلفي لا يزال مفتوحًا. كانت "إيلينا" قد انتهت لتوها من تثبيت حقيبة يدها في حجرها، لكنها لم تغلق الباب بعد. وضعت إحدى ساقيها بالداخل، وتجعد بساط الأرضية الورقي الذي وضعته مغسلة السيارات، التي أخذ السائق سيارته الأجرة إليها. لم تستطع إدخال الساق الأخرى بعد. لم تكن قادرة على تحريكها. وجهت ركبتها إلى الخارج، وساقها تحوم في الهواء في انتظار "إيلينا" أن تمسكها بكلتا يديها لتضعها على أرضية السيارة. قال الرجل بنفاد صبر: - هل تحتاجين مساعدة؟

- لا، هذا ليس ضروريًا.

تقوم "إيلينا"، تستند على ساقها الموجودة بالفعل بالداخل لترفع الأخرى إلى الداخل، وتلفها بزاوية قائمة مثل الباب الدوار، ثم تضغط بقوة على فخذها حتى تصطدم قدمها بالأرض، فتعرف أنها دخلت في السيارة. يسأل سائق السيارة الأجرة ما إذا كانت جاهزة. تتمدد قليلًا، وتمسك بالمقبض

وتسحب الباب نحو جسدها بكل قوتها، كما لو كان الحبل الذي اعتادت أن تستخدمه للوقوف كل صباح. تقول "إيلينا": - جاهزة، هيا بنا.

تتخيل سائق السيارة الأجرة ينظر إليها في مرآة الرؤية الخلفية، وينظر إلى جذور شعرها الذي يغزوه الشيب ونقاط صغيرة من قشرة الرأس، التي اشتكت "ريتا" منها كثيرًا، **"استعملي شامبو قشرة الرأس يا ماما".**

تبذل جهدًا لرفع رأسها وهي محرجة لتنظر إليه. لكن الوقت توقف، وقت "إيلينا" توقف. ليس هناك مزيد من مادة الـ"ليفودوبا" لمساعدتها على الحركة. لا شيء.

"إيلينا" تعرف. تعرف أن أمامها بضع دقائق من الانتظار حتى تتمكن من تناول الحبة التالية، ثم الوقت الذي يستغرقه الدواء ليذوب ويبدأ في التحرك عبر جسدها. وقت الانتظار، ذلك الوقت الذي يُقاس دون ساعات، تمضي الوقت برفقة صلاتها. تتلو صلاتها عن العلة والمرسال والملك المخلوع والإمبراطور العاري وأسماء الشوارع بين بيتها والمحطة والشوارع الأخرى التي ما زالت تنتظرها. محطات القطار التي مرت بها، "ليفودوبا" والـ"دوبامين"، العضلة، ثم العلة مرة أخرى، الملك، الملك المخلوع من عرشه دون تاج، عارٍ.

تتحرك السيارة، وتشعر "إيلينا" بالامتنان لوجود شخص ما يقودها من أجلها.

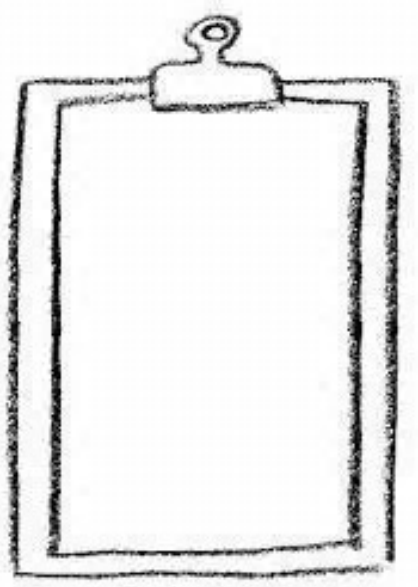

4

- أضف المرأتين اللتين تعملان في مكتب شركة التأمين الصحي إلى قائمة المشتبه بهم أيها المحقق "أفييانيذا".

- هل تعتقدين حقًا أن هذا ضروري يا "إيلينا"؟

سألها الضابط وهو يجلس بجانبها على الجذر المنحني لشجرة "أومبو" في الميدان. كان ذلك بعد أن توقفا عن الاجتماع في مركز الشرطة، بعد أن قال له رئيسه منذ أيام قليلة: - لقد فعلنا أكثر مما هو ممكن إنسانيًا لهذه المرأة يا "أفييانيذا"، وبدأ الناس في الحي يثرثرون.

- ماذا يقولون أيها الرئيس؟

- يقولون إننا نأخذ المال منها، يا "أفييانيذا". الرعاع! كيف يظنون أننا سنفعل ذلك مع سيدة عجوز؟ هذه هي الطريقة التي تعمل بها عقولهم.

لكن الضابط لم يكن لديه الجرأة ليقول لها ألا تعود مرة أخرى. ليس من أجلها فقط، ولكن من أجله هو أيضًا. فقد أصبح الاجتماع مع "إيلينا" المهمة التي يستمتع بها أكثر من غيرها، مثل عمل روتيني تقوم به على مضض ثم ينتهي بك الأمر وقد أصبح طقسًا مهمًا. فوجئ "أفييانيذا" بأنه يتطلع إلى اجتماعاتهما، رغم أن ما يستطيع فعله من أجل هذه المرأة قليل للغاية. اختلق عذرًا: - إنهم يطلون مكتبي، سترين كيف سيبدو جميلًا يا "إيلينا".

لم تصدقه "إيلينا"، لكنها ذهبت لمقابلته في الميدان على أي حال، وتحدثت معه هناك كما لو كانت تصدق كذبه. أصرت "إيلينا" قائلة: - لقد عاملت "ريتا" هاتين الفتاتين في مكتب شركة التأمين الصحي معاملة سيئة للغاية.

- حسنًا يا "إيلينا"، هذا لا يبدو دافعًا كافيًا.

- أقول لك جديًا، عاملتهما بشكل سيئ للغاية، هل تفهمنى أيها المحقق؟

- أنا أفهمك، لكنك لا تقتلين كل شخص يعاملك معاملة سيئة، إذا كان الأمر كذلك، فكم منا سيبقى بقيد الحياة؟ سأرغب في قتل أكثر من رئيس لي، وليس في الشرطة فقط، وفي موقع البناء أيضًا، كنت عامل بناء قبل هذا يا "إيلينا"، هل أخبرتك بذلك؟

- لا، لم تفعل.

قال الضابط: - وأخي، كنت سأقتل أخي أولًا ثم رؤسائي، وسيضطر أخي لقتل حماه، وستضطر زوجة أخي لقتل والدتي. ورغم أنني أعزب، فإنني لست متأكدًا من أنني سأظل بقيد الحياة.

أكدت له: - ستبقى بقيد الحياة أيها المحقق، أنت تبدو شخصًا طيبًا.

- لا تخدعك المظاهر يا "إيلينا"، يمكن أن يكون الزي الرسمي خادعًا.

- لا تكن سخيفًا أيها المحقق.

قالت "إيلينا" ضاحكة: - هذا الزي الرسمي لا يساعدك كثيرًا.

- أنت طيبة يا "إيلينا".

لكن "إيلينا" هزت رأسها نافية: - أنت تقول ذلك لأنك لم ترني أبدًا أتشاجر مع "ريتا".

- سأضيفك إلى القائمة إذًا.

قالها الضابط، في محاولة للفكاهة، ولكن في اللحظة التي خرجت فيها الكلمات من فمه، أدرك أن ما قاله كان غبيًا وغير مناسب. أجابت: - لِمَ لا، أيها المحقق؟ عليك أن تحقق مع الجميع، سأكون سعيدة إذا فعلت ذلك، حتى لو بدأت معي.

أصبحت تعاملات "ريتا" مع الموظفات في مكتب التأمين الصحي متوترة بشكل متزايد مع تفاقم مرض "إيلينا" وتزايد المصاريف التي يجب تعويضها. شهدت "إيلينا" عديدًا من الأمثلة على سوء المعاملة المتبادل. سوء معاملة ابنتها الفاضح لوكلاء التأمين وسوء معاملتهم لها، ولكن بطريقة مهذبة ومتخفية وراء أصواتهم الناعمة المدربة خصيصًا في المكتب الرئيسي. لم تساعد نبرة أصواتهن الهادئة كثيرًا، فقد كانت "ريتا" تغضب دائمًا من الأشخاص الذين يتحدثون بهدوء.

- أنا لا أثق بهن يا ماما.

قالوا إنها وصلت إلى الحد الأقصى من النفقات المخصصة للعلاج الطبيعي، وأن الوصفة الطبية قالت خمسمائة، لكن التأمين يغطي ثلاثمائة فقط: - ثلاثمائة ماذا؟ حبة دواء.

يقولون إن العلامة التجارية العامة التي وصفها الطبيب لا تتطابق مع الدواء الذي طلبه، أو أن العلاج لم يكن مشمولًا في خطة التأمين الصحي التي سددتها "ريتا" بانتظام شديد لهما لمدة عشرين عامًا. تسألها الموظفة: - هل حاولت الحصول على التعويض من الخدمة الطبية العامة، "برنامج الرعاية الطبية الشامل"؟

لم تحاولا مع "برنامج الرعاية الطبية الشامل"، فقد تجنبتا كل ذكر لهذه الهيئة منذ أن انتظرتا أكثر من ساعة سيارة الإسعاف الخاصة بهم لمساعدة "أنطونيو"، الذي كان يحتضر إثر إصابته بنوبة قلبية، على أرضية المطبخ في

المنزل الذي تعيش فيه "إيلينا" الآن بمفردها، فقط لتصل الإسعاف أخيرًا بعد خمس دقائق من وفاته.

علت صفارات الإنذار في الشارع، واقتربت أكثر فأكثر من المنزل، لكن "إيلينا" كانت تعلم أنها بلا فائدة. لقد حاولتا فعلًا مع ما كان يُسمى سابقًا بـ"هيئة المعوقين"، التي ما زالت الأم والابنة تطلقان عليها الاسم نفسه، الذي تم تغييره منذ سنوات لتجنب الإساءة إلى أي شخص، ولكن الاسم الجديد صعب في قوله.

- توجهي إلى "برنامج الرعاية الطبية الشامل" بشارع "رامزي" يا "ريتا"، واحصلي على شهادة إعاقة، والتي من شأنها أن تبسط الأمور عليك كثيرًا.

هكذا أخبرتها إحدى الفتيات في مكتب شركة التأمين عندما بدأت نفقات العلاج تتضاعف بشكل فلكي. لكن "ريتا" لم ترَ حاجة لذلك: - ما الفائدة من ذلك؟

- حسنًا، على سبيل المثال، في كل مرة تقدمين فيها طلبًا للعلاج الطبيعي، يجب أن أحصل لكِ على موافقة من مراجع الحسابات في المكتب الرئيسي. وهذا يستغرق وقتًا، وفي حالة موافقتهم على ذلك، يجب أن أخصمه من حصتك المخصصة، فتنتهي حصة علاجك الطبيعي، هل تفهمين؟

- لا، لا أفهم.

- اسمحي لي أن أوضح لك، بشهادة الإعاقة لن يصبح لديك حدٌ في العلاج، وكل شيء سيكون أسرع بكثير.

- وماذا سيكون الحد التالي في العلاج بعد ذلك؟ ولماذا يجب أن أذهب إلى مكان ما لآتي بشهادة تثبت أن والدتي معاقة؟ هل أنتِ عمياء؟

تخفض الفتاة بصرها. تقول "ريتا" للموظفة: - انظري إليها، أتحداك. ما رأيك؟

تنظر الموظفة بعيدًا ولا تجيب، فتقول لها "ريتا": - أليس هذا كافيًا؟

- هذا ليس من أجلي، أنا أعرف والدتك جيدًا الآن، أحتاج إلى الشهادة من أجل..

لكن "ريتا" قاطعتها قبل أن تنتهي: - هل تعتقدين حقًا أنها بحاجة إلى شهادة تقول إنها معاقة؟ لماذا تطلبون إثبات ما هو واضح جدًا؟

- إنها من أجل المكتب الرئيسي، يحتاجون إلى هذه الورقة.

- وأنت غير قادرة على إخبارهم بذلك.

- حتى لو قلت لهم، لا، سيطلبون ذلك على أي حال.

- لا يكفي أن تخبريهم، ولا يكفي تقديم التقرير الطبي الخاص بها، ولا تكفي رسالة طبيبها؟

- هذه هي القواعد.

- أخبريهم أنني سأذهب بها إليهم، وأستعرضها أمام أي شخص لا يصدقنا، حتى يتمكنوا جميعًا من رؤيتها، لكن لا يمكنك أن تجعلي والدتي تعاني أكثر مع هذه البيروقراطية.

لم تغير أي من توسلاتهما الأوراق التي يطلبها المكتب الرئيسي. وذهبتا إلى شارع "رامزي" بعد أربعة عشر شهرًا.

- هل حقًا ستعطينني موعدًا في العام المقبل؟

هكذا سألت "ريتا" السكرتيرة في مكتب الاستقبال فيما كان يُعرف باسم "هيئة المعوقين"، الذي فوجئت بأنه قصر قديم كبير محاط بالأشجار.

- ألا توجد مواعيد مبكرة عن ذلك؟

- هناك كثير من الناس الذين يحتاجون إلى الشهادة نفسها.

- حسنًا، أتمنى أن يظل هؤلاء الأشخاص على قيد الحياة بعد أربعة عشر شهرًا من الآن.

عندما جاء اليوم المحدد أخيرًا، طلب "روبرتو ألمادا" من البنك يوم إجازة وإقراضه سيارة.

- هل من الضروري حقًا أن نزعج هذا الرجل يا "ريتا"؟ أخبريه أنه لا يحتاج إلى أن يزعج نفسه من أجلي.

- إنه يفعل ذلك من أجلي، وليس من أجلك يا ماما.

وصلوا إلى هناك في الوقت المحدد، كلتا المرأتين في حالة مزاجية سيئة، وخاصة "ريتا"، التي كانت متأكدة من أنه ستحدث بعض المشكلات. تتوقع حدوث أي مشكلة صغيرة والتي قد تعني أنها ستعود مرة أخرى؛ ورقة ناقصة، توقيع، ختم، بعض المتطلبات الصغيرة التي عند اكتشاف عدم وجودها تصبح فجأة ذات أهمية قصوى.

لكن هذا لم يحدث. انتظروا بعض الوقت، ثم أخبرت "إيلينا" "ريتا" أنها تفضل أن ينتظر "روبرتو" في السيارة: - لا نريدهم أن يعتقدوا أنه هنا للحصول على شهادة إعاقة يا "ريتا".

ولكن "ريتا"، رغم غضبها من تعليق والدتها، فلا بد وأنها كانت لديها المخاوف نفسها، لأنها أرسلته لينتظر في الخارج دون أي جدال. جلستا في غرفة الانتظار محاطتين بأشخاص آخرين يسعون للحصول على الشهادة نفسها. كان هناك زوجان يمسكان بأيدي بعضهما ويتناوبان احتضان طفلهما المصاب بمتلازمة "داون"، وأم مسنة تسحب ابنتها التي غطت وجهها بحقيبة يدها وكأنها ممثلة مشهورة لا تريد أن يصورها أحد، ورجل على كرسي متحرك فقد كلتا ساقيه.

استرقت "إيلينا" النظر إليهم، وألفت لهم قصصًا بناءً على الأحذية التي يرتدونها، وحركة أقدامهم، إذا كانوا قادرين على تحريكها، أو من سكونهم، وعندما لم تستطع جمع ما يكفي من المعلومات مما هي قادرة على رؤيته أو ما كان خيالها قادرًا على ابتكاره، سألت "ريتا" عنهم: - اصمتي يا ماما، هل تودين أن يتحدث الناس عنكِ هكذا؟

كانت هناك منحدرات للكراسي المتحركة في كل مكان، وجميع المكاتب عليها لافتات تُظهر اسم الشخص الذي ستجده بالداخل ولقبه. على الجدران ملصقات عليها تعليمات خطوة بخطوة عن كيفية إتمام الإجراءات.

على أي حال، لم تنتظرا طويلًا على الإطلاق قبل أن تراهما الطبيبة، وفي خلال ثلاث دقائق بحثت في الملف الذي يحتوي على نسخ من بطاقة هوية "إيلينا"، وبطاقة التأمين الصحي، وآخر إيصال بمعاشها، والتقرير الطبي الذي نسخته لهما سكرتيرة دكتور "بينيجاس"، ونماذج مكتملة وموقعة، ثم دون أن تنظر إلى "إيلينا"، وقعت على الشهادة التي ستقول من الآن فصاعدًا لأي شخص أن "إيلينا" معاقة. كتبت على الشهادة: "باركنسون".

سألتها "ريتا" عندما أعطتها الطبيبة الورقة.

- هل هذا كل شيء؟

- نعم، هذا كل شيء.

وأضافت الطبيبة: - حالة والدتك واضحة جدًا ولا تترك مجالًا للشك.

- إنهم دائمًا يجعلوننا نواجه كثيرًا من الصعوبات أيتها الطبيبة.

- هنا؟

- لا ليس هنا، ولكن شركة التأمين والمستشفيات.

وافقت الطبيبة: - نعم. يريدونك أن تتعبي وتستسلمي، لا تدعيهم يفوزون.

قالت "ريتا": - لن أفعل أيتها الطبيبة، لا تقلقي.

- قبل أن تغادري، لا تنسي أنه يمكنك الحصول على ملصق لسيارتك، ويمكن لمستشارنا القانوني الإجابة على أي أسئلة أخرى قد تكون لديك.

لم تكن لديهما سيارة، لذلك لم تكونا بحاجة إلى تصريح وقوف للسيارات أو إعفاء من رسوم ترخيص السيارة، لكنهما ذهبتا لمقابلة المستشار. تقاسمتا الغرفة مع الزوجين اللذين أنجبا طفلًا مصابًا بمتلازمة "داون"، وفتاة جاءت برفقة فتاة أخرى كفيفة. أخبرهم المحامي أن أول شيء يجب عليهم فعله هو تغليف الشهادات الخاصة بهم، وإبقائها مقفولًا عليها ومحمية.

- بالتأكيد لا تريدون المرور بكل هذا الروتين مرة أخرى.

فكرت "إيلينا" أنه، رغم أنها لا تستطيع رؤية وجهه، فإن هذا المستشار القانوني لا بد أن يكون رجلًا وسيمًا ولطيفًا أيضًا، لأنه قلق عليها وعلى الوقت الذي قضته في هذه الإجراءات.

قال المستشار القانوني إن الذين يريدون ملصقًا للسيارات والإعفاء من رسوم الترخيص يمكنهم التقديم اليوم. كانت "إيلينا" تعلم أنه ينظر إلى الجميع، رغم أنها لا تستطيع الرؤية تمامًا مثل الفتاة الكفيفة، التي لا تستطيع ذلك أيضًا.

- يحمي القانون رقم 22، 431 حقوقكم، وهذه هي أرقام التليفونات التي يمكنكم الاتصال بها إذا كان لديكم أي أسئلة.

أضاف مشيرًا إلى سطر في نموذج الشهادة الذي في يده، وقام بعد ذلك بوضع دائرة بالقلم الأزرق لكل منهم في شهادته.

- وأهم شيء يجب أن أقوله لكم هو أنه من الآن فصاعدًا، لا أحد في أي شركة تأمين صحي أو أي مستشفى يمكنه فرض رسوم عليكم، أو رفض تعويض أدويتكم أو العلاج الذي تحتاجونه للإعاقات التي تعانون منها، فمن اليوم، الدولة هي التي تغطي هذه النفقات، وليس أنتم.

أوضحت هذه الجملة سبب أن شركة التأمين الصحي لم تكتفِ بالنظر إلى "إيلينا" فقط لمعرفة إعاقتها، وفقًا لسياسة الدفع عند الاستلام.

صافح المحامي كل واحد منهم، أخفت "إيلينا" منديلها المبتل داخل كم سترتها ومدت يدها هي أيضًا. كانت تود أن تجلس قليلًا بينما تمسك بهذه اليد القوية الناعمة، لكن "ريتا" دفعتها للخارج، قائلة: - دعينا نذهب يا ماما، على الاستشاري أن يصافح الجميع.

سحبتها من كتفها وقادتها إلى الخارج. في أثناء مغادرتهما، نادى الاستشاري على الزوجين والدي الطفل: - ابقيا للحظة، أريد التحدث إليكما.

- إنه لطيف، أخبرتك أنه لطيف.

هكذا قالت لـ"ريتا"، لكنها سبقتها بخطوات عديدة ولم تسمعها. خرجت "إيلينا" إلى شارع "رامزي" وهي تبكي، وعندما ركبت سيارة "روبرتو ألمادا"، سألها: - ما بكِ يا "إيلينا"؟ لماذا تبكين؟

- لقد عاملوني بلطف.

هكذا أجابته ولم تستطع قول أي شيء آخر.

بعد حصولها على شهادة الإعاقة، أصبحت المشاجرات مع الفتيات في مكتب التأمين أقل، ولم يعد بإمكانهن رفض كل شيء بعد الآن لأن شخصًا آخر كان يدفع الحساب، وهذا يعني أن "ريتا" لديها أسباب أقل للشجار معهن. حتى ظهر ذلك اليوم عندما طلبت منهن الموافقة على علبتي دواء "مادوبار". كان الدكتور "بينيجاس" على وشك الذهاب لحضور مؤتمر ولم يرد أن تنفد الأدوية من "إيلينا". سلمت الوصفة الطبية للفتاة التي كانت تساعدها عادة.

- لا تنص هذه الوصفة على أن العلاج مستمر.

- إذًا؟

- إذًا، لا يمكنني الموافقة على علبتين من الدواء إذا لم يُذكر أن العلاج مستمر.

- الوصفة تقول علبتين.

- نعم، يوجد مربعان، ولكنه لم يُحدد أن العلاج مستمر.

- لا يوجد شفاء من مرض "باركنسون"، فكيف لا يكون مستمرًا؟

- عليكِ أن تطلبي من الطبيب أن يكتب علاجًا مستمرًا بهذه الكلمات بالضبط.

- يمكنك كتابة تلك الكلمات بالضبط، على مؤخرتك!

- أنا أقوم بعملي فقط.

- الطاعة ليست عذرًا، إذا أعطاك رئيسك أمرًا غبيًا وأنت تطيعينه، فذلك يعني أنك غبية أيضًا، ويؤسفني أن أبلغك أن الغباء يتطلب أيضًا علاجًا مستمرًا، حتى لو لم يكتبه أحدهم لك بهذه الكلمات بالضبط.

خطفت "ريتا" الوصفة الطبية من يد الفتاة وغادرت المكتب على عجل لدرجة أنها تركت والدتها جالسة في غرفة الانتظار. لم تجرؤ أي من الفتيات على قول أي شيء. جلسن هناك فقط خلف المكتب، أمامهن "إيلينا"، منحنية،

ورأسها لأسفل، ولعابها يسيل على القميص الذي اشترته بآخر معاش لها. تخيلت "إيلينا" أن فتيات شركة التأمين لا بد وأنهن غير مرتاحات لجلوسها هناك، أمام مكاتبهن، لذا حاولت الوقوف لكنها لم تستطع. رن جرس التليفون ولم يرد عليه أي من الموظفين. بدأت "إيلينا" في الاندفاع إلى الأمام والخلف، وبكثير من الجهد استطاعت الوقوف، ممسكة بذراعي الكرسي. لكن الكرسي بدأ ينزلق من تحتها و"إيلينا" تنزلق معه، تحركت إحداهن وركضت لتلحق بها قبل أن تسقط. في تلك اللحظة، انفتح الباب ودخلت "ريتا" وقالت: - إياك أن تلمسيها.

تركتها الموظفة، وتمايلت "إيلينا" مرة أخرى. أمرتها ابنتها: - دعينا نذهب.

أجابت "إيلينا": - أتمنى لو أستطيع ذلك.

5

تركت "إيلينا" السائق يقودها. قررت أن تأخذ دواءها في وقت أبكر. تعرف أنه يمكنها ذلك، حتى لو أن علتها - تلك العاهرة اللعينة - قد لا تحب ذلك، يمكن لـ"إيلينا" أن تتلاعب في وقتها بالحبوب، رغم أنها بالكاد يمكنها أن تفعل ذلك.

تفتح حقيبة يدها وتفتش بداخلها، وتخرج شطيرة الجبن التي كانت قد حزمتها قبل أن تغادر المنزل، تعرف أن حبة الدواء يسهل ابتلاعها عندما تختلط مع الفتات المبللة، ولهذا السبب تحمل الخبز والجبن في حقيبتها، بجانب محفظتها ومفاتيحها. تمضغ، تبتلع، تسقط بعض الفتات على أرضية السيارة وتحاول "إيلينا" تغطيتها بالبساط الورقي قبل أن يلاحظها السائق.

عندما تنتهي من المضغ، تفتح حقيبة يدها مرة أخرى، وتجد علبة حبوب الدواء وعلبة العصير، تنزع الماصة من غلافها، وتمسك بالحبة، مضغوطة بإحكام بين إبهامها وسبابتها، وتضعها داخل فمها بقدر ما تستطيع. تمسكها بلسانها حتى لا تقع. تطعن علبة العصير بالماصة الصغيرة وتشرب. لم تنزل حبة الدواء لحلقها ولم تتجاوز اللوزتين. تأخذ رشفة أخرى. يتحدث إليها سائق السيارة الأجرة، تتجاهله، تتنفس بعمق من أنفها حتى لا تختنق. يفاجئها صوت بوق السيارة. يضغط السائق البوق مرة أخرى صائحًا: - أحمق!

لو تمكنت "إيلينا" من رؤية ذلك لعرفت أنه يشير إلى الرجل الذي لم يعبر الطريق إلى الجانب الآخر بسرعة كافية قبل أن يتغير ضوء إشارة المرور.

- وإذا دهسته، سأضطر لدفع ثمن أنني على حق.

تأخذ "إيلينا" رشفة أخرى، تضغط على العلبة ليخرج العصير بشكل أسرع، ورغم أن الحبة لا تتحرك، فإنها تبدأ في الذوبان مع السائل. إذا تمكنت فقط من إمالة رأسها إلى الخلف قليلًا، فستكون قادرة على ابتلاعها، لكنها لا تستطيع، لا يسمح لها جسدها بهذه الهزة البسيطة للرأس التي يفعلها أي شخص آخر لابتلاع حبة أسبرين. مالت إلى جانبها على المقعد، تنزلق مائلة لأسفل لتساعد حبة الدواء على النزول إلى معدتها، وتنجح هذه المرة، تنزل الحبة وهي تكشط حلقها وتختفي.

تشعر بالارتياح، تميل "إيلينا" لتسقط على ذراعها، وتمسك بعلبة العصير بقوة حتى لا تنسكب، تستلقي على جانبها على مقعد السيارة. تنتظر. يتقدم شخص ما أمام السيارة ويحاول تنظيف الزجاج الأمامي. تستطيع "إيلينا" رؤية الممسحة من خلال الفراغ بين المقعدين، لكن السائق يطلق بوقه مرارًا، حتى تمسح اليد سائل التنظيف الذي تناثر على الزجاج الأمامي وتختفي.

لا تستطيع "إيلينا" رؤية صاحب اليد، ربما كانت يد طفل لأنها يد صغيرة، ولم تكن مجعدة، لكن هذه مجرد تخمينات، فمن موقعها هذا لا يمكنها أن تكون متأكدة سوى مما تراه في السقف المتسخ لسيارة الأجرة التي تركبها. قال السائق: - يا لهم من حيوانات!

"إيلينا" ليس لديها الشجاعة لتسأل عمن يتحدث الرجل، لذلك ظلت صامتة، تحاول تحريك ذراعها التي ترقد عليها حتى لا تتخدر تحت ثقل جسدها، تمكنت من نقل وزنها وشعرت بالفخر لانتصارها الصغير على علتها.

قام السائق بتشغيل الراديو وأملت أن يمنعه هذا من الحديث، لكنها كانت مخطئة، لأن مذيع الراديو أزعج سائق السيارة الأجرة. بدأ السائق في الصياح بكثير من الحماسة والغضب والإيماءات التي تؤكد غضبه: - هذا هو الأمر بالضبط.

يتفق مع مذيع الراديو، يبحث عن "إيلينا" في مرآة الرؤية الخلفية.

- هل أسقطتِ شيئًا؟

- لقد أسقطتُ نفسي.

هكذا أجابت "إيلينا".

- هل أنتِ بخير؟

ردت "إيلينا" من موقعها المائل على المقعد: - أنا بخير، أنا بخير.

- هل تحتاجين مساعدة؟

- لا، لا، لقد تناولت دوائي بالفعل.

- هل تريدنني أن أتوقف؟

- لا، أريدك أن تستمر في القيادة.

- أنت لست على وشك الارتجاع، أليس كذلك؟

- ارتجاع ماذا؟

- التقيؤ يا سيدتي.

- بالطبع لا يا سيدي، أنا مريضة، هذا كل شيء.

- ما مرضك؟

قالت "إيلينا": - مريضة بـ"باركنسون".

كرر الرجل: - أوه، "باركنسون". أخبروني ذات مرة أنني قد أكون مصابًا به، لكن لا، لقد كانت الخمر، هذا الارتجاف الذي أصاب به كان بسبب شرب الخمر، أحب الشراب.

قالت "إيلينا": - أوه، كم هذا لطيف!

- لكن زوجتي أعطتني إنذارًا نهائيًا؛ إما أن أتوقف عن الشرب، وإما تطردني خارج المنزل، هكذا حال النساء، في النهاية يعتقدن أنهن المتحكمات، ونتركهن يعتقدن ذلك، على أي حال لا أشرب عندما أعمل، تقريبًا لا أشرب أبدًا عندما أعمل، لكني أحب الشراب، فماذا أفعل؟

"إيلينا" لا تعرف ما إذا كانت تحب الشراب، لأنها لا تشرب أبدًا. تفكر في النبيذ الذي لا تشربه وهي تراقب عنكبوتًا يمشي على سقف السيارة الأجرة من جانب إلى آخر.

تعتقد "إيلينا" أنه كان يجب عليها أن تثمل مرة واحدة على الأقل في حياتها، وأن تتعلم القيادة، وتلبس الـ"بيكيني". وعشيق، كان يجب أن يكون لديها عشيق، لأن الجنس الوحيد الذي تعرفه هو الجنس الذي مارسته مع "أنطونيو"، وكان مصدر فخر لها أن تكون لرجل واحد فقط، ولكن اليوم وهي عجوز، منحنية، مستلقية على ذراعها، وتعلم أنها لن تمارس الجنس مرة أخرى، لا تشعر "إيلينا" بالفخر، تشعر بشيء آخر، ليس الحزن، وليس الغضب، إنها تشعر بعاطفة لا تعرف لها اسمًا، كما تشعر عندما تدرك أنك كنت أحمق.

أن تحتفظ بعذريتها، لمن؟ أن تكون مخلصة، لماذا؟ أن تعيش دون ممارسة الجنس بعد أن أصبحت أرملة على أمل أن يحدث ماذا؟ مؤمنة بماذا؟ العذرية أو الإخلاص أو عدم ممارسة الجنس لا تعني شيئًا الآن وهي مستلقية على المقعد الخلفي لسيارة أجرة. لن تمارس الجنس. تتساءل عما إذا كان يمكنها حتى ممارسة الجنس إذا أرادت ذلك. تتساءل لماذا لا تريد ذلك؟ هل بسبب "باركنسون"، أم لأنها أرملة، أم سنها، أم لأنها فقدت لياقتها في الممارسة بعد فترة طويلة من دون حتى التفكير في الأمر؟

تتساءل عما إذا كانت المرأة المصابة بمرض "باركنسون" التي تريد ممارسة الجنس قادرة على ذلك؟ تضحك وهي تتخيل نفسها تطرح السؤال على الدكتور "بينيجاس" في موعدها التالي. والرجل المصاب بمرض "باركنسون"، هل يمكن لرجل مصاب بمرض "باركنسون" أن يمارس الجنس؟ هل يمكنه إدخال قضيبه في امرأة؟ تعتقد أن الأمر سيكون أصعب على الرجل، لأنه لن يكتفي بالاستلقاء وترك الأمر يحدث له. هل يضطر رجل مريض مثلها إلى أن يحدد وقت ممارسة الجنس بأوقات تناوله لحبوب الدواء؟

تشعر بالأسف على هذا الرجل المجهول، تتعاطف معه، وتشعر بالسعادة لأنها ليست رجلًا.

يبدأ الراديو في إذاعة أغنية عاطفية، ويدندن معها سائق سيارة الأجرة. أغنية "قبِّلني كثيرًا" Bésame muchoتصدح الأغنية والسائق يردد معها: - كما لو كانت هذه الليلة هي المرة الأخيرة..

ثم يدرك أنه لا يعرف أي كلمات أخرى، لذا يهمهم مع الأغنية. ثم يبدأ الحديث مرة أخرى عن النبيذ والشراب.

- ستطردني زوجتي إذا واصلت الشراب.

كان آخر مشروب كحولي شربته "إيلينا" نبيذًا فوارًا بنكهة الفراولة أحضره "روبرتو ألمادا" في المرة الأولى التي جاء فيها لتناول العشاء. كان هذا العشاء بمثابة "التعارف الرسمي"، رغم أنهما كانا يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد.

- من كان يظن أن الأحدب الصغير سينتهي به الأمر إلى أن يصبح من العائلة، هه يا "ريتا"؟

- لا تسميه بالأحدب.

- إنه ليس مصطلحًا مسيئًا.

- بالطبع هو مسيء يا ماما.

- هل تريدين أن تعرفي ما إذا كان سيشعر بالاستياء عندما أناديه به؟

وحدت قناعات "روبرتو" و"ريتا" بينهما أكثر من أي شيء آخر، كان لكليهما تلك الطريقة الخاصة التي يعبران بها وهما يستخدمان أكثر المفاهيم شمولًا وتعسفًا وابتذالًا وكأنها حقائق مطلقة. قناعات حول الطريقة التي يجب أن يجرب بها المرء شيئًا لم يجرباه بنفسيهما من قبل، وكيف يجب أن يسير الناس في حياتهم بالطريقة نفسها التي جرباها أو حتى تلك التي لم يجرباها، ويقومان بإصدار القرارات حول ما يجب وما لا يجب فعله.

كان خوفهما من الكنائس هو أول وأعمق رابط بينهما، والذي ختماه بالنار في ميثاق سري جمعهما معًا. وفي حالة "روبرتو"، لم يقتصر الرعب على الأيام الممطرة فقط، بل كان يخاف الكنيسة في جميع الظروف المناخية. عانى هذه المشكلة منذ أن كان صغيرًا، في "ليما".

كانت والدته، "مارتا" أو "ميمي"، كما بدأت تسمي نفسها بعد عودتها من بيرو، قد أخذت الصبي معها عندما رحلت وراء صديقها راقص التانجو - الذي لم يكن والد "روبرتو" - إلى هناك. كان الراقص يقدم حفلًا مجانيًا في النادي الرياضي، حيث كانت تعمل نادلة في البار أيام الآحاد وأيام العطلات الرسمية.

- كان عليها أن تأخذه معها، من كان سيأخذه؟ كانت حدبته واضحة حتى وهو طفل.

- هذا يكفي يا ماما.

وهناك في بيرو بعد فترة قصيرة، ضاق راقص التانجو بكليهما وطردهما دون أي نقود في بلد لم يكن لهما به أي صلة، غير شعور والدته بالشبق.

تعلمت "مارتا" تصفيف الشعر، كانت تقوم بتجميل الأظافر فقط قبل ذلك، واستأجرت غرفة في حي "بارانكو" من زميلة لها في مدرسة التجميل، حيث علموها كيف تصفف الشعر وتقصه وتصبغه. كان من المنطقي أن يعودا إلى بلدهما بعد ذلك، لكنها لم تكن على استعداد للاعتراف بفشلها، والعودة بعد فترة قصيرة ستجعل الأمر أكثر وضوحًا للجميع.

لذلك رغم أنها بالكاد تستطيع أن تكسب ما يكفي لإطعام ابنها في بيرو، بقيت هناك في تلك المدينة المغلفة بالغيوم على الدوام حيث لا تمطر أبدًا، والمطلة على المحيط الذي يذكرهم يوميًا بمدى صغر حجمهم. مرت السنوات بسرعة والصبي يكبر ومعه حدبته، وبينما اصطحب أصدقاؤه الفتيات إلى جسر التنهدات ليهمسوا لهن بأكاذيب الحب الأبدي، ذهب وحده إلى الجسر نفسه كل يومين، لينظر إلى أعلى، إلى كنيسة "الناسك"، التي يقولون إن الجرس قد سقط منها خلال أحد الزلازل وحطم رأس كاهن. ويشير من يروي القصة إلى بقعة ما يختارها عشوائيًا على الرصيف، حيث أتلفت آثار رأس الكاهن المهشمة الأرض إلى الأبد.

- إذا أسأت التصرف فسيأخذك الكاهن مقطوع الرأس.

كما كانت تقول له السيدة العجوز التي ترعاه، بينما كانت والدته تذهب إلى العمل أو تفعل أيًا كان ما تفعله. كبر "روبرتو" مرعوبًا، ليس من الكاهن، لأنه لم يعرف حتى كيف يسيء التصرف، بل خائف من الأجراس، ويحسب باستمرار احتمال سقوط الجرس على شخص آخر وقتله، ويقف دائمًا بعيدًا بما يكفي للتأكد من أنه لن يكون الضحية التالية مقطوعة الرأس. لم يستفد "روبرتو" كثيرًا من أنه لم يتم تسجيل أي زلزال مطلقًا في جميع أنحاء بوينس آيرس الكبرى، فهو لا يزال لا يريد الاقتراب من أي كنيسة.

"إيلينا" تعرف أنه لهذا السبب، لا يستطيع "روبرتو" قتل "ريتا" وتعليقها من الجرس، لأنه بصرف النظر عن أنه لم يكن ندًا لـ"ريتا"، فلأنها أقوى بكثير من حبيبها ذاك، فإن "روبرتو" لم يكن ليقترب من أي كنيسة.

برأته الشرطة من الاشتباه به، ولكن لأسباب مختلفة. فقد كان في البنك طوال اليوم يشارك في عملية مراجعة داخلية وعد نقدي، مع أكثر من

عشرين شخصًا يمكنهم تأكيد حجة غيابه، وهو ما أخبرها به رئيس الشرطة عندما أصرت على أنها جريمة قتل، وأنه يجب عليهم النظر فيها، والتحقيق مع المشتبه بهم ومعرفة دوافعهم.

- أليس لديك أي شخص يساعدك يا سيدتي؟

سألها السائق وهي تشاهد العنكبوت يختفي من خلال النافذة نصف المفتوحة. قالت "إيلينا": - لا، ليس لديَّ أحد.

- هل أنتِ وحيدة في العالم؟

- نعم.

- اللعنة! وكلنا نشكو مع ذلك.

- كانت لديَّ ابنة، لكنهم قتلوها.

تسمع "إيلينا" نفسها تقول ذلك تقريبًا دون تفكير. قال السائق: - لا يمكنك العيش في هذا البلد يا سيدتي، يقتلونا لمجرد خروجنا إلى الشارع، هذا هو الحال.

تسمح للسائق باستخلاص استنتاجاته الخاصة من كلماتها: "كان لديَّ ابنة، لكنهم قتلوها"، وهي لا تهتم بمن "نحن" التي يشملها السائق من ضمنهم.

"إيلينا" تريده فقط أن يهدأ قليلًا، أن يذيع الراديو أغنية عاطفية أخرى، حتى تتمكن من التركيز على المهمة التي بين يديها، وتحريك هذا الجسد الذي تعرف، منذ فترة من الوقت، أنه ليس ملكها.

رغم أن "إيلينا" لا تستطيع أن ترفع رأسها لترى الطريق والسيارة الأجرة تتحرك في شارع "ليبرتادور"، بجوار مضمار الخيل "هيبودروم"، فإنها تعرف أنها فترة الظهيرة وتعلم أن الشمس فوقها مباشرة، وهو ما يؤدي إلى سخونة سقف السيارة.

أرعبها الصوت العالي لفرملة حافلة بجانبها، لكنها أدركت على الفور أن كل شيء على ما يرام، وأنه مجرد صوت، وأن هذه الضوضاء لا تعني أي شيء أكثر من ذلك. تعود للتركيز على حقيقة أنه بعد عدد من الشوارع الأخرى ستكون قد وصلت إلى وجهتها، وسيتعين على الجسد التي هي محاصرة بداخله أن يتحرك، أن يسير مرة أخرى. تحاول أن تعطيه الأمر وتجعله يستمع. من وضعها الأفقي ترفع قدمها اليمنى، بضعة سنتيمترات فقط، ثم تنزلها، ثم القدم اليسرى. تستجيب كلتا القدمين، تحاول مرة أخرى، القدم اليمنى لأعلى، ثم لأسفل، والقدم اليسرى لأعلى ولأسفل، ومرة أخرى ومرة أخيرة.

استراحت، رغم أنها لن تكون قادرة على الجلوس من دون مساعدة، لكنها تعلم أنها مستعدة، وعندما تصل السيارة الأجرة إلى وجهتها، ستحتاج فقط إلى نقطة ارتكاز لتتمكن من

جذب نفسها للجلوس؛ يد أو عصا أو حبل، وستكون قادرة على المشي مرة أخرى، قدم أمام الأخرى، لفترة من الوقت بين حبة دواء وأخرى.

6

"إيلينا" تعرف أنه لم يكن بإمكان "ميمي" قتل "ريتا"، ولهذا السبب لم تقترح أبدًا على"أفييانيذا" أن يضيف اسمها إلى القائمة عديمة الفائدة. تعتقد "إيلينا" أنها قد تكون أرادت قتل "ريتا"، لكنها ليست جريمة أن تريد قتل شخص ما، حتى لو كان هذا الشخص هو طفلك.

لا يمكن لأحد أن يذهب إلى السجن لمجرد التفكير أو الشعور بشيء ما، فقط عندما يقوم بالفعل، وحتى ذلك لا يحدث دائمًا. و"ميمي" لم تفعل ذلك، رغم أنها ربما كانت تتمنى موت "ريتا" في وقت ما، لأنها تهددها بأخذ ابنها منها، الشيء الوحيد الذي تملكه في العالم، ذلك الفتى الأحدب الذي يحبها دون قيد أو شرط، المرتبط بوالدته مثل الزائدة الدودية الملتهبة، التي لا يجرؤ أحد على إزالتها.

لم يكن بإمكان "ميمي" قتلها لأن "إيلينا" كانت معها في صالون تصفيف الشعر الخاص بها، قبل اللحظة التي تم فيها تعليق "ريتا" في جرس الكنيسة، في أثنائها، وبعدها، حين زفرت آخر نفس دخل رئتيها.

كانت فكرة "ريتا" أن تذهب لصالون التجميل. لن تفكر "إيلينا" أبدًا في إضاعة نصف يوم بأكمله من حياتها في هذا المكان الذي تصطف فيه المرايا والملصقات القديمة المصفرة لنساء بتسريحات شعر عفا عليها الزمان. لا ترغب في قضاء الوقت في صالون تصفيف الشعر هذا أو أي صالون آخر.

عملت "ريتا" جاهدة على إقناع والدتها بالذهاب إلى الموعد الذي حددته لها بعد ظهر يوم من حياتها لغسيل شعرها، وقصه، وصبغه، وتصفيفه، وعمل مانيكير وباديكير، وإزالة الشعر الزائد بالشمع. وقد حددت الموعد وفقًا لجدول الأدوية الخاص بها، حتى لا يكون جسد "إيلينا" دون دواء الـ"ليفودوبا".

قالت "ريتا": - فقط اذهبي وتوقفي عن التذمر، ستشعرين بتحسن كبير عندما تنتهين من ذلك.

- لكنني لا أشعر بالاستياء، أظافر قدمي فقط هي التي تزعجني، ويمكنك قصها من أجلي الأسبوع القادم.

- هذا صحيح يا ماما، رغم أنني أعتقد أنها مثيرة للاشمئزاز، يمكنني قص أظافر قدميك، ويمكنني حتى القيام بذلك اليوم، ولكن ماذا بعد ذلك؟

- ماذا تقصدين؟

- ماذا بعد أظافر القدمين؟ لا أعرف كيف أصيغ الشعر أو أقصه.

- هل كل هذا ضروري يا "ريتا"؟

نظرت ابنتها إليها لفترة وجيزة قبل أن تقول: - هل نظرت في المرآة مؤخرًا يا ماما؟

أجابت "إيلينا": - لا.

- حسنًا، هذا واضح، اذهبي وقفي أمام المرآة لبعض الوقت.

- أقف أمام مرآة الحوض لكن لا يمكنني رؤية نفسي، لا أرى سوى الصنبور والحوض.

- انزعي المرآة عن الحائط يا ماما، وضعيها أمام وجهك، وانظري إلى نفسك وستفهمين ما أعني.

- لماذا تهتمين كثيرًا بمظهري يا "ريتا"؟

- المشكلة ليست في مظهرك، ولكن فيمن عليه أن ينظر إليكِ. أنا التي يجب أن أنظر إليكِ كل يوم يا ماما، أساعدك على النهوض من السرير كل صباح وأرى فمك الخالي من الأسنان، وعينيك اللتين لا حياة فيهما. أتناول الإفطار والغداء والعشاء وأنا جالسة أمامك، أشاهد لعابك السائل يمتزج بطعامك في عجينة مقززة. أضعك في الفراش ليلًا وأحضر لك كوبًا من الماء حتى تتمكني من وضع أسنانك الصناعية بداخلها، لكن يصعب عليكِ وضعها في الكوب، لذلك يجب أن ألمسها، وآخذها منكِ، وأضعها في الكوب بيدي، أخلد للنوم، لكن اليوم لا ينتهي عند هذا الحد، لأنك ستنادين عليَّ بعد عدة ساعات لأخذك إلى المرحاض. آخذك إلى هناك وأنزل سروالك الداخلي، ثم أرفعه لأعلى بعد أن تنتهي، لست مضطرة لأن أمسح بولك، هذا صحيح، ولن أمسحه، فهذا كثير جدًا، لكنني أجلِسك لكي أغسلكِ بالمياه، وأعطيك منشفة، وأعلقها لتجف، وأضغط على السيفون حتى تحمل المياه بولك بعيدًا، وأضعك في السرير مرة أخرى، وأغطيك، تحدقين في وجهي وأنت نائمة في السرير، بلا أسنان، وعيناك تبدوان مذهولتين باستمرار، وتبرز بعض شعيرات شاربك من خديك مثل الأسلاك. وأنا على وشك أن أغادر، تناديننني، مرة أخرى، لأعدل وضع قدميك، أو الملاءة، أو الوسادة، لذا أعود، أرى وجهك مرة أخرى، ومرة أخرى أشم رائحة البول الكريهة التي لا تزول تمامًا لأنها أصبحت رائحتك، لأنها تغطي جسدك، وأسمعك تأخذين أنفاسك بصوت أجش عالٍ، أطفئ الضوء على منضدة سريرك وأرى أسنانك الصناعية في الكوب مرة أخرى، تلك التي وضعتها في الكوب بنفسي، بيدي. أمسح يدي في ملابس النوم، لكنها لا تزال تحتفظ برائحتك. المشكلة فيَّ أنا يا ماما، المشكلة هي أنني يجب أن أنظر إليكِ.

- وهل سيتغير هذا إذا ذهبت إلى صالون التجميل؟

- لا، أنتِ محقة، وإذا تركت الأمر لكِ، فلن يتغير شيء أبدًا، لكنك ستذهبين على أي حال وتتغيرين.

جرتها إلى صالون التجميل وتركتها جالسة على كرسي من الخوص في غرفة الانتظار. كانت عابسة أكثر من المعتاد ولم تقل مرحبًا لأي شخص، ولا حتى لـ"ميمي".

- سأتركها هنا.

قالتها لهم وغادرت. جلست "إيلينا" بلا حركة، تنتظر، وعيناها على البساط الذي من الواضح أنه لم يُنظف منذ شهور، ويتخلله شعر بكل الألوان. على الطاولة المنخفضة أمامها، هناك كومة من المجلات البالية التي كانت جديدة في يوم ما، وكومة أخرى من النشرات الخاصة بالأطعمة الطبيعية، الغذاء الملكي، الصبار لإطالة الشعر، ومنتجات أخرى من النوع الذي يعد بتحسين صحة أي شخص يجربها. فيما عداها، ليس هناك أمل بالنسبة لها.

"إيلينا" تعرف. مدت ذراعيها وأخذت أقرب مجلة، وقلبت الصفحات متظاهرة بالقراءة في أثناء انتظارها. هناك صفحات ملتصقة ببعضها تقلبها معًا في كل مرة، لذا بللت "إيلينا" سبابتها لتفصلها، وهي تعرف أن هذا سلوك مقزز، لكن "ريتا" ليست هنا لتوبيخها، لتقول لها: - لا تكوني مقززة يا ماما.

- ألا ترين أن مرض "باركنسون" يجعل من الصعب عليَّ قلب الصفحات، يا عزيزتي؟

- لا تختلقي الأعذار يا ماما، أنت تفعلين ذلك دائمًا، لا تلومي المرض على أشياء ليست ذنب أحد سواك.

كانت هناك موسيقى تُعزف في الخلفية، مقطوعة بيانو من حفل رديء يُذاع بواسطة مكبرات الصوت المعلقة في أركان الصالون. تمتزج رائحة الشامبو والبلسم برائحة صبغة الشعر والشمع الساخن لتكوِّن رائحة غريبة. لا تستطيع "إيلينا" أن تقرر ما إذا كانت رائحة لطيفة أم لا. إنها مجرد رائحة غريبة. جاءت فتاة لتأخذها عندما أوشكت على الانتهاء من تقليب جميع صفحات المجلة. قالت الفتاة: - تعالي معي يا جدتي.

أجابتها "إيلينا": - جدتي في عينك.

ثم ضحكت قبل أن تترك للفتاة فرصة للرد عليها. لقد تعلمت منذ وقت طويل أن إخفاء إهانة داخل مزحة يقضي على أي غضب.

- جدتي في عينك.

كررتها، ورفعت يدها حتى تتمكن الفتاة من مساعدتها. جذبتها الفتاة، ولكن ليس بقوة كافية. جاءت فتاة أخرى ودفعت "إيلينا" من الخلف، وأمسكتها من تحت كتفيها، قائلة إنها تعرف ماذا تفعل لأنها اعتنت بجدتها حتى يوم وفاتها. بمجرد أن أوقفتاها، ورغم أن ذلك لم يكن ضروريًا، أخذت كلٌ منهما إحدى ذراعيها وسارتا بها إلى الكرسي، كما لو كانتا مساند للذراعين. بدأتا بتلوين الشعر، غطتا صدرها بالمناشف، ثم وضعتا عباءة بلاستيكية سوداء فوقها، مفتوحة من الخلف. تذمرت "ميمي" قائلة: - هل أنتِ متأكدة من أنك لا تستطيعين رفع رأسك ولو قليلًا يا "إيلينا"؟

حاولت "إيلينا"، ولكن ما إن رفعت رأسها قليلًا حتى سقطت مرة أخرى إلى حيث كانت دائمًا، حيث أمرتها علتها - تلك العاهرة اللعينة - بالبقاء. جلست لمدة عشرين دقيقة تحت مجفف هواء ساخن يضربها مباشرة على مؤخرة رقبتها. كانت إزالة الصبغة من شعرها على الحوض هي الجزء الأصعب. احتاج الأمر لثلاث منهن، إحداهما تمسكها، وأخرى تمسك رقبتها وتدفع ظهرها، وأخرى تنتظر بذراعيها مفتوحتين ولا تفعل أي شيء، وكأن مهمتها أن تظل متيقظة ومستعدة لتجنب أي كارثة محتملة.

كان الوضع مستحيلًا، رغم التعليمات الدقيقة التي أعطتها لهن "ميمي" وهي تجلس على السلم المؤدي إلى صالة التدليك. انتهى الأمر بأن غضبت من الفتيات العاملات لديها، وقامت لتحاول فعل ذلك بنفسها، لكن هذا لم ينجح أيضًا. أخيرًا، أحضرن دلوًا وسكبن الماء على رأسها باستخدام إبريق شاي، وكان عليهن إعادة ملئه مرتين، كانت "إيلينا" تأخذ نفسًا عميقًا بين دفعات المياه التي تُسكب على رأسها، حتى أصبح الماء الذي يسقط في الدلو الذي تحمله في حضنها نظيفًا. اقترحت "إيلينا": - أنا متعبة، لنترك الباقي ليوم آخر.

قالت "ميمي": - لا، لا، لا، لا أريد مشكلات مع زوجة ابني المستقبلية.

كانت "إيلينا" تعرف أنها تكذب لأنها لم تكن مهتمة بغضب "ريتا".

- طلبت مني "ريتا" أن أقوم بكل شيء، ولن تغادري هذا المكان حتى تبدي في شكل جديد.

وكررتها: - في شكل جديد يا "إيلينا". هل تريدين أن تستريحي للحظة على منضدة التدليك؟

- لا، شكرًا.

- يمكن لإحدى الفتيات أن تجعلك تسترخين.

- قلت لا.

أخذتها "ميمي" من ذراعها وأجلستها على الكرسي وهي تشعر بالإهانة، فكت تشابك شعرها وقامت بتصفيفه في صمت، بعد مئات من ضربات الفرشاة، تبخر غضبها وقالت: - أتمنى أن نصبح جدات.

ومرة أخرى، لم تصدقها "إيلينا"، إذا كان هناك شيء واحد لا تريده هذه المرأة فهو أن تأخذ "ريتا" ابنها بعيدًا عنها أو أن يولد طفل من هذا الارتباط. أشارت "إيلينا": - "ريتا" في الرابعة والأربعين من عمرها.

ردت "ميمي": - وماذا في ذلك؟

- لا أعتقد أنها ستكون قادرة على الإنجاب لتصبح أي منا جدة.

- أوه، لا تكوني سخيفة يا "إيلينا"، ألم تري في الأخبار كيف أنجبت امرأة في سن الخامسة والستين؟

- أنا أبلغ من العمر خمسة وستين عامًا تقريبًا. أمامي عام ونصف لأكمل الخامسة والستين، لكن..

خفت صوت "إيلينا"، وصمت الجميع. قالت مرة أخرى: - أنا في الخامسة والستين تقريبًا.

لكن "ميمي" لم تجرؤ على قول أي شيء، ولا أي شخص آخر، رغم أنهن جميعًا فوجئن بعمر "إيلينا"، الذي لا يتناسب مع جسدها العاجز. غيرن الموضوع، لكن "إيلينا" توقفت عن الاستماع. من الواضح أن المرأة التي وضعت مولودًا ربما كانت في عمرها نفسه، لكنها لم تكن في مثل حالتها الجسمانية. تساءلت: "هل يمكن لامرأة مصابة بمرض "باركنسون" أن تضع مولودها؟ هل سيكون هناك مكان في جسدها المنحني لحمل طفل؟ هل ستكون قادرة على الولادة الطبيعية؟ هل تستطيع أن ترضع؟ ألن يؤثر الدواء الذي تتناوله على الجنين؟".

تساءلت عما إذا كانت قد تركت بداخل "ريتا" تلك العلة العاهرة بالفعل عندما وُلدت دون أن تعرف ذلك، مثل البذرة، في انتظار تربة خصبة لتنبت فيها. فكرت في أن المرض مثل طفلها تحمله في جسدها. تساءلت عمَّا إذا كانت ابنتها تحمل البذرة نفسها بداخلها وإذا كانت ستنبت يومًا ما وستعاني ابنتها مثل معاناتها. كان سؤالًا عديم الفائدة لأنه رغم أن "إيلينا" لم تكن تعرف ذلك بعد، فلن تكون هناك بذرة قادرة على الإنبات داخل جسد ابنتها مع نهاية هذا اليوم.

كانت إزالة الشعر بالشمع هي الجزء الأسهل. جلست الفتاة القرفصاء بجانب "إيلينا" وبيدها عصا صغيرة ملطخة بالشمع الساخن. تضع يدها اليسرى على جبين "إيلينا"، ترفع رأسها بيدها اليمنى وتنشر الشمع على شفتها العلوية

بالعصا مثل شخص يعجن العجين. لم يؤلمها الأمر، لكن بعض الشعيرات الصغيرة بقيت، وأصرت الفتاة على نتفها بالملقاط.

- هذا ليس ضروريًا يا فتاة.

قامت "ميمي" بنفسها بتقليم أظافر يديها وقدميها وتشذيبها، بينما "إيلينا" تراقب المرأة وهي تعمل، منحنية أمامها، على الارتفاع نفسه تقريبًا. فكرت: تلك المرأة لا تريد أن تزوج ابنتي من ابنها، مثلما لا أريد أنا ذلك. نحن متشابهتان في أعماقنا. ستضحك من دهشة "ميمي" عند سماعها ذلك، إذا تجرأت "إيلينا" على قوله بصوت عالٍ، أن تقول إن "ميمي" مثلها. في الوقت الذي كانت المرأة تضع فيه قدمي "إيلينا" في الماء الساخن، ربما كانت "ريتا" تتدلى بالفعل من برج جرس الكنيسة. كان الوقت قد تأخر، فقامت مساعدة "ميمي" بقص شعر "إيلينا" وتصفيفه بينما تقوم "ميمي" بالعناية بقدميها.

- اعذرينا يا "إيلينا"، ولكن إذا لم نفعل ذلك، فلن نخرج من هنا أبدًا.

عندما انتهت، ساعدنها على الوقوف، الثلاث مرة أخرى. قالت "ميمي": - عليكِ أن تأتي أكثر من ذلك، قدماكِ كارثة، كيف ترتدين صندلًا بهذا الكعب؟

أجابت "إيلينا": - أنا أرتديه فقط، أو تقوم "ريتا" بفعل ذلك من أجلي عندما لا أستطيع.

- على الأقل ضعي عليهما بعض الكريم المرطب بالليل يا "إيلينا"، فهذا يساعد على التخلص من الخشونة.

ورغم أن "إيلينا" لم تظهر أي اهتمام بشأن خشونة كعبها، قالت "ميمي": - سأرسل لكِ كريم نبات "الأذريون" مع "روبرتو".

فكرت "إيلينا" أن هذا الكريم سيضيع هباءً، لأنها لم تكن على استعداد لإضافة مزيد من الأعمال إلى قائمة التحديات اليومية التي لا تنتهي: المشي والأكل والذهاب إلى المرحاض والاستلقاء والوقوف، والجلوس على كرسي ما، النهوض من الكرسي، وتناول حبة لا تنزل من حلقها لأن رأسها لا يمكن أن يرجع إلى الوراء، والشرب من الماصة، والتنفس. لا، هي بالتأكيد لن تضع كريم "الأذريون" على كعبيها.

وجهتها "ميمي" إلى مرآة طويلة لترى نفسها بالكامل، وقالت: - ألقي نظرة يا "إيلينا"، أصبحتِ شخصًا مختلفًا تمامًا.

وحتى لا تكون بغيضة، أدارت "إيلينا "رأسها إلى الجانب وحاولت النظر إلى نفسها. سقطت خصلة من الشعر على عينها مباشرة، لكن إحدى الفتيات، التي كانت دقيقة في عملها، هرعت لتثبيتها مرة أخرى بمشبك وبعض من

مثبت الشعر. كانت قادرة على الرؤية قليلًا، ترى ما يكفي لمقارنة جسدها بجسد المرأة التي تقف بجانبها، المرأة التي تشبهها كثيرًا في أعماقها، ربما أصغر منها بعام أو عامين.

- كيف ترين نفسك يا "إيلينا"؟

- امرأة عجوز.

7

تنعطف السيارة الأجرة باتجاه ميدان "أوبيروس" كما أوضحت "إيلينا" للسائق، وتستمر في السير لمسافة شارعين. أخبرته أنهما شارعان أو ثلاثة، لا تتذكر، ودار السائق إلى اليمين بمجرد أن وصل إلى شارع يسير في هذا الاتجاه. قالت "إيلينا": - أخبرني إذا رأيت بابًا خشبيًا به إطارات برونزية.

ما زالت مستلقية على المقعد الخلفي، وعيناها على سطح السيارة.

- أي علامات أخرى يا سيدتي؟

تضيف:

- عيادة طبيب.

- سأخبرك بكل ما أراه يا سيدتي: بائع خضار، وكيل عقارات، مبنى سكنيًا، مطعمًا مكسيكيًا، كأننا نحتاج إلى مطاعم أجنبية أكثر مما لدينا بالفعل.

يشكو الرجل ثم يتابع: - كشك مفتوح على مدار 24 ساعة، وبار، وينتهي الشارع.

تسأل "إيلينا": - لا عيادة أو أي أبواب بإطارات من البرونز؟

- انتظري، انتظري. يا رجل، هل يوجد مبنى عيادات هنا أو عيادة طبيب؟

يكرر الرجل كلام السائق: - عيادة هنا؟ لا أعرف، هناك مستشفى "خوسيه إيرناندیث".

أصر السائق:

- لا، يجب أن تكون في هذا الشارع أو الذي يليه.

- لا، ليس هنا.

- أو أي أبواب بإطارات من البرونز؟

هكذا تسأل "إيلينا"، لكن لا السائق ولا الرجل يسمعان صوتها، لكن الرجل يصرخ قائلًا: - يا "ماريا"، هل يوجد مبنى عيادات في هذا الشارع أو الذي يليه؟

يضيف سائق السيارة الأجرة: - أو عيادة طبيب.

- كانت هناك عيادة طبيب منذ سنوات.

هكذا يجيب صوت المرأة. قال الرجل: - لا يا "ماريا"، متى كان يوجد طبيب هنا؟

- قبل مجيئك.

- أسكن هنا منذ عشر سنوات.

- حسنًا، كان ذلك منذ أحد عشر عامًا.

- أين؟

- في مكان المطعم المكسيكي الآن.

اشتكى السائق: - هل ترين ذلك؟ يطردون الأطباء ويأتون مكانهم بمثل هذا الطعام الرديء.

رد الرجل:

- نحن محظوظون لأن الناس الذين يسكنون في البيت المجاور لم يرغبوا في البيع، وإلا لكانوا بنوا برجًا آخر كما فعلوا في مكان موقف السيارات. وسنضطر إلى إبعاد كل تلك السيارات عن كل الناس، إلى حيث لا تشرق الشمس.

وقف سائق السيارة الأجرة أمام المطعم المكسيكي. يشير الرصيف الأصفر إلى أنه ممنوع وقوف السيارات. بجانب المطعم، هناك باب خشبي به إطارات معدنية من البرونز بالكاد يمكن رؤيتها. تقول "إيلينا": - عليك مساعدتي.

ينظر الرجل إلى الخلف ويمد يده، لكنه سرعان ما يدرك أن ذلك لن يكون كافيًا. فتح بابه وخرج وهو ينفخ. يدور حول سيارته لكنه يتوقف ويعود لإخراج المفتاح: - لا يمكن أن يكون المرء حذرًا بما يكفي هذه الأيام.

يفتح باب "إيلينا"، ويمد يده، وتمسك به، لكنه لا يشدها، بل ينتظرها لتقوم بذلك. تقول "إيلينا": - اجذبني.

تحرك ذراعها لتُظهر للرجل ما عليه فعله. يفهم السائق ويجذبها. تقف، مهتزة، تمسك بمسند الرأس كرافعة، لكنه يميل فيدفعه السائق إلى وضعه الصحيح بيده الحرة وهو يساعدها على الخروج إلى الرصيف. تقوم "إيلينا" بتعديل ملابسها، وتفتح حقيبتها وتسأله: - كم تريد؟

ينحني السائق لينظر من النافذة إلى العداد ويخبرها: - 22.50 بيزو.

تفتح "إيلينا" حقيبتها وتجد ورقة بعشرين وعملتين بأربعة دولارات، تعطيها له: - الباقي لك.

يقول الرجل:

- شكرًا لك.

ثم يسألها:

- هل يمكنني الذهاب الآن؟

- نعم، بالطبع. لقد أخذتني إلى حيث كنت أريد الذهاب.

قالتها "إيلينا"، وهي لا تزال تقف بالضبط حيث تركها السائق. دار الرجل حول مقدمة سيارته وجلس مكانه. بمجرد أن تأخذ "إيلينا" خطواتها الأولى، يشغل السائق المحرك وينسى كل شيء عنها.

لا تراه "إيلينا" وهو يرحل، لكن يمكنها أن تتخيله، وهو يدندن بأغنية عاطفية أخرى أو يتحدث إلى مذيع الراديو، ويتذمر معه، ويصرخ بالشتائم ويطلق البوق لأن الشخص الذي أمامه لا يتحرك بالسرعة الكافية. ولا يستطيع عبور التقاطع قبل أن تتغير إشارة المرور للضوء الأحمر.

تنتقل "إيلينا" إلى داخل الرصيف، أمام المطعم المكسيكي، وتتبع الجدار في الاتجاه الذي أتت منه السيارة الأجرة، وهي تجر قدميها. يخدش الطوب الدافئ ذراعها لكنها لا تمانع، لأنها نجحت أخيرًا في الوصول لهدفها، إنها هنا.

عندما انتهى جدار المطعم، وجدت بابًا خشبيًا به إطارات برونزية مصقولة وعليه مطرقة برونزية. خطت "إيلينا" بضع خطوات أخرى ووصلت إلى الباب، داعبته، ومررت يديها على البرونز كما لو كانت تلمعه، تغلق قبضتها حول حلقة المطرقة، إنها هي نفسها، المطرقة التي أمسكت بها "إيزابيل" بعد ظهر ذلك اليوم، تتوسل لهم وتستعطفهم: - لا تتركوني أدخل إلى هناك.

تشعر "إيلينا" بالامتنان، لأنه خلال عشرين عامًا لم يفكر أحد في تغيير المطرقة، لأنه بفضلها، بفضل مطرقة الباب هذه، **"إيلينا" تعرف** أنها وجدت المكان الذي استهدفته هذا الصباح وهي تركب قطار الساعة العاشرة.

3
بعد الظهر
(الحبة الرابعة)

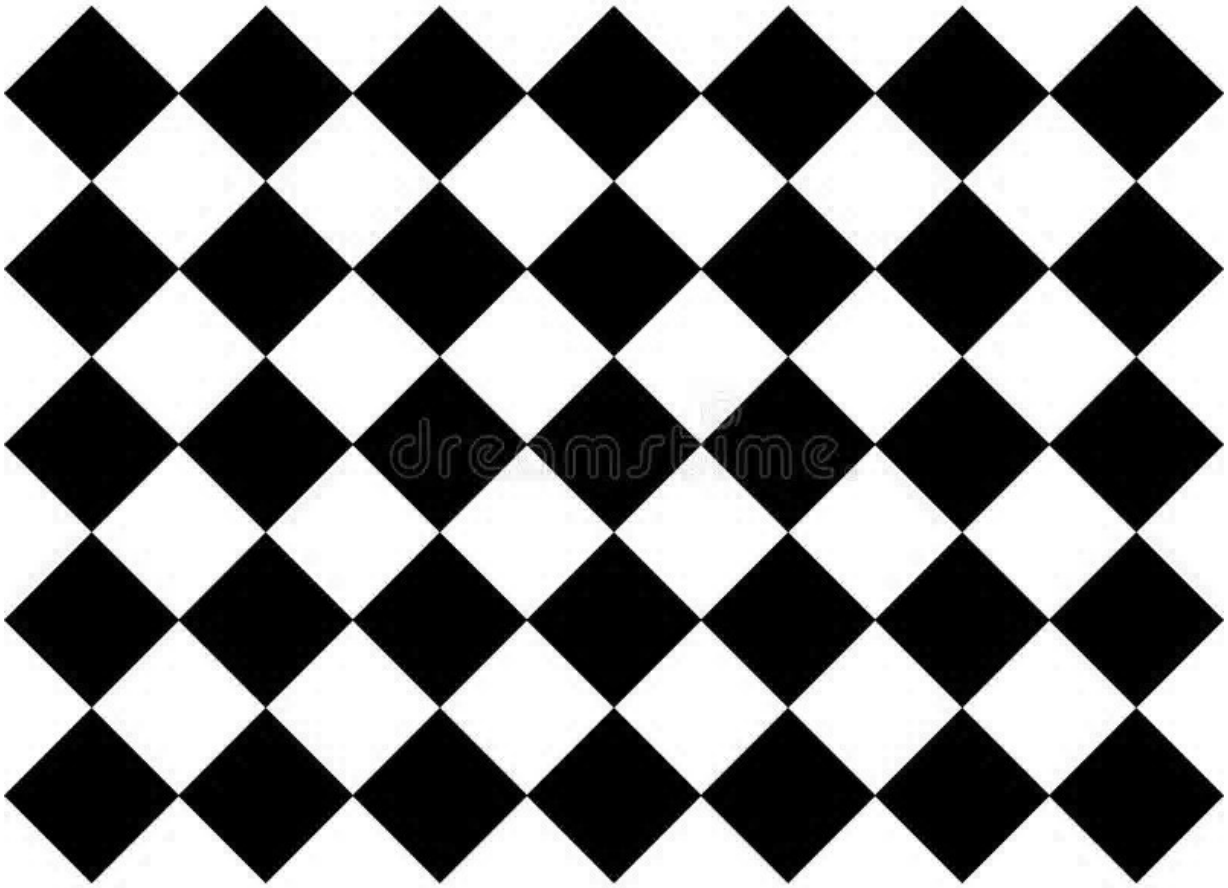

1

التقت "إيلينا" بـ"إيزابيل" منذ عشرين عامًا، عندما جرتها "ريتا" إلى منزلهما بعد ظهر أحد الأيام. كان الجو باردًا، و"إيلينا" تحيك التريكو بجانب المدفأة. وقشر البرتقال في قدر من الماء الساخن يعطر جو المنزل. انفتح الباب فجأة وكأن "ريتا" ركلته بقدمها، وكانت يداها مشغولتين بحمل امرأة. دخلت إلى المنزل بظهرها، جسدها ثم الجسد الآخر، الذي كانت تجره معها. سألتها "إيلينا": - من هذه؟

أجابت ابنتها: - لا أعرف.

- ماذا تقصدين بأنك لا تعرفين يا طفلتي؟

قالت "ريتا": - إنها في حالة سيئة يا ماما.

حملت المرأة تقريبًا إلى غرفتها ووضعتها على السرير. كانت المرأة تبكي لكنها صمتت بعد ذلك، فقدت الوعي.

- أحضري لي دلوًا يا ماما.

أحضرت "إيلينا" دلوًا، ووضعته "ريتا" على الأرض بجانب رأس المرأة، وقالت: - في حال احتاجت إلى التقيؤ مرة أخرى.

ثم توجهت إلى النافذة، وأغلقتها، وأضاءت النور.

سألت "إيلينا": - هل أتصل بالطبيب؟

لكن "ريتا" لم تجب، عادت إلى المرأة، وألقت بمحتويات حقيبة يدها على السرير، وبدأت في البحث فيها.

- ماذا تفعلين؟

- أبحث.

- عمَّ؟

- رقم تليفون، عنوان.

- لماذا لا تسألينها؟

- لأنها لا تستطيع الإجابة يا ماما، ألا ترين أنها لا تستطيع الإجابة؟

قالت "إيلينا": - إنها تبكي. أجل، إنها تبكي الآن.

تدحرج أحمر الشفاه عبر السرير وأمسكته "ريتا" قبل أن يسقط على الأرض. كانت هناك علبة دواء منوم "فاليوم"، ومحفظة، وعدة قسائم ورقية، وظرفان، وعدد من العملات المعدنية.

مشت "إيلينا" إلى السرير، كانت لا تزال تسيطر على جسدها آنذاك منذ عشرين عامًا، دون أن تجر قدميها. كانت تسير ورأسها عالٍ. بكت المرأة وهي تعانق الوسادة وتغطي بها وجهها. سألت "إيلينا" مرة أخرى: - من هذه المرأة؟ ولماذا عدتِ من العمل؟

هذه المرة أوضحت ابنتها ما حدث. وجدتها وهي في طريقها إلى عملها في المدرسة الكاثوليكية، وفي طريق عودتها بعد تناول الغداء مع والدتها كما تفعل كل يوم، كانت تمشي بسرعة لتصل إلى المدرسة في الوقت المحدد، لقرع الجرس الذي يشير إلى بدء فصول ما بعد الظهر، لكنها لم تتمكن أبدًا من الوصول، لأن "إيزابيل" كانت هناك، على الجانب الآخر من الشارع، على الرصيف المقابل الذي يتميز ببلاط ملون بألوان لوحة الشطرنج، الأبيض والأسود، حيث ترفض "ريتا" أن تطأه قدمها، ولا تسمح لـ"إيلينا" أيضًا بأن تطأه.

كانت "إيزابيل" هناك، ممسكة بشجرة، تنحني وتتقيأ. وضعت "ريتا" يدها على فمها، وأسرعت وحاولت عدم النظر إليها. أثار المشهد اشمئزازها، ولكن تدريجيًا أفسح اشمئزازها المجال لشيء آخر، لا تعرف ما الذي جعلها تتوقف. قالت "ريتا" لأمها: - سمعت صوتًا يا ماما، سمعت صوتًا يناديني، وقال لي إنها ستدخل إلى هناك، وإنها حامل، وستدخل. لذا استدرت، وعدت، وعرضت عليها المساعدة دون أن أخطو على الرصيف. قالت: "لا، شكرًا، لست بحاجة إلى شيء". لكنها ما زالت تتقيأ. وقلت لها: "لا يمكنك حتى المشي وأنت في هذه الحالة". فقالت: "لست مضطرة للذهاب بعيدًا". كانت معها قطعة من الورق عليها عنوان في يدها، واسم، أنت تعرفين الاسم يا ماما، "أولجا".

قلتُ لها: - لا تفعلي ذلك، سوف تندمين.

- كيف تعرفين ذلك؟

- كل الفتيات اللاتي يأتين إلى هنا يندمن.

- كيف عرفتِ ذلك؟

- أنا أعرف.

- اهتمي بشؤونك الخاصة.

- إنها خطيئة رهيبة.

- أنا لا أؤمن بالرب.

- فكري في طفلك.

- ليس لديَّ طفل.

- سيكون لديك طفل.

- لا.

- لديك حياة بداخلك.

- أنا لست حاملًا.

- عندما تسمعين صوت دقات قلب الطفل، سترغبين في ذلك.

- كيف عرفتِ ذلك؟

- لا تقتليه.

- ابتعدي عني.

- لا تقتلي طفلك.

- لا يوجد طفل.

- نعم، هناك طفل.

- لا يمكن أن يكون هناك طفل دون أم.

- أنتِ بالفعل أم.

- لا أريد أن أكون أمًا.

قالت "ريتا" لـ"إيلينا": - أخبرتني هذه المرأة أنها لا تريد أن تكون أمًا! هل تصدقين ذلك يا ماما؟ لكني أخبرتها أن هذا ليس قرارها وكان لديها الجرأة لتسألني من صاحب القرار إذًا، صرخت في وجهها: "لديكِ طفل بداخلك!"، وقالت مرة أخرى: "ليس لديَّ أي شيء بداخلي"، لكنني كنت مصرة، إنه قلب ينبض. فقالت: "لا يمكن أن يكون هناك طفل دون أم".

- لا تقتليه.

- اصمتي.

- ستعيشين مع شعورك بالذنب إلى الأبد.

- لن أستطيع العيش على الإطلاق إذا لم أفعل ذلك.

- الفتيات اللاتي قمن بذلك لا ينسين أبدًا.

- لا يمكنك إجبار شخص ما على أن يكون أمًا.

- كان يجب أن تفكري في ذلك من قبل.

- لطالما فكرت في ذلك، لم أرغب أبدًا في أن أكون أمًا.

- لكنك أم.

- لا، أنا لست كذلك.

- يسمعن صراخ الأطفال كل ليلة.

- كيف عرفتِ ذلك؟

- الأطفال المُجهضون يبكون داخل رؤوسهن.

- أنا من يبكي داخل رأسي.

- لا تقتلي نفسًا بريئة.

- أنا بريئة أيضًا.

ثم غطت المرأة فمها وتقيأت مرة أخرى ورأت "ريتا" خاتم الزواج في إصبعها: - أنت متزوجة؟

- هذا صحيح.

أكملت "ريتا" لأمها ما دار بينها وبين المرأة قائلة: - هناك أب يا ماما، هل ترين؟ وسألتها ماذا سيقول فقالت: - لا يهمني ما سيقوله.

- له الحق في أن يكون له رأي، فهو الأب، أم أنه ليس الأب؟

- اهتمي بشؤونك الخاصة.

- إذا اكتشف ذلك سيقتلك.

- لقد قتلني بالفعل.

- لا يمكنك أن تعارضي إرادة الرب.

- لا أعرف أي شيء عن إرادته.

- إنه يعلم، ليس عليك أن تفهمي، فقط ثقي به.

- لا أريد هذا الشيء الذي بداخلي.

- لا تتحدثي عنه هكذا، أعطي طفلك اسمًا.

واستمرت في الجدال، فقالت مرة أخرى إنها لا تحمل طفلًا بداخلها، وإنه يجب أن يكون هناك أم حتى يكون هناك طفل، وأنه ليس بداخلها أي شيء، لكنها بعد ذلك تقيأت مرة أخرى، أستطيع أن أقول إنها كانت تشعر بالدوار

وهذا أعطاني فكرة، قلت لها، ستكونين أمًا، وكانت لا تزال تشعر بالدوار، لذلك دون أن أضيف أي شيء آخر، أخذتها من ذراعها وأحضرتها إلى هنا.

لم يكن الأمر صعبًا، كانت المرأة منهكة وكانت "ريتا" عاقدة العزم. لقد جرت المرأة بعيدًا عن ذلك المكان. في ذلك اليوم، أجبرت "ريتا"، التي لم تكن أمًا ولن تكون أبدًا، امرأة أخرى على أن تصبح أمًا، وطبقت العقيدة التي تعلمتها على جسد امرأة أخرى.

أحد الظرفين اللذين سقطا من حقيبة يد "إيزابيل" به نتائج المختبر التي أكدت حملها، والآخر كان فاتورة كهرباء باسمها: "إيزابيل جيرتي دي مانسيلا"، وعنوانًا.

- شارع "جندي الاستقلال".

قرأت "ريتا" العنوان مرتين. كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها اسم هذا الشارع.

- هل سمعتِ يومًا بشارع اسمه "جندي الاستقلال" يا أمي؟

لكن "إيلينا" لم تسمع به من قبل أيضًا. تُسمى الشوارع على أسماء الآباء المؤسسين، أو البلدان، أو المعارك. لا تتذكران أنهما سمعتا عن شارع سُمي باسم شخص مجهول، شخص دون اسم يجب الإشارة إليه بما فعله: امرأة تتقيأ. امرأة تمنع الإجهاض. المرأة التي تراقب المرأة التي منعت إجهاض المرأة التي تتقيأ. جندي الاستقلال. من هذا الجندي؟ وأي استقلال؟

جاءت "ريتا" بسيارة أجرة، لم يكن الأمر سهلًا، فمنذ عشرين عامًا لم تكن هناك خدمات سيارات أجرة في كل ناصية، كان الناس يمتهنون مهنًا أخرى للرزق، وعندما يفقد شخص ما وظيفته، يجد وظيفة أخرى ببساطة. حبست المرأة داخل غرفة نومها.

- غيري ملابسك يا ماما.

قالتها لـ"إيلينا" وغادرت المنزل. ذهبت "إيلينا" إلى باب غرفة النوم المغلق، لتستمع، ربما لو سمعت المرأة تبكي كانت ستدخل، لكنها لم تسمع شيئًا، فذهبت لتغير ملابسها كما أمرتها ابنتها، حتى لا تغضب منها هي أيضًا.

ذهبت "ريتا" إلى محطة القطار، حيث كان موقف السيارات الأجرة الوحيد في المدينة منذ عشرين عامًا، وجاءت بسيارة أوصلتها حتى المنزل. نزلت منها وذهبت لإحضار المرأة من غرفة النوم.

- ساعديني يا ماما.

قالتها وهي تكافح لحمل المرأة إلى الخارج، وساعدتها "إيلينا". من خلال النافذة المفتوحة للسيارة، أعطت السائق الظرف بالعنوان، ووضعت "إيزابيل" في المقعد الخلفي وطلبت من "إيلينا" أن تجلس بجوارها. دارت "ريتا" وجلست بجوار المرأة من الجانب الآخر قائلة: - لا أريدها أن تحاول القفز من السيارة وتقتل نفسها والطفل.

انطلقت السيارة الأجرة والنساء الثلاث في المقعد الخلفي. مررن في الطريق بالمكان الذي التقت فيه "إيزابيل" بـ"ريتا"، أمام منزل القابلة "أولجا"، المُجهضة، حيث الرصيف ببلاط مربعات أبيض وأسود.

- لا يوجد طفل.

قالتها المرأة مرة أخرى وهي جالسة تبكي بينهما وتمسك قبضتها بشدة لدرجة أن "إيلينا" استطاعت رؤية العلامات التي خلفتها أظافرها عندما فتحتها.

- لا يوجد طفل.

كررت العبارة نفسها طوال الطريق. لكن "ريتا" و"إيلينا" تجاهلتاها.

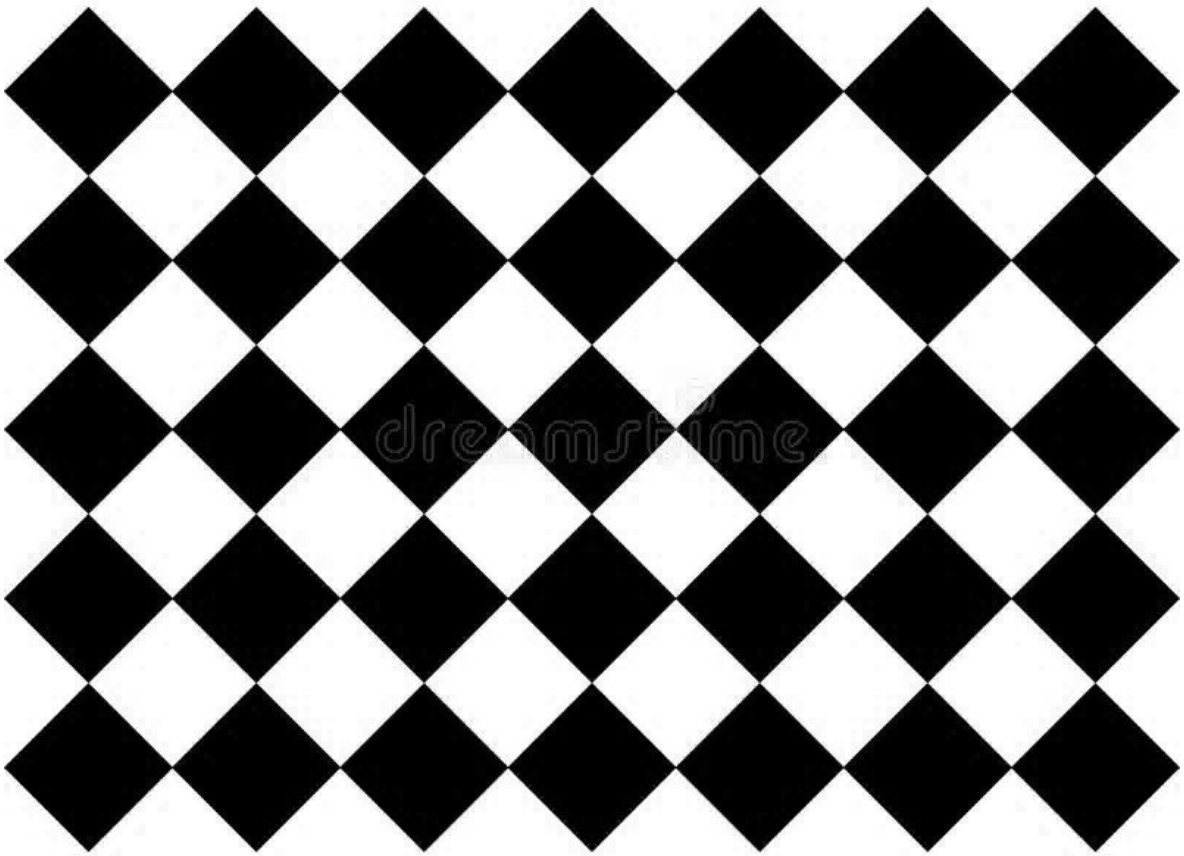

2

ترفع ذراعها فوق رأسها المنحني، وتقرع جرس الباب. تنتظر. ينظر شخص ما من ثقب الباب، لكنها لا تعرف ذلك والشخص الذي ينظر للخارج لا يمكنه رؤيتها، لأن "إيلينا" منخفضة للغاية، منحنية تحدق في حذائها، وتنتظر. تدور المفاتيح في القفل، ويُفتح الباب بقدر ما تسمح به سلسلة الأمان. تقول امرأة من خلف الباب: - ماذا تريدين؟

تجيب "إيلينا": - أبحث عن "إيزابيل مانسيلا".

- إنها أنا.

- وأنا "إيلينا"، والدة "ريتا"، المرأة التي منذ عشرين عامًا..

لكن "إيلينا" لم تكمل بقية الجملة لأن "إيزابيل" فكت السلسلة وفتحت الباب وسمحت لها بالدخول.

"إيلينا" تعرف أن "إيزابيل" تنظر إليها وتفحصها، بدلًا من أن تسألها عما تفعله هنا، تحاول أن تكتشف سبب مشيتها تلك، ولماذا لا ترفع رأسها، ولماذا يتعين عليها مسح لعابها بمنديل مبلل ومكور؟ تقول "إيلينا"، لتنقذ المرأة من حرج السؤال: - لديَّ مرض "باركنسون".

تقول "إيزابيل": - لم أكن أعرف.

تقول "إيلينا" وهي تتحرك نحو الأريكة حيث أشارت لها "إيزابيل" بالجلوس: - لم يكن لديَّ بعد عندما التقينا، أو إذا كان لديَّ وقتها فلم أكن أعرف ذلك.

تتساءل لماذا تقول إن "لديها" مرض "باركنسون"، فهذا هو آخر شيء تريده لديها. إنها تعانيه، مصابة به، تلعنه، لكنها لا تملكه، ليس لديها رغبة في الاحتفاظ، ولا ترغب في امتلاك أي شيء من هذا القبيل. تساعدها "إيزابيل" على الجلوس، وهي تقول: - هل تريدين مشروبًا باردًا، أو كوبًا من الشاي؟

- الشاي سيكون لطيفًا، ولكن أحضري معه ماصة من فضلك.

تذهب "إيزابيل" إلى المطبخ. تراقبها "إيلينا" بزاوية عينها. الأثاث أنيق، تنجيد بقماش "الجوبلان"، أرجل المقاعد منحنية تنتهي بنقوش على شكل حافر ماعز أو حمل. تفكر "إيلينا" أنها لو كانت تعرف أي شيء عن الأثاث، فستتمكن من معرفة لأي طراز "لويس" ينتمي هذا الأثاث، أو إذا كان من طراز "لويس" على الإطلاق. لكنها لا تعرف، ولا تهتم. ترى مزهرية موضوعة على الطاولة بجانب بعض كتب السفر، مدن لن تراها أبدًا. على رف المدفأة صورتان في إطار. توجه "إيلينا" رأسها إلى الجانب وتحاول رؤية الصور، وتجتهد لرفع نظرها عاليًا بدرجة كافية.

أحد الإطارين يحمل صورة "إيزابيل" وزوجها وابنتهما. صورة شبيهة بالصور التي تلقتها "ريتا" كل ديسمبر خلال الثمانية عشر أو التسعة عشر أو العشرين عامًا الماضية، لا تستطيع "إيلينا" أن تتذكر عددها الآن. لا، ليس عشرينًا، لأنهما جاءتا إلى هذا المنزل منذ عشرين عامًا لإعادة "إيزابيل" إلى منزلها.

احتفظت "ريتا" بجميع البطاقات في ملف، مُرتبة من الأقدم إلى الأحدث. كان من السهل ترتيبها دون النظر حتى إلى التاريخ الموجود على ظهرها لأن الفتاة تكبر مع كل صورة جديدة، تكبر سنة واحدة بالضبط، ويكبر الوالدان معها، تتكيف وجوههما مع مرور الوقت الذي يمكن رؤيته واضحًا أكثر على ابنتهما. كان الثلاثة يبتسمون دائمًا، والرجل يقف في المنتصف وذراعاه حول المرأتين. كانت البطاقة موقعة دائمًا من الدكتور "مانسيلا"، قائلًا: "شكرًا لإضفاء البسمة على وجوهنا، ممتنٌ إلى الأبد، دكتور "ماركوس مانسيلا" وعائلته".

ثم يكتب التاريخ. ربما كانت إحدى البطاقات التي احتفظت بها "ريتا" هي الصورة المعروضة نفسها على رف المدفأة. عندما تعود إلى المنزل هذا المساء، بعد كل هذا السفر، ستتحقق "إيلينا" من البطاقة. سوف تتفقدها، الفتاة ترتدي فيها بلوزة وردية وتصفف شعرها في ضفيرتين. والصورة الأخرى للابنة مع رجل آخر. تفكر "إيلينا" في أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون زوجها، لأن الفتاة لا تزال طفلة والرجل أكبر سنًا، إنه في عمر الدكتور "مانسيلا"، ولكن ربما يكون زوجها، فهذه الأيام.. لكنها تتوقف قبل أن تكمل أفكارها لأن "إيزابيل" عادت بأكواب الشاي والإبريق وماصتين؛ إحداهما معدنية والأخرى بلاستيكية. قالت لها: - أحضرت كلتيهما، حتى يمكنك الاختيار.

اختارت "إيلينا" الماصة البلاستيكية، تقطعها بالسكين في الطبق بجانب الكعك، تطويها إلى نصفين وتقطعها من المنتصف. قالت "إيلينا": - كلما كانت أقصر كان أفضل.

وأخذت رشفة من خلالها. كلتاهما تنتظر الأخرى أن تبدأ بالحديث. تسأل "إيزابيل": - هل تريدين بعضًا من الكعك؟ لقد صنعتها بنفسي؛ كعكة الموز.

- لا، شكرًا. كم عمرها؟

- من؟

- ابنتك.

- "خولييتا"؟

تسأل "إيزابيل" وتنظر إلى الصورة التي في الإطار وتقول: - تسعة عشر عامًا، بلغت التاسعة عشر منذ ثلاثة أشهر.

- ماتت "ريتا" قبل ثلاثة أشهر.

فوجئت "إيزابيل" وقالت: - لم أكن أعرف.

تشرح "إيلينا": - لهذا السبب أنا هنا، لهذا جئت.

تجلس "إيزابيل" في صمت، لا تنظر إلى "إيلينا"، ولا تنظر حتى إلى أي شيء في الغرفة، بل تنظر إلى الزمن الماضي، إلى مكان لا تستطيع "إيلينا" رؤيته، رغم أنها كانت هناك. تشعر "إيلينا" بالحاجة لملء الصمت بالتفاصيل.

- وجدوها معلقة في جرس الكنيسة الواقعة على بعد شارعين من منزلنا.

تمسك "إيزابيل" بحافة الكرسي لتظل ثابتة في مكانها، بالكاد تلاحظ "إيلينا" ذلك، فمن وضعها المنحني لا تستطيع التقاط بعض الحركات الدقيقة التي تحدث فوق مستوى صدرها، يمكنها أن ترى فقط أن المرأة التي تجلس أمامها قد وقفت وقالت: - سأحضر كوبًا من الماء.

تستأذنها وتغادر الغرفة. تجلس "إيلينا" بمفردها لأكثر من عشر دقائق، تحاول النهوض، ولكن مرة أخرى بدأ أثر حبة دواء الـ"ليفودوبا" في الزوال، وتم تجريدها من القدرة على التحرك بحرية. زال تأثير مفعول الحبة السابقة بسرعة، ورغم أنها تعلم أن وقتها لا يُقاس بالساعات، فإنها نظرت إلى الساعة، ما زال أمامها أكثر من ساعة على تناول حبة الدواء التالية، لذلك من الأفضل أن تأخذ "إيزابيل" وقتها. لأن وقتها الذي لا يُقاس بالساعات قد بدأ ينفد مثل الرمال التي تنزلق من بين أصابعها، ومثل الماء، و**"إيلينا" تعرف** أنها لن تكون قادرة على النهوض عن هذه الأريكة حتى تتناول حبة الدواء التالية.

من خلال الباب الذي تركته "إيزابيل" مواربًا، دخل قط سيامي وتوجه إلى الأريكة حيث تجلس "إيلينا"، وقفز إلى حجرها. تقول له: - امشِ من هنا. من الذي دعاك للحفلة؟

وتدفعه بعيدًا. القط لا يسقط. ويبدأ في المشي على الجزء الخلفي من الأريكة، ويمر خلف كتفيها المنحنيتين. يقف الشعر الموجود على عنق "إيلينا" وذراعيها عندما يتمسح القط بها. يمشي على مسند الذراع ويتقدم نحوها، ويمسح رأسه على يديها، ويطالبها بأن تداعبه. قالت له: - إنك أفضل حالًا بعيدًا عني.

يبدو أن القط فهم ذلك لكنه استمر، يموء، يتمسح بيديها مرة أخرى، لكن "إيلينا" ترفض لأنها لم تلمس قطًا منذ زواجها، ولم يسمح زوجها لـ"ريتا" بتربية قط، ولا حتى عندما اكتشف القطط الصغيرة التي خبأتها في صندوق تحت سريرها، وأطعمتها الحليب سرًا.

- لا يا "ريتا"، القطط حيوانات قذرة، تلعق قيئها ثم تلعق نفسها.

- إنها صغيرة يا بابا، لا تعرف كيف تلعق نفسها.

- في خلال فترة قصيرة، سوف تنمو وتصبح مثيرة للاشمئزاز مثل أي قطة أخرى.

- أنا أحب القطط يا بابا.

لكنه أخبرها بعد ذلك عن الجرب، والإكزيما، والالتهابات الفطرية، والأمراض التي تتسبب في ولادة أطفال فاقدي البصر أو بعيوب عقلية، وحدثها مرة أخرى عن القيء الذي تلعقه القطط وكيف تلعق نفسها بعد ذلك، حتى قالت "ريتا": - كفى يا بابا.

وقررت أنها لن تحب القطط بعد ذلك. في النهاية، كانت "ريتا" نفسها هي التي تقول إن القطط قذرة لأنها تلعق قيئها وتلعق نفسها باللسان نفسه. لا تعرف "إيلينا" ما إذا كانت قد توقفت عن حب القطط عندما توقفت "ريتا" عن حبها، أم أنها لم تحبها أبدًا، أو إذا كانت تحبها فعلًا. كل ما تعرفه هو أنه لم يكن لديهم قطة في المنزل لأن زوجها لم يسمح بذلك أبدًا، وورثت "ريتا" حقه في حظرها، ولم تلمس "إيلينا" أي قطط منذ ذلك الحين.

لكن هذا المنزل ليس منزلها، وقط "إيزابيل" مصرٌّ، وهو يحرك قدمي "إيلينا"، ويتحرك بين ساقيها، داخلًا وخارجًا من مساحات ضيقة للغاية لا ينبغي أن تلائمه. تفكر لو أن "ريتا" تستطيع رؤيتها الآن. **"إيلينا" تعرف** ما ستقوله "ريتا" إذا رأتها، فهي تحفظ هذه المحاضرة عن ظهر قلب، لكنها تود سماعها، تود حتى أن تسمعها توبخها وتهينها وأن ترى غضبها. ستختار إهانات "ريتا" على غيابها في أي يوم، لكنها تعلم أنه ما ستختاره لا يهم، لأن الموت قد سلبها قدرتها على الاختيار. فقد ماتت ابنتها.

يقفز القط مرة أخرى إلى حضنها، ويمشي فوق فخذيها، على ساق ثم على الأخرى، يدور حولها، ويراقبها من مكان ما خلف تلك العينين الزرقاوين، تعرف "إيلينا" ما ستفعله. سينتهي بها الأمر بمداعبته. سوف تستسلم، حتى يتوقف عن مضايقتها، حتى يتركها وشأنها. تربت بيدها اليمنى، التي تعمل بشكل أفضل، على رأس الحيوان ويلوي القط رأسه بسرور.

- يعجبك هذا.

قالتها له وهي تفكر في أنه قد يعجبها أيضًا. إذا استطاعت. إذا لم تقفز كلمات زوجها وابنتها إلى ذهنها، قائلين إن القطط قذرة، وإذا كانت صماء مثل قدميها، فقد تستمتع بمداعبة هذا الحيوان، تستمتع بدغدغة فرائه. إذا استطاعت، إذا سمحت لنفسها، لكنها لن تفعل.

- القطط قذرة، تلعق قيئها.

كما يقول زوجها المتوفي لابنتها الميتة، وابنتها المتوفاة تكرر كلامه، وهي تسمعهما، وكأنهما هناك، عائلتها المتوفاة تتحدث إليها، ويوبخانها، ويغضبان منها. تدفع "إيلينا" بالقط بعيدًا حتى لا تضطر إلى الاستماع إليهما بعد الآن. لكن القط لا يذهب بعيدًا، فلا يكفي أن تحرك يدها وتقول: - اذهب بعيدًا يا قط، ارحل.

يلقي الحيوان نظرة عليها ثم يقفز مرة أخرى. لا يستطيع سماع الأصوات التي تتحدث إلى "إيلينا"، وهو ليس خائفًا منهما. يشعر القط بالدفء وهو ملتف في حضنها وينام، والآن بعد أن أصبحت لا تشعر بالذنب، لأنها حاولت بالفعل الإنصات إلى ابنتها وزوجها، ورغم أنها لا تريد، أو ربما تريد، تركت القط يرقد في حضنها.

- آسفة.

قالتها "إيزابيل"، وهي تجلس أمام "إيلينا".

- هل القط يزعجك؟

تنفي "إيلينا"، ولكن الآن بعد أن قالت ذلك، الآن بعد أن تقبلت الحيوان علانية، يستيقظ القط على أصواتهما ويقفز من حجرها إلى الأرض، ويتخلى عنها، تاركًا حضنها الدافئ ليصبح باردًا مرة أخرى. عادت "إيزابيل" وقد وضعت مساحيق التجميل، أحمر الخدود وأحمر الشفاه، لكن "إيلينا" لم تلحظ ذلك.

- كنت أشرب بعض الماء.

بالتأكيد شربت الماء وأخذت معه شيئًا آخر، ربما مهدئًا، لأنها تتحرك ببطء أكثر، وتبتسم، وتبدو كما لو أن "إيلينا" لم تخبرها منذ عشر دقائق فقط أن "ريتا" عُثر عليها معلقة من جرس الكنيسة.

- لماذا هذه الزيارة إذًا؟

تسألها وهي تقطع شريحة من الكعكة لا تنوي تناولها.

- ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

تبدأ "إيلينا" السرد، منذ ذلك المساء عندما طرق ضابط شرطة بابها ليخبرها أن "ريتا" ماتت، حتى قبل أن يبدأ الرجل في الحديث، كانت **"إيلينا" تعرف** بالفعل أن شيئًا سيئًا قد حدث.

- إذا جاء ضابط شرطة يطرق بابك، فهذه علامة سيئة.

قالتها "إيلينا"، وأومأت المرأة الأخرى برأسها.

- كنت جالسة هناك في انتظار ابنتي لتراني بشكلي الجديد، فقد قصصت شعري، وصبغته، وأزلت الشعر الزائد بالشمع. أخذت لي "ريتا" موعدًا في صالون التجميل، لم أكن أرغب في الذهاب، ولكن بمجرد الانتهاء من كل ذلك، أردت أن أريها، وأن أجعلها سعيدة، حتى تعرف أنه عندما تأتي لتضعني في السرير هذه الليلة، لن تضطر إلى رؤية الشارب حول فمي الذي اشتكت منه كثيرًا، أو جذور شعري الرمادية. لكن "ريتا" لم ترَ أيًا من ذلك، ولم ترني مرة أخرى.

لكن "إيلينا" رأت ابنتها مرة أخرى، حيث أخذوها للتعرف على جسدها.

- في الطريق إلى المشرحة، أخبروني بما حدث: "شنقت ابنتك نفسها في برج الجرس بالكنيسة يا سيدتي".

- قلت لهم لا يمكن أن تكون "ريتا". لكنها كانت لا تزال تحمل علامات الحبل حول رقبتها، وكان جلدها بنفسجي اللون، ومجروحًا من الحبل القديم، وكانت عيناها جاحظتين ولسانها متدليًا، ووجهها منتفخًا. كانت رائحتها مثل البراز. لم تكن محظوظة وفقًا لما قاله لي الطبيب الشرعي، فلو كانت محظوظة لكانت كسرت عظام رقبتها وماتت على الفور، لكن عظام رقبتها كانت لا تزال سليمة، وماتت ببطء، بالاختناق، والأشخاص الذين يُشنقون ويموتون مختنقين يصابون بنوبات صرع ويتبرزون على أنفسهم. لم أكن أعرف ذلك بالطبع، كيف لي أن أعرف ذلك؟

تأخذ "إيلينا" رشفة من الشاي من خلال الماصة، وتكرر ذلك مرتين قبل أن تكمل: - اللعنة، آخر نفس لابنتي كانت تشم رائحة البراز.

تحدق "إيزابيل" في وجهها وهي تهتز قليلًا في كرسيها. تقول "إيلينا": - إنهم يقولون إنها قتلت نفسها، لكنني أعلم أنها لم تفعل ذلك.

تسأل "إيزابيل": - كيف عرفتِ ذلك؟

- لأنني والدتها، كانت السماء تمطر في ذلك اليوم وابنتي لا تقترب من الكنيسة أبدًا في الأيام الممطرة، ألا ترين؟

لكن "إيزابيل" ليست متأكدة مما إذا كانت ترى ما تحاول المرأة أن تقوله، لذا فهي تحدق بها فقط، وبدلًا من الإجابة عليها، تطرح سؤالًا عشوائيًا لملء الصمت: - هل تريدين ترك كوب الشاي جانبًا؟

ردت "إيلينا": - لا، ما زال لديَّ قليل منه في الكوب.

- لقد أصبح باردًا الآن، ألا تريدنني أن أسكب لك كوبًا جديدًا؟

- لا.

تأخذ "إيزابيل" كوبًا جديدًا لنفسها، وتدفئ يديها بالكوب، تحرك السائل، وتشاهده يستقر، ثم تأخذ منه رشفة أخيرًا. قالت "إيلينا": - ظللت أطاردهم لمتابعة ظهور أي أدلة محتملة، كتبت قائمة بالمشتبه بهم للمحقق "أفييانيذا"، وهو الضابط الذي تم تكليفه بالقضية، ولكنه قال إن كل شخص في القائمة كان في مكان آخر في اليوم الذي قُتلت فيه ابنتي، ليس لديَّ أي مشتبه به آخر لأضيفه إلى القائمة، يقولون لي أن أتخلى عن الأمر، حتى المحقق "أفييانيذا" يقول ذلك، لكنني أقول لنفسي: "لا، إذا لم يكن الشخص الذي قتلها موجودًا في القائمة، فذلك لأنني لا أعرفه، وإذا لم أكن أعرفه، فالكون واسع، ومن الممكن أن يكون أي شخص، ولو أنه أي شخص، فالتحقيق سيصبح أكثر صعوبة، سأحتاج إلى التحرك، مقابلة الناس، العثور على القرائن، والدوافع المحتملة، والتواريخ، والحقائق، والأدلة".

تمسح "إيلينا" اللعاب المتدلي من فمها وتحدق في أرجل الطاولة المنقوشة على شكل حوافر أمامها. إنها تلهث، لم تتحدث كثيرًا هكذا منذ فترة. تنتظر "إيزابيل"، وتسمح لها بأخذ وقتها دون استعجالها، ولا تكسر حاجز الصمت، ولو حتى بتنهيدة. بعد لحظة، أصبحت "إيلينا" قادرة على استئناف الحديث.

- لذلك ومع كل ما هو قادم، أحتاج إلى جسد، لكني ليس لديَّ واحد، هذا الجسد بالكاد أوصلني إلى هنا اليوم، لا أعرف ما إذا كنت سأتمكن من التحرك غدًا، فليس هناك كثير مما يمكنني القيام به، مع مرض "باركنسون".

قالت "إيزابيل": - نعم، أعرف، لقد أخبرتني بذلك.

- لذلك لا يمكنني التحكم في جسدي. العلة هي التي تتحكم فيه، تلك العلة العاهرة اللعينة، اعذري لغتي.

تعذرها "إيزابيل" وتسألها مرة أخرى: - إذًا ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

تجيب "إيلينا": - لسداد الدين.

- لسداد الدين!

تكرر "إيزابيل" محدقة فيها بشدة، ثم تقول: - كنت أعرف ذلك.

تبتسم بعصبية وتغطي وجهها وتهز رأسها وكأنها تحاول أن تثبت لنفسها أنها لا تحلم، وقالت: - كنت أعلم أنه عاجلًا أم آجلًا ستأتين أنتِ أو ابنتك.

قالت "إيلينا": - هل ستساعدينني إذًا؟

تبدو "إيزابيل" حائرة، وتقول: - أنا لا أفهم.

تحاول "إيلينا" أن تشرح: - هل ستسددين دينك؟

تقف "إيزابيل" وتسير بضع خطوات لا تقودها إلى أي مكان، وتعود إلى الوراء، وتنظر إلى "إيلينا"، وتسألها: - أي دين الذي تتحدثين عنه؟

أجابت "إيلينا": - كما تعرفين.

قالت "إيزابيل": - لا، لا أعرف.

أوضحت "إيلينا" لها: - ربما ترغبين في مساعدتي، بسبب ذلك اليوم منذ عشرين عامًا عندما ساعدتك ابنتي، دون أن تعرفك، وأنقذتك، لأن صوتًا ما دعاها للقيام بذلك، لذا ربما تشعرين بأنك مدينة لها، وترغبين في رد الجميل، لم أكن أريد أن آتي إلى هنا وأطلب أي شيء منك، لكني فكرت أن أستفيد من شعورك بأنك مدينة لابنتي بشيء يمكنك سداده بإعطائي ما لا أملكه، جسدًا، جسدًا قادرًا على المساعدة.

توقفت "إيلينا"، فقد قالت ما جاءت لتقوله ورغم أنها لم تطرح أي أسئلة، فإنها تنتظر الرد. لا تقول "إيزابيل" أي شيء. جلست المرأتان في صمت، حتى بدأت "إيلينا" تشعر بعدم الارتياح فواصلت الحديث: - بفضل ابنتي لديك ابنتك، لقد بنيت عائلتك، يمكنك التواصل معهم، وفي كل عام جديد تحتضنينهم بقوة كما نرى في تلك الصور التي ترسلينها لنا. كان لقصتك نهاية سعيدة، لكن أنا لم يتبقَ لي أحد لأحتضنه، لم أكن أعانق ابنتي كثيرًا عندما كانت بقيد الحياة، ولا أستطيع فعل ذلك الآن، لأنها ماتت، لأن جسدها في الأرض، وكلنا من تراب وإليه سنعود مرة أخرى، كما قال زوجي، هذا مؤلم. هذا مؤلم.

بينما تتحدث "إيلينا"، تبدأ العلة في السيطرة على لسانها وتخرج كلماتها بشكل أخرق، تضغط بعض المقاطع في أصوات لا معنى لها ولا تستطيع المرأة الأخرى فهمها. تصب "إيزابيل" لنفسها مزيدًا من الشاي، وتتناول رشفة، وتحدق في "إيلينا"، لكنها لا تتحدث، قررت عدم الحديث في الوقت الحالي، ستسمع.

يقفز القط مرة أخرى بجانب "إيلينا"، ثم يبدأ في المشي على طول الجزء العلوي من الأريكة. تراقبه "إيزابيل" وهو يسير خلف ظهر "إيلينا" المنحني، وتتبعه بعينيها. تشعر أن الحيوان يزعج المرأة التي تجلس منحنية أمامها لكنها لا تتدخل، ولا تبعده عنها، وهذه المرة لم تسأل "إيلينا" حتى إذا كان القط يزعجها، إنها فقط تراقب القط ثم "إيلينا"، تراقب هذه المرأة التي قرعت جرس بابها لتستدعي دينًا يبلغ من العمر عشرين عامًا لم تنسَه.

لم تنسَ "إيزابيل" الدين أيضًا، لكنها تتذكر الأشياء بشكل مختلف. تضع فنجان الشاي على الطاولة وترى الآن "إيلينا" من منظور مختلف. تراقب رأسها المنحني، وجذعها المائل، وكتفيها المنحدرتين، ويديها المطويتين في حضنها ممسكتين بمنديلها الرطب، والطريقة التي يميل بها جسدها إلى

اليسار. تنظر إلى حذائها المتسخ وتنورتها المجعدة، ورغم كل ما تراه، تقول: - "إيلينا"، لا أستطيع مساعدتك.

تقولها بهدوء، وكأنها انتظرت هذه اللحظة طوال حياتها، وكأنها أعدت كل كلمة مسبقًا: - لا أستطيع مساعدتك لأنني قتلت ابنتك.

تتسع عينا "إيلينا" بشكل لم تكن تعتقد أنها تستطيعه، وبدأت في الاهتزاز، وليست العلة التي تجعلها ترتجف، ولكنها "إيزابيل"، المرأة التي انطلقت في البحث عنها هذا الصباح والتي تجلس قبالتها الآن وتقول إنها قتلت ابنتها.

- قتلتها.. تمنيت لها الموت مرات عدة.

أوضحت "إيزابيل"، لأنها تدرك أنها بحاجة إلى ذلك: - لم يمر يوم واحد في حياتي لم أطلب فيه من إله، أو ساحر، أو نجم ما أن تموت ابنتك، والآن هي ميتة أخيرًا.

"إيلينا" لا تستطيع التنفس، يسيل لعابها ويتدفق بحرية، كما لو أن لعابها هو دموعها، ترتجف، لكنها لا تبكي.

- أنا آسفة، أعلم أنك والدتها ويمكنني أن أتخيل ألمك، لكنه ليس ألمي. لقد قتلت ابنتك لكنني لن أدخل السجن أبدًا بسبب ذلك، لأنني قتلتها بأفكاري. قتلتها بتمني موتها مرات عدة. قتلتها دون أن أتحدث معها مرة أخرى، دون أن أراها وجهًا لوجه. قتلتها، حتى لو أن شخصًا آخر هو من وضع الحبل حول رقبتها، مثلما قتلتني في ذلك اليوم، عندما وجدتني، وحبستني في غرفتها. هل تتذكرين ذلك اليوم يا "إيلينا"؟

قالت "إيلينا" إنها تتذكر بالطبع وإنها لن تكون هنا لو لم تفعل ذلك وأضافت: - تفهمين الأمور بشكل خاطئ يا "إيزابيل"، أنا لا أفهم ما تقولينه.

تجيب "إيزابيل": - لدينا أفكار مختلفة عن الدَين المستحق يا "إيلينا"، نحن لا نتفق حتى على من يدين لمن بماذا.

- ما الذي تتحدثين عنه إذًا؟

تسألها "إيلينا" وهي تمسح فمها بالمنديل وتختلط المقاطع الأخيرة من كلماتها باللعاب وتتحول إلى عجينة. تصمت المرأتان للحظة أخرى، ويتنقل القط بينهما. تقف "إيزابيل" وتشعل مصباحًا، تعرف "إيلينا" أنه لم يكن ضروريًا.

- أمر غاية في العبث! طوال هذا الوقت كنت تظنين أنني مدينة لابنتك، على مدى عشرين عامًا كنت تؤمنين بشيء مختلف تمامًا عما أؤمن به. لقد

عشتُ حياتي وعشتِ حياتك، لقد تخيلت كل منا ما حدث في الماضي بطريقتها، في ذلك اليوم، كما لو أننا لم نكن معًا في المكان والوقت نفسيهما.

قالت "إيلينا": - إنه أمر سخيف، نعم، "ريتا" متصلبة الرأي، كانت قاسية، ولكن بفضل قسوة ابنتي أنت اليوم لديك ابنتك، عليك أن تدركي الخير مع الشر.

قاطعتها "إيزابيل": - لم أفهم هذا القول أبدًا يا "إيلينا"، ما هو ذلك الخير الذي تشيرين إليه؟ وهل يأتي الخير مع الشر، أم يأتي الشر بسبب الخير؟

قالت "إيلينا": - أنت تخلطين كل شيء مرة أخرى، أنت تحيرينني، وتطرحين كثيرًا من الأسئلة.

- لم أرد أن أصبح أمًا.

كررت "إيزابيل" الكلمات نفسها بعد عشرين عامًا. "إيلينا" تصحح لها: - كنتِ تعتقدين أنكِ لا تريدين أن تصبحي أمًا.

لكن المرأة تصر على أنها لم ترغب في ذلك أبدًا.

- كنتِ تعتقدين ذلك قبل أن تحملي الطفلة بين ذراعيك، ولكن بمجرد أن وضعتها في حضنك، وأرضعتها من ثديك، فأنت..

لم تستطع "إيلينا" إنهاء جملتها لأن "إيزابيل" قاطعتها مرة أخرى قائلة: - لم أتمكن أبدًا من إرضاعها، كان ثدياي فارغين.

قالت "إيلينا": - أنا آسفة.

قالت المرأة: - لا تتأسفي، لم أرغب في أن أكون أمًا، أراد الجميع ذلك، زوجي، شريكه، ابنتك، أنتِ، نما جسدي لمدة تسعة أشهر وولدت "خولييتا"، التي حُكم عليها بالحياة مع امرأة لا تريد أن تكون أمًا.

"إيلينا" تستمع، ثم تقول: - حتى رأيتها، وهي هنا الآن، تعيش في منزلك، تناديك بماما.

- إنها لا تناديني بماما، إنها تناديني بـ"إيزابيل"، كانت تعرف دائمًا، ولم يكن عليَّ حتى أن أقول لها ذلك. فعلت كل ما بوسعي، وأديت واجباتي، أطعمتها، وأخذتها إلى المدرسة، واشتريت ملابسها، وأقمت حفلات أعياد ميلادها، حتى أنني أحببتها بطريقة غريبة، إنها شخص طيب، ومن السهل أن تحبيها. لكنني لم أحبها أبدًا كما لو كانت ابنتي. أحبها والدها، كان هو أباها وأمها. إنه الشخص الذي يلتقط الصور ويرسلها لكما كل عام، هو وشريكه، الأب الروحي لـ"خولييتا"، الذي يشاركه العيادة وأشياء أخرى. إنهما والداها. أما أنا فشيء

آخر، شيء ليس له اسم، شخص يهتم بها كما تهتمين بصديق أو جار أو رفيق في السكن أو رفيق سفر. هذا كل ما نحن عليه. رفقاء سفر. لا أعرف ما شعور أن تكوني أمًا لأنني لست كذلك. ما شعور أن تكوني أمًا يا "إيلينا"، هل يمكنك أن تخبريني؟

"إيلينا" لا تستطيع الكلام، إنها ترتجف كما لم تفعل من قبل. لم تعد تريد أن تسمع ما تقوله هذه المرأة: "ليفودوبا"، "الدوبامين"، العلة، العاهرة، "ميتري"، "25 مايو"، "مورينو"، "بانفيلد"، "لانوس"، "لوبو"، ميدان سباق الخيل، تكرر الأسماء، وتغير الترتيب، وتخلط الكلمات التي لم يعد لها أي معنى، ولكن في أثناء صلاتها المشوشة، يمكنها سماع ما تقوله "إيزابيل": - لم أكن أمًا على الإطلاق رغم أنك حاولت إجباري على أن أكون أمًا. سيكون من المناسب الآن، بعد عشرين عامًا، أن تتمكني أخيرًا من فهم ذلك.

تسير المرأة إلى رف المدفأة، وتلتقط صورة لزوجها وابنتها وتعطيها إلى "إيلينا".

- هذا ما نحن عليه؛ مجرد صورة. صورة عائلية يُعجب بها الآخرون.

تنظر "إيلينا" إلى الصورة التي رأتها بالفعل، لكنها تنظر إليها بشكل مختلف الآن، وتبحث عن دلائل على الحقيقة. ربما تكون ابتسامة "إيزابيل" في الصورة مزيفة، أو ربما ذراعاها المتشابكتان تحت صدرها تدل على أنها غير مرتاحة، أو ربما لأن نظرتها لا تلتقي بعدسة الكاميرا، كما لو أنها نظرت إلى الكاميرا بعد ثانية من التقاط الصورة، متأخرة لأنها كانت في مكان آخر أو في زمان آخر. تضع "إيلينا" الصورة على الأريكة وتحاول الوقوف لكنها لا تستطيع ذلك. إنها تريد مغادرة هذا المنزل الآن لأنها تعلم أنها لن تجد ما تبحث عنه. إنها تريد العودة إلى البيت، وتتبع مسارها في الاتجاه المعاكس: "أوييروس"، "ليبرتادور"، ميدان سباق الخيل، لكنها تخلط ترتيب الشوارع، ولا يمكنها الوقوف، إنها ترتجف. تذهب"إيزابيل" إليها: - هل تحتاجين إلى المساعدة؟

أجابت "إيلينا": - لا فائدة، يجب أن أنتظر.

تقول المرأة: - انتظري إذًا.

وضحت "إيلينا": - سأضطر إلى الانتظار هنا.

نظرت إليها "إيزابيل" ثم قالت: - لقد انتظرنا بالفعل كل هذه السنوات.

تصمتان مرة أخرى.

"إيلينا" تعرف أن "إيزابيل" تنظر إليها، وهي تعرف ما الذي تنظر إليه. تراقب "إيلينا" المرأة الأخرى التي تجلس أمامها وتفحص ساقيها المتقاطعتين

والعروق الزرقاء الصغيرة مثل شباك العنكبوت. تلاحظ "إيزابيل" ذلك وتحركهما بعيدًا. تقول "إيلينا": - سارت الأمور بشكل مختلف.

- مختلف عن ماذا؟

- عمَّا كنت أتخيله دائمًا، مختلف عمَّا جعلني آتي إلى منزلك. لم أكن لآتي لو علمت.

تحني "إيزابيل" رأسها لتنظر في عين "إيلينا"، لكن "إيلينا" تتجنب نظرتها. تقول"إيزابيل": - لست متأكدة من ذلك، ربما كنتِ ستأتين على أي حال.

- أنت تحيرينني.

قالتها "إيلينا"، وأخذت تنظر في جميع أنحاء الغرفة رغم أنها لا تعرف ما الذي تبحث عنه. تراجعت "إيزابيل" إلى الخلف في مقعدها.

- في ذلك اليوم، أخبرتني ابنتك أنه إذا أجريتُ عملية إجهاض، فسوف أظل أسمع بكاء طفلة في رأسي لبقية حياتي، لكنها لم تجرِ عملية إجهاض هي نفسها، ولم تكن تعرف، كانت تكرر ما قاله لها شخص آخر، ربما رجل، وربما لا، لكنه شخص يعتقد أنه يعرف. كنت أرغب في التحدث إلى ابنتك قبل وفاتها لأخبرها بما كنت أسمعه في رأسي كل يوم من أيام حياتي منذ ذلك الحين، منذ ذلك اليوم الذي جرتني فيه وأنا مصابة بالدوار والقيء إلى منزلك.

تبذل "إيلينا"، رغم حيرتها، جهدًا للاستماع، ومتابعة ما تقوله المرأة الأخرى، تغمض عينيها، وتركز على فهم الكلمات، لكنها لا تفهم سوى أجزاء فقط مما تقوله "إيزابيل": - لا أعرف ما هو الشعور عند إجراء عملية إجهاض، لكنني أعرف ما شعورى كوني أمًا رغم أنني لا أريد أن أصبح أمًا يا "إيلينا". أعلم كيف أشعر ولديَّ ثديان فارغان، والشعور بالذنب عندما تمتد يدها الصغيرة ليدك، ولكنك لا تريدين أن تلمسيها، لا تريدين أن تهزيها، أو تلفيها في ملابسها، أو تدفئيها أو تحتضنيها، والإحساس بالعار من شعورك بعدم الرغبة في أن تكوني أمًا، لأن الجميع، كل الأشخاص من حولك يقولون إنهم يعرفون ما الذي يتحدثون عنه، ويصرون على أن الأم يجب أن تكون أمًا.

تتوقف المرأة لإزاحة شعرها عن وجهها وتمسح العرق عن جبينها. تضغط "إيلينا" على منديلها المكور لكنها لا تقدمه لها لأنها تعلم أن قطعة القماش التي تستخدمها لمسح لعابها غير صالحة للمشاركة مع أحد. تضيف "إيزابيل": - أشخاص مثل ابنتك، التي لم تكن تعرفني حتى، ابنتك التي لم يكن لديها الجرأة لتصبح أمًا بنفسها، ولكنها تعاملت مع جسدي كما لو كان من حقها أن تستخدمه، مثلك تمامًا اليوم. لم تأتِ إلى هنا لتسوية دين، ولكن لارتكاب الجريمة نفسها مرة أخرى بعد عشرين عامًا. جئتِ إلى هنا لاستخدام جسدي.

قالت "إيلينا": - لم أفعل.

- أليس هذا ما قلته لي منذ بضع دقائق؟

- لا، هذا ليس سبب مجيئي.

- لكن هذا ما قلته.

- لا أعرف ما قلته. يجب أن تعرفي أنكِ تربكينني.

- لماذا أتيتِ إلى منزلي يا سيدتي؟ قولي ما تريدين قوله مرة واحدة وأخيرة، وارحلي.

لا تستطيع "إيلينا" رؤية عيني "إيزابيل" لكنها تعلم أن المرأة تبكي، فهي تعرف من ارتعاشة ساقها. أعطتها "إيلينا" لحظة. تحدق في السجادة، وقدما "إيزابيل" تحتكان ببعضهما، تلمسان بعضهما. ثم تبحث حولها عن القط، ولكنها لا تجده. تعرف أنها يجب أن تقول شيئًا ما، وتوضح سوء التفاهم، وتوضح أنها لم تأتِ لارتكاب أي جريمة، وأنها لم ترتكب أي جريمة في حياتها، لكنها لا تستطيع، ولا يمكنها حتى التفكير بوضوح. لم تعد تعرف أي شيء.

تحدثت "إيزابيل" أولًا، كررت للمرة الثالثة، وهي تبكي الآن، السؤال الذي لم تستطع أي منهما الإجابة عليه حتى الآن: - لماذا أتيتِ إلى هنا اليوم؟

تكرر "إيلينا" الكلمات عدة مرات داخل رأسها لإسكات صوت بكاء "إيزابيل". تضيفها إلى كثير من الكلمات الباكية، الملك والعاهرة والـ"ليفودوبا" و"الدوبامين"، والشوارع من الآخر ومن الأول، لكنها أفسدت الأمر، تعلم أنها نسيت بعضًا منها، لدرجة أنها تخطت أكثر مما أرادت، تبدأ من جديد، تكرر الصلاة، لكنها تتوه. لقد شعرت بالتشتت من بكاء "إيزابيل"، والآن أسئلتها.

- كيف يمكنك التأكد من أن ابنتك لم تنتحر؟

- لأنها كانت تمطر، اللعنة! وكانت ابنتي تخاف من الصواعق، وكانت تخشى أن تضربها الصواعق، ولم تكن لتذهب مطلقًا بالقرب من الكنيسة في يوم ممطر.

لكن "إيزابيل" لا تتزحزح: - كلمة "مطلقًا" لا تنطبق على جنسنا البشري، فهناك كثير من الأشياء التي نعتقد أننا لن نفعلها أبدًا، ومع ذلك، عندما نجد أنفسنا في الموقف، نقوم بها.

تشعر "إيلينا" بالحرارة ترتفع في جسدها ودمها يغلي، لا تعرف ماذا تفعل، ماذا تقول، أو تعتقد أنها تعرف، أنها ترغب في ضرب هذه المرأة الجالسة أمامها، تمسك بها من كتفيها وتهزها، ثم تنظر في عينيها وتصرخ في وجهها لتجعلها تسكت إلى الأبد. ولكن بقدر ما ترغب في ذلك فلا يمكنها. لا يمكنها

حتى الوقوف والمغادرة. لقد علقت هنا، في هذا المنزل، عالقة في الفخ الذي نصبته لنفسها، ومجبرة على الاستماع إلى ما تقوله "إيزابيل"، مثل اللعنة. التفكير في حقيقة أن لعنتها لا مفر منها، وأنها عاجزة، جعل الحرارة تنحسر تدريجيًا، وجسدها يسترخي، وتعود مرة أخرى امرأة عجوز منحنية، تستمع إلى ما تقوله امرأة أخرى. تجفف "إيزابيل" دموعها بيديها ثم تمسح يديها في تنورتها. أخذت نفسًا عميقًا لتتأكد من أنها لن تبكي، ثم قالت: - يمكن أن أقسم أنني لم أفكر مطلقًا في إجراء عملية إجهاض، ربما فكرت في الأمر فقط، دون أن أكون حاملًا، كان قراري في رأسي وليس في جسدي. فكرت في ذلك حتى قبل أن يكون هناك أي شيء بداخلي. اليوم الذي قررت فيه أن أجهض هو عندما ذهبت للحصول على نتائج الاختبار ورأيت أنها إيجابية، فلم يعد الأمر مجرد فكرة خيالية فقط. عرفت الحقيقة لأول مرة.

تنظر "إيزابيل" إلى "إيلينا"، في انتظار أن تقول شيئًا ما، لكن "إيلينا" لا تستطيع الكلام، لذا تواصل "إيزابيل": - يخلط الناس بين التفكير والمعرفة، ويسمحون لأنفسهم بالخلط بين الاثنين. عندما قرأت نتائج الاختبار ورأيت أنها إيجابية، عرفت أن ما بداخلي لم يكن طفلًا، وكان عليَّ التعامل معه بأسرع ما يمكن.

تمسح "إيلينا" بمنديلها على وجهها كما لو كانت تتعرق أيضًا، وتشعر بقطعة القماش المبللة على بشرتها. أكملت "إيزابيل": - يمكنهم إخبارك عشرات المرات بما ستشعرين به عند إصابتك بمرض "باركنسون"، بكلمات دقيقة وصور، وبكافة التفاصيل، لكنكِ لن تعرفي الحقيقة إلا عندما يكون المرض داخل جسدك. يمكنك عندها أن تتخيلي الألم والإحساس بالذنب، والعار، والإذلال. لكنك لن تعرفي شيئًا ما إلا بعد أن تختبريه في حياتك، فالحياة هي أعظم اختبار لنا.

تقف "إيزابيل" وتمشي إلى النافذة، تنظر إلى الخارج، إذا استطاعت "إيلينا" أن ترى، فسترى شجرة تزدهر بأوراق خضراء جديدة، لكن بما أنها لا تستطيع الرؤية، فإنها تتساءل فقط عما تنظر إليه المرأة.

- لم أحب زوجي أبدًا، كنا عذارى عندما تزوجنا، وفي البداية لم أكن مستريحة معه بما يكفي لممارسة الجنس، ولم نتمكن من فعل ذلك. ولم يحدث الأمر إلا بعد ثلاثة أشهر من الزواج عندما قمنا بذلك أخيرًا، وكان عنيفًا. فتح ساقيَّ بعيدًا عن بعضهما وقال: "سوف تمارسين الجنس معي شئتِ أم أبيتِ". أُصبتُ بكدمات لعدة أيام، وألم، استمر الألم لفترة طويلة، ولم يكن ذلك في تلك الليلة فقط. استمر في فعل ذلك حتى حملت ولم يلمسني بعدها مرة أخرى. مرت عشرون عامًا منذ أن لمسني، هل يزعجك أنني أخبرك بهذا؟

تفكر "إيلينا" في أن ألم "إيزابيل" لا يزعجها مثل ألمها الشخصي لكنها لا تقول شيئًا، تشير بيدها حتى تستمر المرأة في الحديث: - يخرج مع شريكه. يقومان برحلات معًا، فهما رفيقان. أطلق عليه زوجي لقب الأب الروحي لـ"خولييتا". هذا هو في الصورة على رف المدفأة.

تمشي "إيزابيل" إلى الرف وتلتقط الصورة، تنظر إليها للحظة ثم تأخذها إلى "إيلينا"، إلى الأريكة التي أصبحت محاصرة عليها. تحمل "إيلينا" الإطار وتنظر إليه، تقول "إيزابيل": - هذا هو.

تصمت المرأتان مرة أخرى. "إيلينا" لا تعرف ماذا تفعل بالصورة التي في يدها، تبحث عن الصورة الأخرى، تلك التي نظرت إليها سابقًا، حيث كان والد "خولييتا" يضع ذراعيه حول المرأتين، وضعت الإطارين معًا وأعطتهما إلى "إيزابيل"، التي لا تنظر إليهما، بل تضعهما مرة أخرى على الرف، في المكان نفسه بالضبط والمسافة نفسها من بعضهما كما كانا من قبل.

- في الليلة التي أخذني فيها زوجي بالقوة لأول مرة، كان شريكه هناك، لم أره، كانت غرفة النوم مظلمة، لكنني متأكدة من أنه كان هناك، لم يكن لدى "ماركوس" الشجاعة للقيام بذلك بمفرده، لم يكن ليتمكن من ذلك وحده. كان هنا أيضًا بعد ظهر ذلك اليوم، عندما أعدتماني إلى المنزل، عندما توسلت إليكما ألا تتركاني أعود. ساعد زوجي في إبقائي تحت السيطرة طيلة الأشهر التسعة التي كنت حاملًا فيها. أبقياني كالسجينة، مخدرة. كانت هناك ممرضة معي طوال اليوم، كما لو كنت مجنونة. قالوا لي إنني مجنونة، وكانت هناك ممرضة أخرى في الليل تراقبني وأنا نائمة. اهتما بكل شيء، وسمحت لهما بذلك. لم أكن أبدًا امرأة قوية، المرة الوحيدة التي تمكنت فيها من حشد أي شجاعة كان بعد ظهر ذلك اليوم، عندما وجدتني "ريتا" في مكان بالقرب من منزلك.

تتذكر "إيلينا": - من هذه المرأة؟ ولماذا عدتِ من العمل؟

- سمعت صوتًا يا ماما.

تواصل "إيزابيل": - أعطتني ممرضة من عيادة زوجي العنوان. رأتني أبكي بعد أن ذهبت لرؤيته ومعي نتائج الاختبار، ربما سمعت الصراخ أيضًا. كان يعلم بالفعل، فقد أخبره المختبر، المجال الطبي يملؤه المخبرون الذين يعملون لصالح من يتمتعون بالسلطة. ذهبت أتوسل إليه، لأخبره أنني لا أريد أن أنجب طفلًا. صفعني على وجهي، وقال إنه يخجل مني، ولولا الحمل بداخلي لطلقني فورًا. خرجت إلى قاعة الانتظار، ولم أستطع المشي فجلست، وحينها اقتربت مني المرأة؛ الممرضة، ودون أن تقول أي شيء، وضعت ورقة في جيبي

عليها عنوان واسم "أولجا". لم أكن أبدًا امرأة قوية، فقد فقدت كل القوة التي استجمعتها بعد ظهر ذلك اليوم، عندما التقينا لأول مرة.

لا تزال "إيلينا" ترتجف، تقترب منها "إيزابيل"، ورغم أنها لم تقل شيئًا، فإن صوتها يتردد داخل رأس "إيلينا"، تسألها مرارًا: "لماذا أتيت؟"، يجتاحها صوت "إيزابيل" لدرجة أنها لا تستطيع حتى تلاوة الشوارع التي ستعيدها إلى المنزل. قالت "إيزابيل": - في يوم من الأيام، يوم ما، مثل اليوم الذي وجدتني فيه ابنتك أتقيأ على الرصيف، أو اليوم الذي عُثر فيه على ابنتك معلقة في برج جرس الكنيسة، أو اليوم الذي ستختبرنا فيه الحياة بشكل حقيقي وليست بروفة. في ذلك اليوم سوف ندرك أخيرًا أننا جميعًا بمفردنا، مجبرون على مواجهة أنفسنا، ولن يتبقى لنا أكاذيب نتشبث بها.

تذهب المرأة إلى النافذة وتقوم بتسوية الستارة، تفك الأربطة التي تبقيها مفتوحة ثم تعيد ربطها. تنظر "إيزابيل" إلى "إيلينا"، وهي جالسة هناك صامتة ورأسها منحنٍ، غير قادرة على النظر في وجهها. تقترب وتجلس بجانبها وتنتظر. سوف تنتظر حتى تصبح "إيلينا" قادرة على قول أي شيء.

- كانت السماء تمطر.

قالتها "إيلينا" في النهاية. لا تسمح "إيزابيل" لنفسها بأن تشعر بالأسف تجاه المرأة: - لا أحد يجادل في هطول المطر.

- هذا كل ما لديَّ.

- إذًا ليس لديكِ شيء.

تصرخ "إيلينا" بغضب: - ماذا تريدين مني؟

ترد "إيزابيل": - لا أريد منك شيئًا، فأنتِ من أتيتِ إلى منزلي.

تقول "إيلينا": - إنك تربكينني وتجعلينني أخلط كل شيء.

تنتظر "إيزابيل"، تمنحها مزيدًا من الوقت وفقط عندما تعتقد أنها مستعدة للاستماع، قالت: - لم أكن لأعلم أبدًا أنني كنت قادرة على القيام بمثل هذا الشيء حتى توقفت دورتي الشهرية وعادت نتائج الاختبار المعملية إيجابية. ما الاختبار الذي وضعته الحياة أمام ابنتك لتجعلها تفعل شيئًا لم تعتقد أبدًا أنها ستفعله؟ ما الذي جعلها تقرر أنها لا تمانع في الذهاب إلى الكنيسة في يوم كهذا؟ ما الذي يمكن أن يكون فظيعًا لدرجة أنها فضلت المشي في أثناء الرعد والبرق، الذي تعتقد أنه يمكن أن يقتلها؟ ربما أرادت الشيء نفسه الذي كانت تخاف منه قبل ذلك، أن تنزل عليها صاعقة البرق وتقسمها إلى نصفين. وعندما لم يحدث ذلك، عندما وصلت إلى هناك وأدركت أن الأمر كله كذبة،

كانت مبللة لكنها لا تزال بقيد الحياة، اختارت تسلق البرج، وربطت هذه العقدة التي لم تكن تعتقد أنها تعرف كيف تربطها. وضعت الحبل حول رقبتها، وشنقت نفسها.

3

قبل يومين من العثور عليها معلقة في جرس الكنيسة، ذهبت "ريتا" لرؤية الدكتور "بينيجاس". لم تعرف "إيلينا" ذلك، فالطبيب لم يخبرها، لكنه أخبر المفتش "أفييانيذا" بعد وفاة "ريتا". أرادت "إيلينا" أن تعرف ما الذي تحدثا عنه في ذلك اليوم، لكنها لم تعتقد أنه من المهم أن تسأل، والآن وهي بعيدة جدًا، تحتاج للحصول على إجابات.

لكنها تعرف ما دار بين "ريتا" والطبيب قبل حوالي أسبوعين من ذلك، لأنها كانت هناك. كانت هذه آخر مرة رأت فيها الأم وابنتها الدكتور "بينيجاس" معًا، ليس في عيادته، ولكن في المستشفى. كان قد اقترح أن تدخل "إيلينا" المستشفى لبضعة أيام لإجراء مجموعة من الفحوصات: - من الأفضل أن تقومي بذلك مرة واحدة يا "إيلينا"، فأنت لا تريدين كثيرًا من الحركة والمشاوير.

دخلت "إيلينا" المستشفى، أحضرت معها ثوبين جديدين للنوم لكنها لم ترتدِ سوى واحد فقط. تحتفظ دائمًا بثياب نوم جديدة في متناول يدها، منذ أن علمت أنها مريضة.

- في حال اضطررت للذهاب إلى المستشفى فجأة.

ولكن حتى مع قضاء ليلتين في المستشفى، استخدمت ثوبًا واحدًا فقط، ولا تعرف السبب. أخذوا عينات دم، وأجروا أشعة بالرنين المغناطيسي، واختبروا ردود أفعالها عن طريق النقر على ركبتيها، والنظر في عينيها، والنظر داخلها بآلة أو أشعة أو شيء من هذا القبيل. لكنهم فحصوها، وهي تعرف ذلك، جعلوها تمشي، وترفع ذراعيها، وتنزلها، وتجلس، وتقف. وقالوا لها: - جيد جدًا يا "ماريا".

رغم أن لا أحد يناديها باسمها الأول، فإن بطاقة هويتها تقول "ماريا إيلينا"، ودخلت المستشفى تحت اسم "ماريا إ."، لكنهم تجاهلوا حرف الألف. طرحوا أسئلة: - كم من الوقت تحتاجين لتشعري بالتحسن بعد تناول حبوب الدواء؟ كم من الوقت حتى يبدأ مفعول الدواء يا "ماريا"؟ وكم من الوقت يستمر تأثيره؟

دونوا جميع إجاباتها وملاحظاتهم حول ما لاحظوه. كانت تتلقى العلاج من قبل أفضل المتخصصين في مرض "باركنسون" في البلاد، كما أخبرهما الدكتور "بينيجاس" وفريقه بأكمله، لأن الأخصائي لم يأتِ بمفرده ولكن مع حاشية كاملة، مجموعة من عشرة أطباء مقيمين يعملون معه، فخورين بأن يكونوا جزءًا من كلية الطب هذه وأن يتعلموا منه ومنها.

في بعض الأحيان، كان يأتي اثنان أو ثلاثة منهم، ليسألوا عن أشياء سبق أن سألوا عنها، أو لقياس ضغط دمها، أو لمجرد النظر إليها. أحيانًا يخلطون بين المرضى ويسألونها عن بعض الأمراض التي لم تسمع بها من قبل. أو يسألونها عن أعراض لم تعانِها أبدًا، وتشعر للحظة بالارتياح، لأنه إذا لم تكن تعاني هذه الأعراض فهي ليست في حالة سيئة.

بعد ذلك، بفضل سؤال أو تعليق بالصدفة: "أين زوجك اليوم يا "زوليما"؟"، تدرك أنهم لا يتحدثون عنها، فهم دخلوا الغرفة الخطأ، أو التقطوا التقارير الخطأ، أو كانوا في الطابق الخطأ أو في الجناح الخطأ. كانت لطيفة معهم رغم ذلك، فإذا كان بإمكان أي شخص مساعدتها فهم هؤلاء الأطباء، فكلما زاد عددهم كان ذلك أفضل. لكنهم لم يساعدوها. بعد يومين واختبارات لا حصر لها، جاء الدكتور "بينيجاس" لإعطائها النتائج: - حسنًا، أنت تعلمين أنه يجب دراسة مرض "باركنسون" وتطوره إكلينيكيًا، لا يوجد اختبار يمكن أن يخبرنا بشكل قاطع أنك مصابة به، أو إلى أي مدى أنت مصابة به، أو مدى تطور المرض، لذلك يمكننا فقط مراقبته إكلينيكيًا، هل تفهمين؟

لم تجب المرأتان على ما قاله، فتابع "بينيجاس": - مع وضع ذلك في الاعتبار، من واجبي توصيل المعلومات التي جمعها الفريق ومشاركة الاستنتاجات التي توصلوا إليها معكما.

قالت "ريتا": - أخبرنا يا دكتور.

- لا أعرف ما إذا كنتِ يا "إيلينا" سترغبين في سماع ذلك.

قالت "إيلينا": - أخبرنا يا دكتور.

- والدتك مصابة بنوع معين من مرض "باركنسون"، ما نسميه "باركنسون بلس"، هل تفهمين؟

سألت "إيلينا": - "بلس"؟

أوضح "بينيجاس": - إنه مرض أكثر من مرض "باركنسون" المعتاد الذي نراه كل يوم. لقد أجرينا مجموعة كاملة من الاختبارات قبل الوصول إلى هذا الاستنتاج، ولم يعد لدينا أي شك، إنه "بلس".

كررت "ريتا": - "بلس".

أكد الطبيب: - نعم.

سألت "إيلينا": - "بلس" تعني المزيد؟

سألت "ريتا": - المزيد؟

أكد الطبيب: - نعم، المزيد.

سألت "ريتا" مرة أخرى: - المزيد؟ هل هناك المزيد يا دكتور؟

أجابتها "إيلينا": - على ما يبدو يا طفلتي.

لكن "ريتا" لم تكن راضية عن إجابة والدتها وتابعت: - أتعتقد أن ما نتعامل معه الآن لا يكفي يا دكتور؟

- لا، أنا لا أقول ذلك، أنا أقول إن هناك المزيد.

- وأنا يا دكتور أتساءل عما إذا كنت تعرف ما الذي تتحدث عنه.

وبختها "إيلينا": - "ريتا"!

- هل تقول إن هناك المزيد؟

تجاهلتها ابنتها وواصلت: - أكثر من اللعاب السائل، التبول اللا إرادي ورائحة البول الكريهة اللصيقة بها، بغض النظر عن محاولات تنظيفها، أكثر من عدم القدرة على السير بمفردها، أكثر من جر قدميها في الخطوات القليلة التي يمكنها أن تمشيها بفضل حبوب"ليفودوبا"، قل لي: ماذا يمكن أن يكون هناك أكثر من ذلك يا دكتور؟ أخبرني!

كررت "ريتا"، ونظرت إليه، حتى امتثل لها "بينيجاس": - "ريتا"، أعتقد أنه أمام والدتك، لا يجب علينا..

لكنه لم يُكمل بقية الجملة فقد قاطعته "ريتا": - أكثر من إجبارها على التحديق في الأرض، محكوم عليها بقضاء بقية حياتها ورأسها لأسفل وكأنها تشعر بالخزي، أكثر من أنها مجرد تذكير مزعج للأشخاص الذين يريدون تجنب رؤيتها، المزيد؟

- "ريتا"، أفهمك، لكن هذا ليس الوقت المناسب.

أكدت له: - لا، أنت لا تفهم.

- إنه ليس خطأ الطبيب يا ابنتي.

- ولا خطأي أيضًا يا ماما.

قالت "إيلينا": - من الأفضل أن نذهب.

لكن "ريتا" لم تنتهِ بعد وقالت: - أكثر من عدم القدرة على الجلوس أو النهوض من دون مساعدة، أو قص أظافر قدمها، أو ربط حذائها؟ أهناك المزيد؟ أكثر من أن تكون بالكاد قادرة على البلع، وبالكاد قادرة على التنفس، وتعتقد أنها ستختنق؟ أكثر من اضطرارها إلى المحاولة مائة مرة

قبل أن تتمكن من التقاط حبة الدواء بيديها، أكثر من الاضطرار إلى الشرب من خلال ماصة بلاستيكية سخيفة، أكثر من كونها غير قادرة على سحب ملابسها الداخلية لأعلى أو لأسفل بمفردها، أو مسح مؤخرتها بعد أن تتبرز؟

- هذا يكفي يا طفلتي.

حاولت "إيلينا" إسكاتها، لكن "ريتا" لم تكن تستمع إلى أي شخص سوى نفسها وأكملت: - هل هناك المزيد يا دكتور؟ أكثر من عدم القدرة على غلق أزرار السترة أو ارتداء ساعة أو إغلاق حقيبة يدها، أكثر من كونها غير قادرة على وضع طقم الأسنان الخاص بها أو خلعه، أكثر من السقوط إذا لم يكن هناك شيء يدعم جذعها، شيئًا فشيئًا، بشكل غير محسوس تقريبًا، حتى تستلقي على مقعد في الحديقة، أو تتكئ على أي شخص بجوارها، أكثر من عدم القدرة على التوقيع باسمها أو قراءة كتاباتها، أكثر من فكها المغلق وأنها لا تستطيع النطق ولا يمكنك سوى تخمين ما تحاول أن تقوله؟ المزيد؟ هل تقول إن هناك المزيد يا دكتور؟

حاول الدكتور "بينيجاس" الكلام: - سأطلب منك ..

لكنها قاطعته: - ليس عليك أن تطلب مني أن أفعل أي شيء.

بصقت "ريتا" وهي تقف، ووضعت يديها على المنضدة وانحنت حتى اقترب وجهها من وجهه، وقالت: - ألقِ نظرة، إذا كنت تجرؤ، في عينيها الميتتين، في وجهها الخالي من التعبيرات، وابتسامتها الجوفاء، هل ستطلب حقًا من هذه المرأة المسكينة المزيد؟

- والدتك قوية، يجب أن تكوني ممتنة لذلك.

- ولكن ماذا عني؟ ماذا تطلب مني؟

- أكثر من ذلك بقليل يا "ريتا"، أنا آسف، ولكن هذا هو الحال، سوف يُطلب منك المزيد.

- ماذا تقصد بالضبط؟

- لا تطلبي مني أن أقول أكثر من ذلك أمام والدتك.

قالت "إيلينا": - أنا لا أسألك، بل أطالبك بأن تقول لي كل شيء. أريد أن أعرف يا دكتور. أخبرني، ماذا سيحدث أيضًا؟

- إذا كان هذا ما تريدينه يا "إيلينا"، فأنا ملزم بإخبارك بكل ما أعرفه: سيتطور المرض بسرعة أكبر مما توقعنا، وفي وقت قصير قد لا تتمكنين من النهوض من السرير، ولن تكوني قادرة على إطعام نفسك، أو الذهاب إلى المرحاض دون مساعدة، ستتمكنين فقط من تناول السوائل أو الأطعمة شبه

السائلة، وسيكون من المستحيل فهم كلامك، ولن تكوني قادرة على القراءة، ومن المحتمل أن تعاني أعراض الخرف ونسيان الأشياء وفقدان الذاكرة. وأنت يا "ريتا" عليك أن تفكري في الاستعانة بشخص ما لرعاية والدتك في أثناء وجودك في العمل، وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل لكلتيكما. الوقت قصير.

وقفت "ريتا" دون أن ترفع عينيها عنه: - هل تقول إنها ستموت قريبًا يا دكتور؟

- لا، المهم هنا ليس مقدار الوقت المتبقي، بل نوعية الحياة.

- وما الحل يا دكتور؟

- لا يوجد حل يا "ريتا"، هذا ما عليها أن تتقبله.

قالت "إيلينا": - هذا ما يجب أن أتقبله يا طفلتي.

- هذا ما يجب أن نتقبله يا ماما، لا علاج، لا حل، لا شيء.

حدقت "ريتا" في الطبيب ثم قالت: - يمكنني التفكير في حل واحد يا دكتور.

- ما الحل؟

- أنت تعرفه.

- ماذا تقصدين؟

- أنت تقول "بلس"، أي المزيد، وإذا لم أستطع تحمل المزيد، فهناك شيء واحد يمكنني القيام به.

- لا أفهم.

- يمكن لأي شخص أن يختار يا دكتور.

- ليس دائمًا يا "ريتا". ما دام الشخص بقيد الحياة، فهناك دائمًا أمل، وستعيش والدتك، وهي تريد أن تعيش.

قالت "إيلينا": - أريد أن أعيش يا ابنتي.

قالت "ريتا": - إنني لا أتحدث عن والدتي، ولست متأكدة من أنني سأتمكن من التعامل مع المزيد.

قالت "إيلينا": - هل تريدين أن تتركيني في دار مسنين؟

- لا يا ماما، ليس في دار مسنين.

- اتركيني وحدي، لا تعتني بي إذا كنت لا تريدين ذلك، لكن اتركيني في منزلي.

- أنت لا تفهمين أي شيء يا ماما.

قال الدكتور "بينيجاس": - ستكونين قادرة على التعامل مع الأمر، عليكِ أن تفعلي ذلك من أجل والدتك.

- أريد أن أبقى في منزلي يا "ريتا"، يمكنني أن أفعل ذلك يا طفلتي.

نظر الدكتور "بينيجاس" إلى "ريتا": - يأتي وقت لنا لنرد ما قدمه لنا آباؤنا، فهي تحتاجك مثلما كنت تحتاجين إليها منذ سنوات، يجب أن تكوني أمًا لوالدتك يا "ريتا"، لأن "إيلينا" التي نعرفها ستتحول إلى طفلة.

سألته "ريتا": - طفلة، ماذا تقول يا دكتور؟ الأطفال جذابون، الأطفال لديهم بشرة ناعمة بيضاء، لعابهم نقي، يتعلم جسد الطفل الجلوس والوقوف، ويومًا ما سيتعلم المشي، ويحصل على أسنان جديدة بيضاء وصحية. ما تمر به والدتي هو عكس ذلك تمامًا. بدلًا من أن تتعلم التحكم في عضلاتها، فإنها ستتبول وتتبرز لا إراديًا، بدلًا من أن تتعلم الحديث، ستصبح صامتة، بدلًا من الوقوف مفرودة الجسم، ستصبح منحنية أكثر فأكثر، ومهزومة أكثر فأكثر، وأنا محكوم عليَّ أن أشاهدها وجسدها يموت دون أن تموت.

بكت "ريتا" لأول مرة منذ وقت طويل وقالت: - لا يا دكتور، أمي لن تصبح طفلة، ولا أعتقد أنني أستطيع أن أصبح الأم التي تطلب مني أن أكونها لأمي.

- يمكننا تقديم المساعدة والدعم يا "ريتا".

- مساعدة لي أم لها؟

- لكلتيكما.

قال الدكتور "بينيجاس": - خذا.

وهو يلتقط بعض الكتيبات والنشرات ويمسكها لعرضها على المرأتين. مسحت "ريتا" دموعها عن وجهها لكنها لم تلمس الورق الذي كان الطبيب يحاول تسليمه لها، فانحنت "إيلينا" وفتحت كفيها وانتظرت أن يضعه الدكتور "بينيجاس" في يديها. قالت: - أشكرك.

حاولت الإمساك بالنشرات قدر استطاعتها. ثم مدت ذراعها حتى تتمكن ابنتها من مساعدتها على الوقوف، وغادرتا.

عادتا إلى المنزل سائرتين في صف واحد، "ريتا" في المقدمة و"إيلينا" خلفها بعدة خطوات، مثلما يحدث عندما تتعاركان. لكنهما لم تتجادلا أو تضربا بعضهما بسوط الكلمات. لم تتحدثا طوال الطريق إلى المنزل. سارت "ريتا" أبطأ من المعتاد، لكنها لم تكن بطيئة بما يكفي لكي تلحق بها والدتها. عندما رجعتا إلى المنزل، أغلقت "ريتا" عليها غرفتها وذهبت "إيلينا" إلى المطبخ لتحضير العشاء. بدأت في تسخين المياه لعمل المكرونة، وانتظرت.

لتمضية الوقت حتى غليان الماء، أخرجت الكتيبات من حقيبة يدها ودعت ابنتها لتأتي حتى تتمكنا من النظر إليها معًا، لكن "ريتا" كانت في المرحاض ولم تستجب عندما نادت عليها، لذلك بدأت في قراءتها بنفسها. تخطت "إيلينا" كل شيء تعرفه بالفعل. لم تكلف نفسها عناء قراءة الوصف العام للمرض أو أعراضه، باستثناء الأعراض التي لم تسمع عنها من قبل، مثل وجه السمكة أو قناع ناتج عن قلة التعبير في عضلات الوجه. بذلت مجهودًا لإلقاء نظرة على انعكاس صورتها في زجاج النافذة التي غطاها البخار المتصاعد من الطهي. إذا كان لديها وجه سمكة فلم تكن تدرك ذلك، ولم يخبرها أحد. ضمت شفتيها كما لو كانت ترسل قبلة ثم فتحت وأغلقت فمها عدة مرات كما لو أن السمكة التي يخفيها وجهها تتنفس من خلال خياشيمها. ربما لديها وجه سمكة.

الأرق الحركي، عدم القدرة على البقاء ثابتة بلا حركة. هذا ليس من أعراضها، بإمكانها الجلوس بلا حراك، في الوقت الراهن. القصور الحركي، لم يكن هذا أحد أعراضها أيضًا، كما اعتقدت، لكنها واصلت القراءة وأدركت أنه رغم أنها لم تسمع بالكلمة من قبل، فهي تعاني ما وصفته، تصلب العضلات. إمساك، أحيانًا، أمعاء كسولة كما يسميها الدكتور "بينيجاس"، مشكلة يمكن حلها بتناول بعض الفاكهة أو الخضار المطهي. تخطت بقية الأعراض وانتقلت إلى الأسباب. لم تهتم إذا كانت السموم هي ما أتلفت المادة السوداء في الدماغ أم الجذور الكيميائية. لم تكن تعرف أن خمس عشرة بالمائة من الحالات كانت وراثية، لكنها لم تستطع تذكر أي شخص في عائلتها كان مصابًا بمرض "باركنسون". انتقلت إلى بعض الحقائق المثيرة للاهتمام: "يُنسب اسم المرض إلى "جيمس باركنسون"، الطبيب الإنجليزي الذي وصف المرض لأول مرة في عام 1817، في ذلك الوقت أُطلق عليه اسم الشلل الرعاّش".

توقفت للتفكير في هذه الأفعال. وصف المرض، ملاحظته، والنظر إليها لإخبار الآخرين عنها، مع كل التناقضات التي تنطوي عليها، مثل التناقض في القول بأن الجسد المشلول مضطرب. تخيلت شخصًا يحاول إخبارها عن هذا المرض الذي تعرفه الآن أكثر من أي شخص آخر لأنه بداخلها. يمكنها أن

تصفه بشكل أفضل من دكتور "باركنسون"، كما تعتقد، وستسميه "مصيبة إيلينا". أو تسميه ببساطة "إيلينا"، دون أي إضافات، مثل "باركنسون".

نادت "ريتا" مرة أخرى قبل أن تنتقل إلى كتيب النصائح حول كيفية التعامل مع الأعراض، وهو كتيب مصمم لمن يعانون المرض ومقدمي الرعاية لهم. لكن المياه كانت لا تزال تتدفق في المرحاض الوحيد بالمنزل، ولم تجب "ريتا". لهذا بدأت القراءة بمفردها، تحدث الكتيب عن القلق والاكتئاب والضيق الذي يصاب به المريض وكذلك الشخص الذي يعتني به، ويُسمى "مقدم الرعاية". هذه "ريتا". ينصح الكتيب مقدم الرعاية بممارسة تمارين الاسترخاء وتقنيات التنفس التي تتضمن تكرار عبارة "دع التوتر يتدفق عبر قدمي". أو الشهيق والزفير لمدة خمس عشرة دقيقة مع تكرار كلمة "الهدوء" كما لو كانت صلاة. هدوء. هدوء. تعتقد أن التكرار الأكثر دقة سيكون: اللعنة. اللعنة. اللعنة.

وقفت لتضع المكرونة في الماء. لم تستطع تمزيق الكيس بيديها، لذا طعنته بسكين، وقسَّمت الكيس إلى نصفين ووقعت عدة قطع منه على الأرض. ألقت الباقي في القدر. عادت إلى الطاولة وأخذت آخر كتيب: نصيحة من أجل حياة أفضل. كانت هناك ثلاث فئات: الأنشطة المشتركة، الأنشطة التي تُعتبر من الإنجازات، أنشطة ممتعة. اقترح الكتيب أن يقوم كل مريض ومقدم رعاية بعمل قائمتهم الخاصة، ثم يحاولا القيام بنشاطين في اليوم.

بمنتهى الطاعة، قامت بعمل قائمة في رأسها. قرأت الأمثلة من القائمة المطبوعة التي تم تضمينها كنموذج: تدرب مع صديق، اذهب للتسوق، اذهب إلى الشاطئ، شارك في مسرحية، غنِ في جوقة. استبعدتها كلها؛ لها ولـ"ريتا"؛ لم يكن هناك شاطئ قريب، لم تمارس الرياضة في حياتها أبدًا، تكره إنفاق الأموال على أشياء غير مفيدة، ولن تصعد على خشبة المسرح أو تغني في الأماكن العامة.

وصلت إلى الأنشطة التي تم اعتبارها من "الإنجازات": تغيير المصباح، كتابة قصيدة، بناء رجل ثلج، حل الكلمات المتقاطعة. أضافت حل الكلمات المتقاطعة إلى قائمتها العقلية وتساءلت عن مكان طباعة هذا الكتيب، فهي لم ترَ ثلجًا أبدًا، ناهيك عن لمسه. تساءلت عمَّا إذا كان للثلج رائحة، مثل رائحة المطر. بناء رجل ثلج. توقف صوت المياه في المرحاض، وسمعت "إيلينا" باب غرفة نوم "ريتا" يُفتح ثم يُغلق.

ذهبت لتفقد المكرونة، التي بدأت تغلي على السطح، لذا خفضت اللهب إلى الحد الأدنى. وقفت بجانب الموقد لبضع دقائق، ودون أن تجربها، فقط من لونها وشكلها، خمنت أن المكرونة قد غليت لفترة كافية. صفت المكرونة

في الحوض، وتناثرت بضع قطرات من الماء الحار على قدمها وحرقتها. أضافت إلى قائمة إنجازاتها العقلية، تصفية المكرونة دون تناثر الماء. وضعت بعض قطع الزبدة في وعاء وألقت المكرونة فوقه ثم غطتها بمنشفة أطباق حتى لا تبرد. عادت إلى الطاولة لمواصلة القراءة. أنشطة ممتعة: اذهب للتنزه في الغابة. لا غابات ولا شاطئ ولا ثلج. شاهد برنامجك التليفزيوني المفضل، أضافت ذلك إلى قائمتها. اقرأ كتاب نكات، عانق شخصًا تحبه. عناق. لا تتذكر آخر مرة عانقت فيها شخصًا ما أو احتضنها شخص ما. لا تتذكر.

ظهرت "ريتا" في المدخل وقالت، دون أن تصرخ: - لقد تركتِ الموقد مشتعلًا، وسيحترق المنزل.

دخلت المطبخ لكنها لم تطفئه، بل جلست أمام طبقها الفارغ على الطاولة. في هذا المكان، لم تستطع "إيلينا" أن ترى أن عينيها كانتا حمراوين. رفعت الكتيبات أمام ابنتها، وقالت: - ألقي نظرة على الكتيبات التي قدمها لنا "بينيجاس" يا طفلتي، هناك بعض الأشياء التي قد..

لكنها لم تنهِ عبارتها لأن "ريتا" انتزعت الكتيبات من يدها. أمسكتها للحظة، ولم تقرأها، بل أمسكت بها بإحكام ونظرت للكتيبات نظرة فارغة بعينيها المحمرتين، وهي تعرف أنها عديمة الفائدة.

- هذا يكفي يا ماما، يكفي.

قالت ووقفت، مشيت إلى الموقد، رفعت لهب الشعلة إلى أقصى حد، وأشعلت النيران في الكتيبات. عندما أوشك اللهب على حرق يدها، تركتها تسقط. تهاوت الصفحات المتفحمة على أرضية البلاط الخضراء، سقطت بجانب قطع المكرونة غير المطبوخة التي أسقطتها والدتها. وقفت "ريتا" بلا حراك وهي تراقب الورق وهو يشتعل ويطقطق ويتراقص حتى تغير لونه، وذاب بعيدًا، وتحول إلى رماد، وأخيرًا ذهب إلى المكان الذي تنتهي فيه النار عندما تحترق.

4

أخذت "إيلينا" حبة الدواء التي من المفترض أن تتناولها وتنتظر، جالسة على الأريكة في المنزل الذي توجهت إليه هذا الصباح، وينتظر معها قط، التقت به لتوها يقبع عند قدميها، وامرأة التقت بها في يوم ما منذ عشرين عامًا. تستطيع أن تشعر بالحبة تشق طريقها إلى حلقها، إنها في منتصف الطريق إلى هناك. لا تجرؤ على التحدث خوفًا من أنها إذا فتحت فمها، فإن الحبة ستخرج من حلقها مرة أخرى وستضطر لبدء العملية برمتها مرة أخرى.

دون صوت، نظرت إلى ساق المرأة، التي انطلقت للبحث عنها هذا الصباح، ودون أن تنطق بكلمة واحدة، طلبت منها بضع دقائق أخرى، وقت كافٍ لتذوب حبة الـ"ليفودوبا" ليتمكن جسدها من التحرك، حتى تعود في الطريق نفسه الذي جاءت منه إلى هنا. يبدو أن "إيزابيل" تفهم إيماءتها أو نظرتها قائلة: - خذي كل الوقت الذي تحتاجينه، أخبرتك بالفعل أنني لست في عجلة من أمري.

تغلق "إيلينا" عينيها وتحاول أن تتذكر الصلاة التي تتلوها في أثناء انتظارها، لكنها ترتبك مرة أخرى، تخلط الكلمات، وتتساءل عما إذا كانت ستتمكن من سرد أسماء الشوارع بمفردها، لتتذكر ترتيبها عند اجتيازها للوصول إلى محطة القطار الذي سيأخذها إلى المنزل، وكذلك الشوارع الأخرى، التي ستسير فيها من المحطة إلى منزلها.

من الأول للآخر ومن الآخر للأول، مرة، اثنان، مائة مرة، تتساءل عما إذا كانت ستتمكن من تلاوة صلاتها من أجل الملك المخلوع والإمبراطور العاري، المرسال والعاهرة، العضلة القصية الترقوية الخشائية، والمادة السوداء، والعاهرة، والـ"ليفودوبا". لكنها لا تتلو صلاتها لأنها ليست بمفردها وكل شيء مرتبك، وتصبح متوترة عندما تخرج عن النظام، ويستغرق الدواء وقتًا أطول حتى يأتي بمفعوله. تتنفس، وتوقفت تقريبًا عن الاهتزاز.

تقدم لها المرأة كوبًا آخر من الشاي وتقوم بقص ماصة قصيرة جديدة من بقية الماصة التي لا تزال على الصينية، بالطريقة التي رأت بها "إيلينا" تقسمها. تثنيها، وتقطعها بالسكين، تضعها في الكوب، ثم تجثو على ركبتيها أمامها وتضع الكوب، من دون الصحن، بين يديها. تأخذه "إيلينا" منها، ورغم أنها لا تأخذ رشفة، فإنها أومأت لها برأسها كما لو كانت تقول شكرًا، تنتظر أن تبتعد المرأة، لكن "إيزابيل" لا تتحرك، تبقى هناك، جالسة على الأرض بجانب القط، حتى تتمكن من النظر في عيني "إيلينا"، والنظر إليها وجهًا لوجه.

تنتهي رحلة الحبة أخيرًا وتبدأ في الذوبان، ويتحرر فم "إيلينا" وحلقها لتأخذ رشفة من الشاي، ثم قالت: - هل تعلمين أنني أحببتها وهي أحبتني؟

قالت "إيزابيل": - لا أشك في ذلك.

- بطريقتنا الخاصة بالطبع.

توضح "إيلينا"، لكن المرأة الأخرى لا تحتاج إلى التوضيح فتجيب: - دائمًا بطريقتنا الخاصة.

يجلس القط بين المرأتين.

- هل كنتُ أمًا جيدة؟ من يستطيع أن يعرف؟

تداعب "إيزابيل" القط، يلتوي القط، وينحني، ويميل مع المداعبة، يمد جسمه حتى تدوم المداعبة لفترة أطول. تراقبهما "إيلينا" وتمدد يدها لتداعب القط، لكنها لا تستطيع الوصول إليه، تحوم يدها في الهواء فارغة. تعيد ذراعها بجانبها. قالت: - كانت تمطر.

تجيب "إيزابيل": - ومع ذلك..

- ذهبت ابنتي رغم أن السماء كانت تمطر.

- ذهبت ابنتك لأن السماء كانت تمطر ولأن هناك شيئًا يخيفها أكثر من المطر.

قالت "إيلينا": - أنا.

نظرت إليها "إيزابيل" وقالت: - قد يكون جسد شخص آخر مرعبًا في بعض الأحيان.

تمد "إيلينا" يدها مرة أخرى نحو القط، وهذه المرة يساعدها القط فيمد رأسه نحوها. تداعب المرأتان الحيوان نفسه. سألتها "إيلينا": - هل تعتقدين أن "ريتا" خافت أن ترث مرضي؟

- لا، أعتقد أنها لم تستطع تحمل إصابتك به.

- لم تقل ذلك قط.

- أحيانًا يكون الصراخ أسهل من البكاء.

قالت "إيلينا": - كنت أود أن تكون "ريتا" هنا اليوم لتعرف الحقيقة.

أجابت "إيزابيل": - لا بد وأنها عرفت في النهاية، عندما شعرت أنها لا تستطيع الاستمرار في العيش، بعد الصدمة وخيبة الأمل، يجب أن تكون قد عرفت.

ينتقل القط من امرأة إلى أخرى، تتشاركانه. قالت "إيلينا" وهي تبكي: - أنا أريد أن أعيش رغم هذا الجسد، رغم وفاة ابنتي، ما زلت سأختار العيش، هل هذا كبر مني؟ منذ وقت ليس ببعيد قيل لي إنني متكبرة.

- لا تهتمي بالصفات التي ينعتك بها الآخرون يا "إيلينا".

تلتقط "إيزابيل" القط وتضعه في حجرها، وتقبله "إيلينا"، وتداعب القط الذي يلتف في حجرها: - هل تحبين القطط؟

أجابت "إيلينا": - لا أعرف.

قالت المرأة:

- حسنًا، نعلم أن القطط تحبك.

"إيلينا" تبتسم وتبكي في الوقت نفسه وتقول: - يبدو أنه معجب بي، نعم.

- ماذا ستفعلين الآن؟

تسألها "إيزابيل"، وتود "إيلينا" لو كان لديها إجابة، تود أن تقول إنها ستنتظر ثم تنهض وتغادر، لكن هناك كثيرًا من الكلمات تجتاح رأسها في الوقت نفسه بحيث أصبحت متشابكة ومتداخلة وتصطدم ببعضها، وتفقد طريقها أو تتفكك قبل أن تتمكن "إيلينا" من نطقها، لذا فهي لا تقول أي شيء، ولا تجيب، لأنها لا تعرف.

أو **لأنها تعرف الآن**، فهي لا تقول شيئًا، ولا تجيب، إنها تداعب هذا القط فقط. هذا يكفي اليوم، مداعبة القط. ربما غدًا، عندما تفتح عينيها وتتناول أول

حبة في الصباح، ستعرف. أو عندما تأخذ الحبة الثانية. ربما.

ما بعد النهاية

وُلدت "كلاوديا بينيرو" في مقاطعة بوينس آيرس، بالأرجنتين، عام 1960. وهي كاتبة مهمة وبارزة في المشهد الأدبي الأرجنتيني المعاصر، فضلًا عن كونها من ضمن المشاركين في العديد من الحملات، مثل الحملة التي نجحت في إعطاء المرأة حق الإجهاض في الأرجنتين حيث صدر قانون بعدم تجريمه. شاركت أيضًا ضمن حركة#NiUnaMenos وهي حركة مناهضة لقتل النساء. شاركت كذلك في حملات تنادي بضرورة إنشاء اتحاد للكتاب في الأرجنتين لتوفير الاستقرار المادي للمهنة.

تتألف كتاباتها من روايات، وقصص قصيرة، وبعض القصص الخيالية للشباب اليافعين، ومجموعة من المسرحيات، وقد فازت بالعديد من الجوائز المهمة، مثل جائزة "كلارين" CLARÍN للرواية (الأرجنتين) 2005 عن رواية "أرامل الخميس" (صدرت الترجمة العربية عن العربي للنشر والتوزيع عام 2017).

جائزة "ليبراتور" LIBERATURPREIS(ألمانيا) 2010 عن رواية "إيلينا تعرف".

جائزة "سور خوانا إنيس دي لا كروز" SOR JUANA INÉS DE LA CRUZ (المكسيك) 2010 عن رواية "شرخ في الحائط" (صدرت الترجمة العربية عن العربي للنشر والتوزيع عام 2022).

المركز الثالث في الجائزة الوطنية للأدب في الأرجنتين عن سيرتها الذاتية "رواية شيوعي يرتدي ملابس داخلية".

جائزة "روزاليا دي كاسترو" XII ROSALÍA DE CASTRO (إسبانيا) 2014 عن مسيرتها الأدبية.

جائزة "بيبي كارفايو" PEPE CARVALHO لأدب الجريمة (إسبانيا) 2019 عن إنجازاتها الأدبية طوال حياتها.

وجائزة "بلو ميتروبوليس" BLUE METROPOLIS(كندا) 2019 عن مجمل أعمالها.

بالإضافة إلى ذلك، حُولت أربع من رواياتها إلى أفلام: "أرامل الخميس"، و"بيتي بو" (صدرت الترجمة العربية عن العربي للنشر والتوزيع تحت عنوان "جريمة في بوينس آيرس" عام 2019)، و"كلي لك" (صدرت الترجمة العربية عن العربي للنشر والتوزيع عام 2016)، و"شرخ في الحائط". كما أنها كتبت

سيناريو مسلسل "المملكة"El reino الذي عُرض في موسم واحد عام 2021 على "نتفليكس"، وشاركها في كتابته المخرج "مارسيلو بينيرو".

قُدمت "كلاوديا بينيرو" حتى الآن للعالم الناطق باللغة الإنجليزية بوصفها كاتبة لأدب الجريمة، حيث تضمنت رواياتها المترجمة إلى الإنجليزية: "أرامل الخميس"، و"شرخ في الحائط"، و"جريمة في بوينس آيرس"، و"كلي لك"، وجميعها ترجمتها "ميراندا فرانس" ونشرتها دار "بيتر ليمون"Bitter Lemon Press بالإنجليزية.

مع ذلك، فإن مكانة "بينيرو" باعتبارها "ملكة أدب الجريمة"، والتي عززتها جائزة "بيبي كارفايو" المرموقة، ربما طغت على قدرتها الأكثر أهمية في النقد الاجتماعي الملح للمجتمع المعاصر الذي تقدمه في رواياتها.

كما أن حصر أعمالها في أدب للجريمة فقط يقلل من نظرتها النقدية تلك، حيث أصبحت في الروايات الأخيرة أكثر تركيزًا على القضايا الاجتماعية الملحة. بالنسبة لـ"بينيرو"، فإن حل جريمة واحدة ليس سوى نصف القصة، لأنها غالبًا ما تستعرض عن طريق جريمة واحدة - بشكل مجازي - الفساد الموجود في صميم المجتمع. كما قالت في خطاب الحفل الذي حصلت فيه على جائزة "بيبي كارفايو": "ظهر أدب الجريمة للتنديد بالظلم".

تقول إنه في الوقت الحاضر من المستحيل كتابة رواية عن الجريمة دون الكتابة أيضًا عن المجتمع الذي وقعت فيه الجريمة. في عام 2018، افتتحت المعرض الدولي للكتاب في بوينس آيرس بخطاب بعنوان: "ماذا يتوقع الناس من الكاتب؟ المعارضة بوصفها حالة من اليقظة".

كما أشارت إلى الشعور بمسؤولية الكاتب في أن يأخذ مسافة نقدية، ليعالج المشكلات الاجتماعية بشكل مباشر، وكيف أنه جانب مهم من عملها.

من خلال ترجمة رواية "إيلينا تعرف" إلى القراء الناطقين باللغة الإنجليزية، تعتزم دار "تشاركو"Charco Press إعادة إطلاق "بينيرو" باللغة الإنجليزية لكن هذه المرة بوصفها كاتبة ذات التزام وثقل أخلاقي. قبل تقديم رواية "إيلينا تعرف"، سيساعد تقديم لمحة موجزة عن رواياتها السابقة في وضعها في سياقها.

كانت الرواية التي ذاعت بها شهرة "بينيرو" عام 2005 هي "أرامل الخميس"؛ عندما تظهر ثلاث جثث في حمام سباحة أحد سكَّان المجمع السكني "كاسكايد هايتس"، يُصاب الجميع بالحيرة، كيف ولماذا، ومن؟

كيف حدث هذا ولماذا حدث هذا، والأهم، من فعلها؟ هل قُتلوا أم..؟ "كاسكايد هايتس"، الحي المغلق الذي يعزلهم عن العالم الخارجي، الذي يأوي

مجموعة من عائلات الطبقة الوسطى الذين يحاولون أن يحيوا حياة فوق مستواهم بكثير، يخدعون أنفسهم أنهم لا يعانون المشكلات المادية، وأن الأزمات التي حلت عليهم ستمر لا مفر، ولكن هل حقًا ستمر؟ في أرامل الخميس، تهاجم كلاوديا بينيرو في سياق رواية الجريمة مجتمعًا يخدع نفسه ويعيش بالمظاهر وللمظاهر فقط.

يخضع من يدخل ويخرج من هذا المجتمع المسوَّر لرقابة صارمة، وعندما تُرتكب الجرائم، يسود مناخ خوف وشك متبادل بين السكان، الذين يتضخم ميلهم المعتاد إلى مقارنة أنفسهم مع أقرانهم بقلق شديد وبشكل غير صحي. ويحث السؤال الاستفزازي في نهاية الرواية، "هل تخشى المغادرة؟"، عندما تستعد عائلة متضررة للخروج من المجتمع المسوَّر أو الفقاعة الاجتماعية المختلة، وهو ما يلقي بإشارات واضحة ربما تؤثر في أي شخص يعيش حياته دون مشكلات وفي جهل متعمد بانقسام المجتمع وانهياره من حوله.

تدور أحداث رواية "جريمة في بوينس آيرس" في مكان مشابه لـ"أرامل الخميس"، حيث تبدأ بجريمة في مجتمع مسوَّر، ولكن هنا تأخذ عملية التحقيق مركز الصدارة. تستخدمها "بينيرو" للمقارنة بين الصحافة الاستقصائية القديمة والبحث المعاصر على الإنترنت ومواقع الأخبار الفورية، إلى جانب استكشاف الدوافع الإجرامية من خلال الرواية. تستخدم الرواية لاستخلاص استنتاجات أخلاقية حول حاجة الأفراد إلى تقييم مصادر الأخبار المتضاربة بأنفسهم، مما يجعل هذه الرواية تبدو مناسبة جدًا في عصر "الأخبار المزيفة".

تأتي رواية "شرخ في الحائط" بعيدة عن جو التحقيقات الاستقصائية في جوهرها، ولكن مرة أخرى يتم تخصيص جزء كبير من الحبكة للتدقيق الاجتماعي الأوسع، ودراسة الطرق التي يمكن من خلالها تلطيخ المثل العليا لكل من الأفراد والمؤسسات وتحليل سلوكهم في سياق من الممارسات النيوليبرالية المدفوعة بتحقيق الربح. علاوة على ذلك، فإن وجود جثة مدفونة في أساسات المبنى الذي تدور فيه الأحداث يُستخدم في الرواية كمرادف للتاريخ المظلم الحديث لبوينس آيرس، خلال حقبة الديكتاتورية العسكرية 1976-1983، عندما أدى القمع السياسي إلى وجود "مدينة، يرقد كثيرون من موتاها خارج جدران مقابرها؟" (شرخ في الحائط).

في رواية "كلي لك"، وهي رواية عن جريمة تم التخطيط لها بشكل رائع وتسير بخطى جيدة، هناك حبكة ثانوية تتنافس على جذب انتباه القارئ مع تشويق السرد الرئيسي. تدور هذه الحبكة الفرعية حول مسألة الإجهاض السري، وعواقب السرية والمحظورات المحيطة به بالنسبة لعائلة من الطبقة الوسطى، حيث الوالدان مهووسان بنفسيهما لدرجة أنهما لا يلاحظان

حتى أن ابنتهما حامل. تشير هذه الفكرة الجديدة بوضوح إلى الاتجاه الذي اتخذته "إيلينا تعرف".

"القليل من الحظ"، رواية تضع الشخصية الرئيسية "ماريلي" في موقف متأزم، فرغم كونها أمًا محبة، فإنها تشعر بأنها ليس لديها خيار سوى التخلي عن زوجها وابنها الوحيد. مثل عديد من أعمال "بينيرو" الأخرى، تدرس العلاقة بين الأب أو الأم والطفل وهي في حالة من التوتر الشديد.

في رواية "اللعنات"، على سبيل المثال، نرى "بينيرو" تفحص طبيعة الأبوة. كما أنها تحول نظرتها النقدية إلى السياسة، وتدور الرواية حول السياسة المتبعة في الوقت الحاضر في العالم المعاصر المعولم، الذي تحركه وسائل الإعلام، حيث تتشكل السياسات في كثير من الأحيان من خلال ما سيؤمن التصويت الشعبي على المدى القصير، بدلًا من الأهداف طويلة المدى.

في مجموعة القصص القصيرة "أليس كذلك؟"، تلقي هذه النظرة الساخرة على عالم الكتب الأكثر مبيعًا والإفلاس الأخلاقي في مجال النشر، في قصص "الموت والقارب"، و"الهواء المبارك في بوينس آيرس"، كما تعيد "بينيرو" التركيز على موضوع الإجهاض في قصة "بقايا قطع الدجاج"، التي تركز على جيلين من النساء في الأسرة ينقلن المعرفة المؤلمة حول كيفية إنهاء الحمل بإبرة التريكو.

تسليط الضوء على النساء اللائي يتم دفعهن لاتخاذ تدابير يائسة، وعلى النفاق المجتمعي وإكراه المحيطين لهن، يصل إلى أقصى درجاته في "إيلينا تعرف"، وهو التدخل الأكثر قوة لـ"بينيرو"، من خلال الكتابة الإبداعية، في حملة طويلة لإضفاء الشرعية على الإجهاض. يمكن تشبيه قوة الرواية بتأثير سلسلة رسومات الفنانة التشكيلية البرتغالية "باولا ريجو" عام 1998 لعمليات الإجهاض، والتي أعيد نشرها في الصحف الوطنية البرتغالية في الأيام التي سبقت الاستفتاء البرتغالي الثاني على الإجهاض عام 2007.

ربما لهذا السبب لم تُترجم "إيلينا تعرف" سابقًا للغة الإنجليزية؛ فمع هذه الرواية على وجه الخصوص، لا يمكن تصنيف "بينيرو" بشكل مريح على أنها مجرد كاتبة أدب جريمة. تتجاوز "إيلينا تعرف" عناصر التحقيق في الجريمة لتثير أسئلة أخلاقية ملحة، وتتحدى النفاق الديني وتهز العقيدة الكاثوليكية في صميمها.

"إيلينا تعرف"

"إيلينا" ليست بطلة تقليدية، فهي أرملة أرجنتينية مسنة تعاني مرحلة متقدمة من مرض "باركنسون". تشهد علاقتها بابنتها "ريتا"، التي هي أيضًا مقدمة الرعاية لها، استياءً متبادلًا وجدالًا مريرًا. رغم العنوان، الذي يركز على ما تعرفه "إيلينا"، فإن مفتاح هذه الرواية المؤثرة بقوة هو ما لا تعرفه "إيلينا".

تدرس "بينيرو" العلاقة الصعبة بين الأم وابنتها، وتستخدمها للتساؤل عن مدى سيطرة النساء على أجسادهن وأجساد الآخرين. تتبع القصة تحولًا من الغطرسة إلى التواضع من جانب "إيلينا"، ومن الاقتناع إلى اليأس من جانب ابنتها "ريتا"، رغم أن هذا المسار يخفيه تطور السرد غير المرتب زمنيًا بالرواية. علاقتهما العدائية متداخلة مع حياة "إيزابيل"، التي هي أيضًا أم، رغم أنها عاشت حياة مأساوية بهدوء رافضةً هذه الصفة.

يتمثل أكبر افتراض لدى "إيلينا" في أنها بصفتها أمًا، تعرف ابنتها بشكل كامل وأساسي، وبالتالي تعرف كيف سيكون رد فعلها في ظل ظروف معينة.

"لا أحد يعرف ما تعرفه هي عن ابنتها؛ أو هكذا تعتقد "إيلينا"، لأنها والدتها، أو كانت والدتها. تعتقد "إيلينا" أن الأمومة تأتي مع أشياء معينة؛ الأم تعرف طفلها، الأم تعرفه، الأم تحبه. هكذا يقولون، هكذا هو الأمر. لقد أحبت ابنتها ولا تزال تحبها رغم أنها لم تقل لها ذلك مطلقًا، رغم أنهما كانتا تتعاركان وتبتعدان عن بعضهما، رغم أن كلامهما معًا كان مثل ضربات السوط، حتى لو لم تعانق ابنتها أو تقبلها، فقد شعرت بحب الأم" (الفصل السابع - الجزء الأول).

إصرار "إيلينا" الراسخ يدفعها في رحلة مؤلمة نحو معرفة الذات، نحو إنكار ما اعتقدت أنها تعرفه، وإدراك أنها في الواقع لم تكن تعرف ابنتها كما اعتقدت. تتفاقم الرحلة وتدفعها في الوقت نفسه معاناة "إيلينا" من مرض "باركنسون"، والقيود الشرسة التي يفرضها عليها المرض، جسديًا وعقليًا على حد سواء، يتم رسمها بشكل مقنع، فلا تستطيع "إيلينا" التحرك دون مساعدة من الأدوية، ومحيط نظرها محدود بسبب عدم قدرتها على رفع رأسها إلى أبعد من نقطة معينة.

يقال لنا إن "وقتها يُقاس بحبوب الدواء" (الفصل الثاني- الجزء الثاني)، ويعزز ذلك تقسيم السرد إلى ثلاثة أجزاء: الصباح، ومنتصف النهار، وبعد الظهر، وهي الأوقات التي تأخذ فيها "إيلينا" حبوب الدواء الثانية والثالثة والرابعة.

هذه الطقوس، مثل صدى متدهور للصلوات الرهبانية، تعززها ابتهالات "إيلينا" الشخصية بأسماء الشوارع المتكررة بينما تنتظر مفعول حبوب الدواء. وبشكل مؤثر، يُترك لنا التكهن حول الوحدة التي تعانيها "إيلينا" في الساعات الأولى من اليوم، قبل بدء السرد، عندما تناولت أول حبة في اليوم.

رغم عدم التقيد الصارم بوحدات الزمان والمكان والحبكة، فإن الهيكل المكون من ثلاثة أجزاء وكثافتها يبدو وكأنه لفتة نحو المأساة اليونانية. تقع الحبكة الرئيسية في الوقت الحاضر، وهو اليوم الوحيد الطويل الذي تنطلق فيه "إيلينا" في رحلة شاقة لرؤية "إيزابيل"، رغم أنه يتجسد من خلال ذكريات للماضي عن الأحداث التي وقعت منذ عشرين عامًا.

تدور الأحداث في أحياء "إيلينا" و"إيزابيل" المحلية في بوينس آيرس، وهناك شعور بوحدة الأحداث في الرواية حيث تنبع بأكملها من تدخل حاسم واحد قامت به "ريتا" كان له عواقب مدمرة وطويلة الأمد بالنسبة لهم جميعًا.

تعمل القوى المجتمعية هنا على ما يقيد خيارات الحياة لهؤلاء النساء الثلاثة. الكنيسة الكاثوليكية وعقائدها تلوح في الأفق بأقوالها القاطعة عن البشر وأجسادهم: "الكنيسة تدين الانتحار تمامًا كما تدين أي قتل، وأي استخدام غير مشروع للجسد الذي لا نملكه، مهما كان الاسم الذي تريدين أن تعطيه لهذا الفعل: انتحارًا أو إجهاضًا أو قتلًا رحيمًا" (الفصل الثامن - الجزء الأول).

تستكشف "بينيرو" ما يُسمى بالاستخدامات "الخاطئة" للجسد، مما يعطي لمسة مميزة ويخلق عديدًا من أوجه التشابه بين شخصياتها وطريقة استخدام أجسادهن واستغلالها من قبل الآخرين في الوقت نفسه.

نرى كيف أن "ريتا" مؤمنة بصرامة بمذاهب الكنيسة إلى حد فرضها على شخص غريب، وتمنع "إيزابيل" من إجراء الإجهاض الذي تريده بشدة. في الواقع، إن "ريتا" وصديقها "روبرتو"، وهو شخص في منتصف العمر، "وحدت قناعات "روبرتو" و"ريتا" بينهما أكثر من أي شيء آخر، كان لكليهما تلك الطريقة الخاصة التي يعبران بها وهما يستخدمان أكثر المفاهيم شمولًا وتعسفًا وابتذالًا وكأنها حقائق مطلقة. قناعات حول الطريقة التي يجب أن يجرب بها المرء شيئًا لم يجرباه بنفسيهما من قبل، وكيف يجب أن يسير الناس في حياتهم بالطريقة نفسها التي جرباها أو حتى تلك التي لم يجرباها، ويقومان بإصدار المراسيم حول ما يجب وما لا يجب فعله" (الفصل الخامس - الجزء الثاني).

ومع ذلك، يخضع جسد "ريتا" بدوره لفحص طبي مؤلم ومهين، بتحريض من والدتها والمؤسسة الطبية، للتحقق مما إذا كان لديها رحم صالح لأهداف

الأنثى، وسلمت جسدها لاحقًا إلى أحد "الاستخدامات الخاطئة" وفقًا للكنيسة. في تلك الأثناء، تعاني "إيلينا" بشكل رهيب على يد "علتها"، "تلك العاهرة اللعينة" (الفصل الأول - الجزء الأول) كما تصف باستياء مرضها "باركنسون"، لكنها تنوي في الوقت نفسه استخدام/ استغلال جسد "إيزابيل" السليم كبديل لجسدها المريض لإجراء تحقيقاتها الخاصة في وفاة "ريتا".

من بين جميع الشخصيات، تُعد "إيزابيل" الضحية الحقيقية. تم الاعتداء على جسدها من جميع الجهات، من قبل زوجها، و"ريتا"، وكادت أن تفعل "إيلينا" الشيء نفسه. ومع ذلك، بينما تتكشف المأساة، هناك ترابط حقيقي بينها وبين "إيلينا"، حيث أدركت كلتا المرأتين أن عدم المعرفة وعدم وجود أنماط صريحة وواضحة هو شيء تتفقان عليه. "إيزابيل"، رغم أن لديها ابنة، تتنصل من الأمومة: "أنا شيء آخر، شيء ليس له اسم" (الفصل الثاني – الجزء الثالث)، وتشك "إيلينا" في نجاحها في دورها بصفتها أمًا وحتى في حقها في أن تُدعى أمًا، بعد وفاة طفلتها الوحيدة. في مشهد سينمائي، تترابط المرأتان الحزينتان ضمنيًا حول شيء عاطفي بديل، قط "إيزابيل"، الذي يتنقل بينهما بصمت ذهابًا وإيابًا.

القضايا التي أثارتها "إيلينا تعرف" عالمية ومعقدة ومتماشية مع الوقت الحاضر. العقبات التي تحول دون حق المرأة في السيطرة على جسدها، والأساطير والحقائق المحيطة بالأمومة، القيود العقلية والجسدية على الروتين اليومي للمرأة، والتحديات المتزايدة للمرض وشيخوخة الجسد.

رغم أن قضية الإجهاض هي بلا شك الموضوع الرئيسي والمشتعل للرواية، فإن "إيلينا تعرف" تطلب أيضًا من القارئ أن يضع نفسه مكان "إيلينا"، الذي لا تُحسد عليه، من حيث العمر والعجز. واحدة من أكثر اللحظات المؤثرة في الرواية تحدث عندما تغادر "إيلينا" موعدها بعد استلام شهادة الإعاقة الخاصة بها. يرى "روبرتو" أنها تبكي ويسألها عن السبب، فتجيب ببساطة: "لقد عاملوني بلطف" (الفصل الرابع – الجزء الثاني).

في هذه اللحظة من الضعف، نلقي نظرة ثاقبة نادرة على فظاظة "إيلينا" وقوتها المعتادتين، اللتين تم الكشف عنهما - جزئيًا على الأقل - لتكونا دفاعًا ضروريًا عن النفس ضد التفرقة العمرية الشاملة، وتهميش كبار السن والمعوقين من جانب المجتمع.

تتحدى "إيلينا تعرف" الأفكار الثابتة حول الشيخوخة والإعاقة، والإجهاض. تروي "بينيرو" في أحدث رواياتها "الكاتدرائية" بقوة أكبر الآثار المأساوية المحتملة لوجهة نظر كاثوليكية تقليدية صارمة بشأن الإجهاض. نُشرت "الكاتدرائية" خلال الإغلاق العالمي الناتج عن جائحة "كورونا"، وفي سياق

المناقشات العامة الشرسة في الأرجنتين حول تقنين الإجهاض، الذي وافق عليه الكونجرس الوطني في نهاية المطاف في 30 ديسمبر 2020.

تقدم روايتها القوية متعددة الأصوات سردًا من منظور شخصية مختلفة في كل فصل، لتتخيل المدى المروع الذي سيذهب إليه كل فرد من أفراد الأسرة في رغبته المضللة في التحلي بـ"الحشمة" والحفاظ على شرف العائلة.

في جميع أعمالها، لا تخجل "بينيرو" من الأسئلة الأخلاقية الأكثر إلحاحًا. تضع شخصياتها في أزمات حيث يتعين عليهم اتخاذ قرارات جذرية، غالبًا ما تجد شخصياتها أنهم لا يعرفون حقيقة أفكارهم حتى تتعرض أجسادهم للخطر، وفي اللحظة الحاسمة، يظهر نوع أعمق من المعرفة.

"إيلينا تعرف"، إلى جانب روايتها "الكاتدرائية"، ربما تكونان أكثر روايات "بينيرو" تعبيرًا عن عمق قدرتها على الاستفادة من المشاعر القوية والأحاسيس المتطرفة المحيطة بمناقشة قضية حق المرأة في الإجهاض، بينما تقدم للقارئ بطلة بوليسية تبعد بسنوات ضوئية عن مثيلتها "مس ماربل" في روايات "أجاثا كريستي": امرأة غير مقبولة وصريحة تعاني مرض "باركنسون" وتصر بعناد رغم الصعاب على التحقيق في وفاة ابنتها.

إن إعادة تقديم "كلاوديا بينيرو" عن طريقة ترجمة هذه الرواية تحديدًا، يُظهر الكاتبة في أكثر حالاتها التزامًا، حيث تأخذ مجازات أدب الجريمة إلى بُعد أخلاقي أعمق وتبرز النزاهة الأخلاقية العليا. في إبداع "إيلينا"، تقدم لنا "بينيرو" مثالًا رائعًا حقًا للتواضع والمثابرة والاستعداد للتغيير. دعونا نقبل هديتها.

د. فيونا ماكينتوش[1] جامعة إدنبرة، مارس 2021

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1. المدينة الخفية	أونداكي	أنجولا
2. اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
3. كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4. أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5. جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
6. شرخ في الحائط	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
7. إيلينا تعرف	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
8. نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
9. مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
10. سأنتقم لموتك	كارما رييرا	أسبانيا
11. الدبلوماسي	إليت أليشكا	ألبانيا
12. قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتسة	ألمانيا
13. لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
14. سيلفي مع الشيخ	كريستوف بيترز	ألمانيا
15. يومًا ما سنقول لبعضنا كل شيء	دانييلا كراين	ألمانيا
16. الحب في خمسة فصول	دانييلا كراين	ألمانيا
17. نهاية الوحدة	بينيدكت ويلز	ألمانيا
18. حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
19. أفلام في قصص	مجموعة مؤلفين	أمريكا
20. مصنع الأحذية	چيفري لويس	أمريكا
21. عندما كنتُ أنتِ	مينكا كينت	أمريكا
22. جريمة في المنزل المفتوح	كاتي سايس	أمريكا
23. الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
24. اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
25. حياة على باب الثلاجة	أليس كوبيرز	إنجلترا
26. ثم ابتلعه الحوث	أمير أحمدي أريان	إيران
27. لا صديق سوى الجبال	بهروز بوتشاني	إيران/
	علي ريزا طاهري أراغي	كردستان

28. خالدو طهران		إيران
29. الموت والبطريق	أندري كوركوف	أوكرانيا
30. تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
31. بقايا يوم صيفي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
32. بيت من زجاج	ويندي إرسكين	أيرلندا
33. عملية البنك الأيرلندي	ريتشارد أوراو	أيرلندا
34. مشعلو الحرائق	جان كارسون	أيرلندا
35. قصص من أيرلندا	مجموعة مؤلفين	أيرلندا
36. الوردة البيضاء.. الغابة السوداء	إوين دمبسي	أيرلندا
37. جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
38. شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
39. عاصفة الشمال	إينار كاراسون	أيسلندا
40. الفخ	ليليا سيجورادوتير	أيسلندا
41. المصيدة	ليليا سيجورادوتير	أيسلندا
42. القفص	ليليا سيجورادوتير	أيسلندا
43. امرأة على حافة العالم	ستينون سيجورذاردوتير	أيسلندا
44. رسائل إلى هيلجا	بريجيسفين بيريسون	أيسلندا
45. الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
46. أسود صقلية	ستيفانيا أوشي	إيطاليا
47. حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
48. من هو لو؟	أوتافيو كابيلاني	إيطاليا
49. أحلام سعيدة يا صغيري	ماسيمو جارميلليني	إيطاليا
50. العزلة	كلاوديو موراندیني	إيطاليا
51. يومًا ما.. الآن	ماسيمو جارميلليني	إيطاليا
52. سيارة اسمها نصر	إيلمار تاسكا	إستونيا
53. الرجل الذي تحدث الثعبانية	أندروس كيريفاك	إستونيا
54. أرق من الجلد	أوزما إسلام خان	باكستان
55. مرثيات وطن	أياد أختار	باكستان
56. سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
57. امرأة في حقيبة	رافاييل مونتيز	البرازيل
58. بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل

59. كابوس ساو باولو	أنطونيو شيرشينيسكي	البرازيل
60. الروليت الروسي	رافاييل مونتيز	البرازيل
61. عائدة إلى الشمس	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
62. امرأة في الظلام	رافاييل مونتيز	البرازيل
63. مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
64. نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
65. الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
66. ماذا فعلت غدًا؟	برونو فييرا أمارال	البرتغال
67. بين يديك	إينيس بيدروسا	البرتغال
68. أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
69. فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
70. التعساء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
71. صانع الملائكة	شتيفان بريجس	بلجيكا
72. مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
73. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
74. أبسنت	أيفر تونش	تركيا
75. أحلام محطمة	بيولنت سينوكاك	تركيا
76. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
77. امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
78. توباز	هاكان جنيد	تركيا
79. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
80. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
81. جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
82. الطلاق على الطريقة التركية	أسمهان أيكول	تركيا
	أسمهان أيكول	تركيا

83. تانجو إسطنبول		
84. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
85. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
86. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
87. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
88. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
89. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
90. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
91. سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
92. جريمة أبي	هاكان جنيد	تركيا
93. الرجل الذي باع العالم	ألبير چانيجوز	تركيا
94. المدينة ذات العباءة القرمزية	أصلي إردوغان	تركيا
95. الدرويش	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
96. حكايات العمة روزا	سيفجي سويسال	تركيا
97. الوكالة السرية	ألبير جانيجوز	تركيا
98. نجم المساء	إسكندر بالا	تركيا
99. ذات ظهيرة في يني شهير	سيفجي سويسال	تركيا
100. نيران الجحيم	ألبير چانيجوز	تركيا
101. سقوط شجرة الحور	سيفجي سويسال	تركيا
102. جريمة الأخ الصغير	ألبير جانيجوز	تركيا
103. جرائم براج	ميلوش أوربان	التشيك
104. معسكرات الشيطان	ياخيم توبول	التشيك
105. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
106. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
107. الجريمة المنسية	فيكتوريا هانيشوفا	التشيك
108. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك

109. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
110. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
111. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
112. احذري يا آنا	ماريك سيندیلكا	التشيك
113. الحب في زمن الاحتباس الحراري	جوزيف بانيك	التشيك
	ميخال سيكورا	التشيك
114. القضية لم تنتهِ بعد		
115. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
116. العقل المدبر	ديفيد أوجنر	جواتيمالا
117. آزوري	ك. سيلو دويكر	جنوب
118. المنتحر	أولجا سلافينكوفا	أفريقيا
119. في انتظار الطوفان	رومان سنشين	روسيا
120. عودة السوفيتي	زيبلسكي باسترناك وفيريماي بيا	روسيا
121. رسائل سبتمبر	برايوني رحيم	روسيا
122. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	زيمبابوي
123. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
124. يوغوسلافيا.. أرض أبي	جوران فوينوفيتش	سلوفاكيا
125. شجرة التين	جوران فوينوفيتش	سلوفينيا
126. الحياة هنا	ميرال قريشي	سلوفينيا
127. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
128. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
129. كاتبة وكاتب	فيولا رونر	سويسرا
130. المتلعثم	تشارلز ليفينيسكي	سويسرا
131. لصوص المقابر	فرانسين ماري ديفيد	سويسرا
132. كالمان	تشارلز ليفينيسكي	سويسرا
133. جريمة عيد الميلاد	أندريه روزلاند	السويد
134. جريمة الذئب الوحيد	هينينج مانكل	السويد
135. جريمة تفجير الأولمبياد	ليزا ماركلوند	السويد
136. عُرف مدى الحياة	إيميلي شيب	السويد

137. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
138. بنات الصين	يي مِاي	الصين
139. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
140. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
141. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
142. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
143. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
144. أيام.. شهور.. سنوات	يان ليان كه	الصين
145. المبنى 21	تشو داشين	الصين
146. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	صربيا
147. حمام البلقان	فلاديسلاف باياس	صربيا
148. المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
149. جريمة في باريس	صوفي إيناف	فرنسا
150. أخي الكبير	ماهر جوفن	فرنسا
151. ندبات	دالي ميشا توريه	فرنسا
152. فرقة غريبة الأطوار	صوفي إيناف	فرنسا
153. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
154. التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
155. حديقة الكلاب	صوفي أوكسانين	فنلندا
156. جريمتي الأولى	لينا ليهتولاينين	فنلندا
157. من عدوها؟	لينا ليهتولاينين	فنلندا
158. اعترافات مؤجلة	ماجيلا بودوين	فنزويلا
159. الكاتدرائية السوداء	مارسيال جالا	كوبا
160. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
161. أين أنتِ؟	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
162. العودة إلى الوادي المظلم	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
163. فتاة كازابلانكا	إن كولي جان بوفان	الكونغو
164. حارس الشانزليزيه	جُوز	كوت ديفوار
165. فنانو الذاكرة	چيفري مور	كندا
	كريستيان قواي بوليكوين	كندا

166. حتى تذوب الثلوج	جونج يو جونج	كوريا
167. جريمة الابن الصالح	أوتو أوزولس	لاتفيا
168. العملية "سمكة الفيل"	باولز بانكوفيكيس	لاتفيا
169. الثامن عشر من نوفمبر	زيجموندز سكوينش	لاتفيا
170. رسائل من امرأة مجهولة	أوندراش فورجاتش	المجر
171. أمي عميلة سرية		
172. صانع الزجاج	إرميس لافازانوفسكي	مقدونيا
173. القنَّاص	بلايز مينيفيسكي	مقدونيا
174. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
175. القزم	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
176. د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيليكس	المكسيك
177. الجريمة المكسيكية	إكتور آجيلار كامين	المكسيك
178. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
179. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
180. جريمة العروس الهندي	كارين فوسوم	النرويج
181. جريمة على حافة البحيرة	كارين فوسوم	النرويج
182. سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
183. حرية حزينة	فريدريكه جيزفاينر	النمسا
184. ف.و.م.و	ألموت تينا شميت	النمسا
185. منزل وسياراتان وطفل	تانيا رايخ	النمسا
186. حزن غير محتمل	بيتر هاندكه	النمسا
187. ثقل العالم	بيتر هاندكه	النمسا
188. في ليلة مظلمة تركت منزلي الصامت	بيتر هاندكه	النمسا
189. عودة مطولة إلى الوطن	بيتر هاندكه	النمسا
190. أعيش مع شبح	لورا فرويدنتالر	النمسا
191. أختي قاتلة متسلسلة	أوينكان بريثويت	نيجيريا
192. فتاة نيبال الثرية	شيواني نيباني	نيبال
193. دكَّان الساري	عبدالله خان	الهند
194. أحزان هندية	روبا باجوا	الهند

195. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
196. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
197. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
198. عمدة أمستردام	هيرمان كوخ	هولندا
199. تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
200. أجمل فتاة في چنوة	إيليا ليونارد فايفر	هولندا
201. قلق الأمسيات	ماريكا لوكاس رينفيلد	هولندا
202. عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا
203. تومايبني	كلارا موماني	كينيا
204. بذلة فضاء برتقالية اللون	لويد ماركهام	ويلز
	جاري رايموند	ويلز
205. المدينة الخاوية	مانون ستيفان روس	ويلز
206. كتاب نيبو الأزرق	أماندا ميكالوبولو	اليونان
207. لماذا قتلت أعز صديقاتي؟	كريستوس إيكونومو	اليونان
208. جزيرة الفئران	كريستوس إيكونومو	اليونان
209. شيء ما سيحدث		

صدر من كتب عامَّة:

210. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
211. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
212. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
213. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
214. الشاي: ثقافات.. طقوس.. حكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
215. لماذا تنتفض الشعوب؟	جيرو فون راندوف	ألمانيا
216. الرمان: تاريخ وحكايات من حول العالم	بيرند برونر	ألمانيا
217. القمر	بيرند برونر	ألمانيا
218. السادات.. شميت: حوار الأزمات	كارل جوزيف كوشيل	ألمانيا
219. مستقبل النسوية	مجموعة مؤلفين	إنجلترا
220. إسكتشات مصرية	جيريمايا لينش	إنجلترا
221. شذرات من التاريخ المصري	آرثر بروم	إنجلترا
222. تشرنوبل: 01:23:40 الحقيقة كما حدثت	أندرو ليذرارو	إنجلترا
223. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
224. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
225. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
226. البيئة: لغز المستقبل	أندري سنار ماجنسون	أيسلندا
227. مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
228. زيارة لمكتبات العالم: أشهر مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
229. ضد أمازون	خورخي كاريون	إسبانيا
230. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
231. الذكاء الأخضر	ستيفانو مانكوسو	إيطاليا
232. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
233. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	ديفيد فان ريبروك	بلجيكا
234. علم كرة القدم	مجموعة محررين	البرازيل
235. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك

فاتسلاف هافل		التشيك
دويين باهتشجي		تركيا
جي. إم. لو كلوزيو		فرنسا
أنطوان لاريس		فرنسا
بيل فرانسوا		فرنسا
أوسكار بانتوخا		كولومبيا
كونرادو زولواجو		كولومبيا
لويس كونساليز سارمينتو		كولومبيا
بردراج ماتفيجيتفيتش		كرواتيا
بارك مين جون		كوريا
ثور جوتاس		النرويج
إيريكا فاتلاند		النرويج
إيريكا فاتلاند		النرويج
تاريي تفيت		النرويج
دوي درايسما		هولندا
يوريس لونديك		هولندا
ينس فان تريخت		هولندا
إلين دي فيسر		هولندا
ماريت بون وليزبيت فان روسوم		هولندا

236. قوة المستضعفين
237. كيفية حساب بصمتك الكربونية
238. النشوة المادية
239. لن أمنحكم كراهيتي
240. الأسماك.. ما لا نعرفه عن عالم البحار
241. جابو
242. ماركيز: لن أموت أبدًا.. حكايات كتبه
243. متسلقو الجبال
244. الخبز
245. دليلك إلى لعبة الحبار
246. الجري
247. سوفيتستان
248. الحدود
249. النيل
250. عقول مريضة
251. اللعب مع الكبار
252. النسوية للرجال
253. ذلك المريض: عن مرضى غيروا حياة أطبائهم إلى الأبد
254. الدهون: العضو السري

Notes

[1 ←]
- أستاذة أدب أمريكا اللاتينية. تُدرس منذ عام 2002 في جامعة إدنبرة وحاضرت في جامعة كوينز. حصلت على درجة الماجستير في الأدب الفرنسي والإسباني الحديث من جامعة أكسفورد، كما حصلت على درجة الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة واريك عام 2000. كما نالت العديد من الجوائز العلمية والتقديرية.